

قصة المولد

تأليف
الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

تحقيق
أ. د. نجم الدين خلف الله

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

دار سحنون للنشر والتوزيع
تونس



تأليف

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

تحقيق

أ. د. نجم الدين خلف الله

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



دار سحنون للنشر والتوزيع
تونس

دار سحنون للنشر والتوزيع
تونس

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بطاقة فهرسة : فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

ابن عاشور ، محمد الطاهر .
السيرة النبوية : قصة المولد / تأليف محمد الطاهر ابن عاشور ؛ تحقيق نجم الدين خلف الله - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٥م .
٢٠٨ ص ؛ ٢٤ سم . تدمك ٣ ٢٥٢ ٧١٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - السيرة النبوية . أ - خلف الله، نجم الدين . ب - العنوان .
٢٣٩

نشر مشترك

بعقد رسمي من ورثة المؤلف

الطبعة الثانية

١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



دار سحنون للنشر والتوزيع
تونس

10 مكرر - نهج هولاندة (1000) تونس
الهاتف : 71256435 - 216+
216+ - 71253456
216+ - 71253839
الفاكس : 71352926 - 216+
souhnoun@orange.tn

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *
* *
*

مُقَدِّمَةُ المُحَقِّقِ

يسعدنا أن نقدم للقارئ الكريم هذه الطبعة الجديدة، المحققة لنصٍّ - من نصوص الشيخ الطاهر ابن عاشور - نادرٍ. ومن المفارقات أن هذا النص - على إيجازه وأهميته - لم يلق من لدن الباحثين العناية الكافية مع أنه يتناول سيرة الرسول ﷺ، وأهمّ الأحداث التي ميَّزت حياته، قبل البعثة وبعدها، ويعلم الجميع مدى مركزية مفهومي: النبوءة، الرّسالة، في الفكر الإسلامي، قديمه وحديثه، ذلك الفكر الذي جال في مختلف أرجائه يَراعُ الشيخ ابن عاشور من خلال تفسيره، ومؤلّفاته الأخرى التي تناهز الأربعين.

يحمل هذا النص النادر عنوان: « **قصة المولد** » وهو عنوان دال، يكشف طبيعة الجنس الأدبي - التاريخي الذي ينتمي إليه، والذي أدرج الكاتب فيه رسالته. وهذه أولى المسائل التي نودّ تحليلها في هذا التَّقديم الموجز:

١ - الجِنسُ الأدَبِيُّ:

تتوزّع النصوص التي تتناول سيرة الرسول موضوعًا، إلى ثلاثة أجناسٍ كبرى، متغايرة الغاية، متباينة الوظيفة، ومختلفة الأسلوب: « المولدية »، السِّيرة النبوية، والتمحيص التاريخي. وَلْنَـقُلِ ابتداءً: إنّ « قصة المولد » التي نقدِّمها اليوم هي جماع هذه الأجناس الثلاثة، ومزج - بين أساليبها - متوازِنٌ[١]:

أ - فالمولد أو « المولدية » - كما يطلق عليها في السجلّ الأدبي - هو نصٌّ إنشاديٌّ، يغلب عليه السجع، وتتخلله المدائح والأشعار، وغالبًا ما ينشد خلال الاحتفال بالمولد النبويّ، ويتخلّل تلاوته أناشيد وأهازيج. ويتّسم مضمونه بطابع التمجيد لفضائل النبيّ وشِيمه، ومعجزاته[٢]، وكذا الإرهاصات التي سبقت مبعثه.

---

(١) لتدقيق النظر في نظرية الأجناس الأدبيّة، والفوارق بين « الأجناس التجريبية » و« الأجناس النظرية » في إطار « البنيويَّة والأجناس الأدبية » انظر:

D. Combe, Les genres littéraires, Hachette, Paris, 1992, (pp. 123 - 132).

وللتعريف بمفهوم « الجنس الأدبي » وآفاقه التاريخية يمكن النظر مثلًا في:

Y. Stalloni, Les genres littéraires, Dunod, Paris, 1997, (pp. 9 - 16).

(٢) يمكن مقارنة « المولدية » كمكوّن أدبي وثقافي حيث تتجلى سلطة السارد على الأحداث التاريخية بمسار الذاتية السردية الخاص بنشأة الرواية في الأدب الفرنسي في العصر الوسيط، لا سيما ما تعلق بصورة المسيح المستلهمة من آثار الماضي الديني، انظر: M. Zink, La subjectivité littéraire, éd. PUF, 1985, (pp. 1 - 39)

وأشهر الموالد المنتشرة في المغرب الإسلاميّ، ومصر والشام، موالد المناويّ، والبرزنجيّ، وابن الدّيبع، وابن دحية... ولكنّ أقربها تاريخيًّا إلى كاتبنا هو المولد الذي صاغه الفقيه المالكي الشيخ إبراهيم الرياحي[١]، مختصرًا فيه « مولد المصطفى » للبكريِّ[٢].

ب - وأما السّيرة النبويّة فهي جنسٌ أدبي تاريخي عريقٌ، يضرب بجذوره العميقة فيما كتبه أولًا المؤرّخ ابن إسحاق[٣]، وما هذّبه منه ابن هشامٍ - وهو المعروف بسيرة ابن هشامٍ[٤] - ثمَّ عرف أشكالًا مطوّلة مع ابن سعد في طبقاته[٥]، والطبريّ في: تاريخ الرسل والملوك[٦]، والبلاذريّ في: أنساب الأشراف[٧]، ومن جاء بعدهم مثل السهيلي في: الرّوض الأنف[٨]، وزيني دحلان، في سيرته[٩]. ويتّسم هذا الضرب من الكتابة الدينية التاريخيّة بالشّمول وذكر سائر الأحداث والتفاصيل والأشخاص الذين يتّصلون بالنّبي ﷺ[١٠].

---

(١) إبراهيم الرياحي، تعطير النواحي بترجمة العلّامة إبراهيم الرياحي (٢/ ٢ - ١١)، وهو من تأليف حفيده السيد عمر بن محمد بن علي الرياحي، طبعة المكتبة العتيقة، تونس. وقد ألفه سنة (١٨٤١م).

(٢) يصعب إعطاء القائمة الكاملة لهذه المولديات وأشهرها: النعمة الكبرى في مولد سيد الأنام لابن حجر الهيثمي، الهدي التام في موارد المولد النبوي وما اعتيد فيه من القيام، محمد علي بن حسين المالكي، بشائر الأخيار في مولد المختار ﷺ، حسن المقصد في عمل المولد، جلال الدين السيوطي، خلاصة الكلام في الاحتفال بمولد خير الأنام، عبداللّه بن الشيخ أبو بكر بن سالم، المولد العثماني المسمى الأسرار الربانية لمحمد عثمان الميرغني، مظهر الكمالات في مولد سيد الكائنات، لسلامة الراضي، السانحات الأحمدية والنفثات الروعية في مولد خير البرية، لمحمد بن عبد الكبير الكتاني، النظم البديع في مولد الشفيع ليوسف بن إسماعيل النبهاني، مولد المناوي لعبد الرؤوف المناوي، المولد البرزنجي، زين العابدين بن محمد الهادي البرزنجي، تحقيق بسام محمد بارود.. انظر: المقال الاستقصائي الذي كتبه محمد عبد الحيّ الكتاني، التآليف المولدية، المجلة الزيتونية، العدد (٩) (١/ ٤٧٤ - ٤٨٦).

(٣) سيرة ابن إسحاق، وهي المهذبة في سيرة ابن هشام.

(٤) انظر: مقال « سيرة » في الموسوعة الإسلامية.

(٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩٧م).

(٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

(٧) أنساب الأشراف، البلاذريّ، تحقيق: عبد العزيز الدوري، بيروت، جمعية المستشرقين الألمانية (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

(٨) السهيلي، الروض الأنف، تحقيق عبد اللّه المنشاوي، القاهرة (٢٠٠٨م).

(٩) أحمد زيني دحلان، السيرة النبوية.

(١٠) يمكن للباحثين المتخصصين الاطلاع على ما كتبه المؤرخ التونسي هشام جعيط وإن كنا لا نشارك كل وجهات نظره.

ومن المعلوم، أنّ هذا الجنس - على أهمّيته - لم يَخْلُ من الأخبار الواهية والأشعار الزائفة، لذلك تعامل معها المحدِّثون والمؤرِّخون - القدامى منهم والمحدَثون - بكثيرٍ من الحذر والاحتياط[1].

ج - وأما الجنس التاريخي المحض فهو استعادةٌ تمحيصية نقدية دقيقة لما ورد في كتب السيرة النبويّة من الأخبار، ولعلّ ابن سعدٍ من أشهر من اتّسم بهذه الروح في العصور الوسطى[2]. وهشام جعيط من مؤرخي تونس المعاصرين[3]. وغاية هذا الضرب من الكتابة تمحيص الأخبار وتخليصها ممّا علق بها من تزيّدات القصّاص وأوهام الأدباء وتضخميات الرّواة، وفيه أيضًا تمشٍّ منهجيٌّ لفهم الأحداث وإدراك تسلسلها الزمني فاقتراح تعليلاتٍ تاريخيّةٍ لها.

والملاحظ أيضًا أنّ الشيخ ابن عاشور قد راوح بين أساليب هذه الأجناس الثلاثة في كتابه هذا، فكان حديثه مركّزًا على الشمائل والفضائل، مفتتحًا بجملٍ يغلب عليها أسلوب السّجع، كما تقصَّى فيه كل مظاهر السيرة النبوية وأحداثها منذ الولادة، والرضاعة، والطفولة، وفترة الشباب فالبعثة، ثم الهجرة مع ذكر أهمّ الوقائع التي تخلّلتها.

والملاحظ أيضًا أن الشيخ التزم أسلوب التمييز والتمحيص، فلم يذكر من الأحداث والمعطيات إلا ما ثبت وتواتر في الصِّحاح، وما رجح عند علماء السنة الأشاعرة في حالة الاختلاف.

والغالب على الظنّ - وإن لم يكن لنا في الوقت الراهن القدرة على الجزم بذلك - أن هذه الوثيقة هي نصّ محاضرةٍ أو مسامرةٍ، ألقاها الشيخ ابن عاشور على رؤوس الملأ، ربّما في جامع الزيتونة، بمناسبة المولد النبوي الشّريف، وذلك في حدود العقد الثالث أو الرابع من القرن العشرين.

وما من شأنه أن يقوِّي هذه الفرضيّة، جملة من العناصر المتداخلة:

---

(١) انظر أيضًا: انتقادات المدرسة التاريخية بقيادة طه حسين، وأحمد أمين.

(٢) انظر:

La vie de Muḥammad, La Prédication prophétique à La Mecque, (pp. 30 - 39). Ed. Fayard 2008.

(٣) La vie de Muḥammad, La prédication prophétique à La Mecque, Ed. Fayard 2008.

أ - الإيجاز الشديد الذي تناول به سائر أحداث السيرة النبوية (مثل: الإسراء والمعراج، الغزوات، حجّة الوداع، فتح مكة..) على أنه عاد إلى تلك الوقائع، ولا سيما في تفسيره: التحرير والتنوير - الذي استغرق تأليفه طيلة خمسين سنة - وفصّل فيها القول تفصيلًا، وأشبعها تحقيقًا وتمحيصًا. وهذا الاختصار الشديد لهو من لوازم المحاضرات العامّة التي تلقى في حيزٍ من الزمن ضيقٍ.

ب - افتتاحه الكتاب بديباجة مسجوعةٍ، تقرب في أسلوبها من دبابيج الخطب والمحاضرات الشفوية وتذكِّر بما في الخطابة من الوسائل البلاغية والتأثيريّة.

ج - ختم النص بالدعاء لسائر الحاضرين، وفيه سأل اللّه: «أن يعيد على المسلمين من بركات هذا اليوم، كما منحهم في أصله، وأن يكتبنا - في اجتماعنا له وتفرقنا إثره - مع الذين يظلّهم اللّه بظلّه»[1]. وهو ما يوحي بوجود اجتماعٍ في جامع الزيتونة - أو في غيره من المعالم الدينيّة - بمناسبة ذكرى المولد النبويّ، وفيه تُذكر الشمائل وتُنشد القصائد، كما جرت بذلك العادة منذ عهد الباي الحسيني أحمد باشا باي (١٨٣٧ - ١٨٥٥م) إلى يوم الناس هذا[2].

د - التركيز على الفضائل والشمائل النبوية، وذلك بغرض إظهار الفَرادَةِ المحمّديّة.

واتّبع في هذه المحاضرة منهج التحقيق في رواية سيرة النبي ﷺ، بطريقة شديدة الاختصار ولكنها تتضمن أهم المعلومات الضرورية. وقد اكتفى فيها الشيخ بما صحّ من الأخبار متّبعًا في ذلك المنهج الذي رسمه في كل ما ألّف وهو تلافي الأخبار الضعيفة.

٢ - تاريخ الكتابة:

إنّ اطلاعنا على مجموع المقالات - التي كتبها الشيخ، ولا سيّما تلك الواردة في المجلة الزيتونية[3] ومجلة الهداية، والهداية المصريّة - والتي تمثل في جملتها لُحمة قصّة المولد ومادّته الأساسيّة - يضعنا أمام فرضيّاتٍ ثلاثٍ:

---

(١) قصة المولد.

(٢) أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (٤ / ٥٣، ٥٤) طبعة وزارة الثقافة.

(٣) للتعريف بالمجلة الزيتونية وبتوجهها الأدبي يمكن النظر في:

J. Majed, La presse littéraire en Tunisie publications de l'Université de Tunis, 1979 (PP. 223 - 227)

الأولى: أنّ « قصّة المولد » هي تلخيصٌ موجزٌ لمجموع تلك المقالات وتهذيبٌ لموادِّها، بإضافة أجزاء إليها وحذف أخرى، اعتمادًا على تلك المقالات المكتوبة على مدى سنوات متقاربة بين (١٩٢٩ - ١٩٣٣م).

الثانية: أنّ هذه المقالات الموسّعة إنّما هي تحريرٌ معمقٌ للأفكار العامّة المُجْمَلة التي وردت في قصة المولد، أي إنّها كتبت بعدها للفصل في المسائل التي وردت بشكلٍ مقتضبٍ، ودون برهنةٍ كافية؛ لأنّها كتبت لتلقى على مسامع جمهورٍ عريضٍ من المحتفلين بالمولد النبوي - في أحد جوامع أو جمعيّات العاصمة التونسية - فالنص يتوجّه إلى أُفقِ انتظار عامٍّ، غير متخصصٍ، لا يناسبه التعمّق في المسائل الخلافية والجدليّة. فهو أشبه ما يكون بخطبةٍ شفويّةٍ، تلقى على مسامع الحاضرين، تؤثّر فيهم وتذكرهم فضائل تلك المناسبة، مما يعطي الخطاب وظيفةً تأثيريّة مباشرة.

الثالثة: ومفادها أنّ الشيخ الطاهر ابن عاشور لم يضع هو بنفسه قصة المولد على هذا النحو الذي وصلنا في طبعة (١٩٧٢م). وإنّما نجله الشيخ الفاضل ابن عاشور (١٩٠٩ - ١٩٧٠م) هو الذي تولّى تلخيص سلسلة مقالات والده حول السيرة ونظمها على هذا التسلسل والترتيب. وربّما يكون هو من أضاف التمهيد التاريخيّ - وقد صدر له باسمه في المجلة الزيتونية[(١)] - وهذا ما يدعمه قول الشيخ الحبيب ابن الخوجة بأنّ الشيخ الفاضل هو الذي لخّص قصّة المولد، ولكنه لم يذكر مصدره[(٢)]، ولهذا السبب جمع تلخيصه مع رسالته المسماة: « كشف الذّعرات في وصف الشعرات » في مصنّفٍ واحدٍ[(٣)]. ولم نتمكن من الاطلاع على هذا « التلخيص » إن كان عملًا مختلفًا. كما ذكر احتفاء طلبة الشيخ بهذه الرسالة باستنساخها والاستفادة منها، وهذا غير بعيدٍ بالنّظر إلى قصرها ودسامة موادِّها.

ولكن، وفي الوقت الراهن لأبحاثنا، لا يسعنا - مع الأسف - تأكيد أيّةٍ من هذه الفرضيّات الثلاث.

على أننا نسجل - فيما يتصل بزمن الكتابة - غياب أيّةِ إشارةٍ إلى السياق التاريخي الذي عاش فيه المؤلف، على غرار ما انتهجه في كل مصنّفاته رغم غزارتها. ويبدو

---

(١) الشيخ الفاضل ابن عاشور، كيف نشأ احتفال المولد في بلاد الشام؟ وقد صدر هذا البحث بنفس العدد الخاص بالمولد في المجلة الزيتونية عدد (٩) سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م) (١ / ٤٦٢ - ٤٦٦).

(٢) محمد الحبيب ابن الخوجة، محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية (١ / ٣٢٥).

(٣) قصة المولد، طبعة الدار التونسية للنشر (١٩٧٢م).

أنّ الشيخ جعل من هذا الارتفاع عن سياقه التاريخي الآني مبدأً في الكتابة؛ فهو لا يشير إلا نادرًا إلى نصوص المعاصرين والعلماء المُحدثين.

ومن اللافت أيضًا أن لا نجد في هذه القصة أدنى صدًى لما شاع من كتب السيرة الحديثة - على الأقل - تلك التي كتبت في النصف الأول من القرن العشرين وما ذاع فيها من نقدٍ تاريخي، متولّد عن مؤلفات المستشرقين وأعمالهم السائدة آنذاك. وقد شهدت هذه الفترة ظهور سير عديدة كتبها أدباء ومؤرخون وصحافيون، كان هاجسهم الأول القراءة النقديّة لأحداثها بالاعتماد على المنهج العقلي - الذي قد نعتبره اليوم مبسّطًا وبدائيًّا، ومنها نخص بالذكر: محمد النبي البشير، لتوفيق الحكيم[١]، على هامش السيرة لطه حسين[٢]، وعبقريّة محمد، لعباس محمود العقاد[٣]...

وليس من المجازفة القول: إنّ «قصة المولد» لابن عاشور تدخل في نفس الإطار العام، مع فارقٍ كبير وهو أنها تعتمد المنزع العقلي التراثيّ، (وليس العقلانية الاستشراقيّة)، القائم على نقد الأسانيد والمتون، والتوقّف دون الأخبار الواهية، ومكافحة أحاديث الآحاد بقواعد الاعتقاد... ولكن ابن عاشور يشترك مع معاصريه في استعمال الأسلوب الأدبيّ الرفيع.

٣ - مضامين الكتاب:

تتألف هذه القصّة على قصرها من:

١ - ديباجة[٤]:

افتتحت الرّسالة بحمد اللّه، والصّلاة والسلام على النّبي ﷺ، وهذا - كما هو معلومٌ - عادةٌ خطابيّةٌ قديمة في استهلال الخطب والكتب. وقد ارتبط حمد اللّه هنا بإرساله النّبيَّ رحمةً، كما ضمَّن الشيخ افتتاحه هذا عديد الآيات، واتّبع فيه أسلوب السّجع تشويقًا للقراءة وترغيبًا فيها (ونشير إلى أنّ هذا العنوان هو من وضعنا نحن).

---

(١) توفيق الحكيم، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع (١٩٨٤م).

(٢) طه حسين، على هامش السيرة، دار المعارف.

(٣) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، المجموعة الكاملة، دار الكتاب المصري (١٩٩٤م).

(٤) قصة المولد.

٢ - مقدّمة[١]:

وهي تمهيد طويلٌ إلى حد ما بالنّظر إلى حجم الرّسالة: أعلن فيه موضوع الكتاب، والمنهج المتوخّى في صياغته، مشدِّدًا فيه ضرورة الاقتصار على الصّحيح من الأخبار، والتنكّب عن الضعيف الواهي منها. وفي هذا التمهيد شرَّع الشيخ للاحتفاء بالمولد النبوي، والاعتناء به، كما ذكَّر في نهايته بتاريخيّة الاحتفال بالمولد منذ القرن الثاني عشر في بلاد الإسلام، مع التركيز على مسلك بلاد الغرب الإسلامي عمومًا، والإيالة التونسية في العصر الحسينيّ خصوصًا (١٧٠٥هـ/ ١٩٥٧م).

٣ - نسب رسول اللَّه ﷺ[٢]:

ويأتي بعد ذلك تعدادٌ صارمٌ لأسماء أجداد النّبي، لأبيه وأمّه، توقّف فيه عند حدود عدنان، الجدّ العشرين للنبي ﷺ. وذكر خلال ذلك بعض المعلومات التاريخية التي جزم بصحتها حول وفاة والِدَيِ النّبي ﷺ، وزيارته لقبر والدته في الأبواء.

٤ - طهارة النّسب الشّريف[٣]:

ثم يأتي فصلٌ حِجاجيٌّ - برهانيٌّ، دافع فيه الشيخ عن طهارة النسب النبويّ، وخلوصه من مناقص تمس صفاء النّسب وزكاءه، ثم ناقش أمر ديانة أبويِ الرسول ﷺ، مبيّنًا أنّ الدين ليس ثالمًا لشرف العنصر، مدافعًا عن حنفيّتهم، وداعيًا - في النهاية - إلى وجوب تأويل الحديث الوارد في صحيح مسلم، حول مصيرهما الأخرويّ، فكان الشيخ هنا متكَلِّمًا مجادلًا أكثر منه مؤرخًا.

٥ - مولد الرسول ﷺ[٤]:

ضبط الشيخ في هذا الفصل تاريخ ميلاد النّبي ﷺ باليوم والسنة، وذكر اسم قابلته، ثم قام بتحقيق دقيق لمكان ولادته، وإقامته بمكة قبل الهجرة، ومتابعةٍ لمآل تلك الدار حتى العصر العثمانيّ، أي إلى حدود سنة (١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م).

٦ - نشأته ﷺ[٥]:

وهذا فصلٌ طريفٌ يتناول سيرة النبيّ ﷺ قبل البعثة، من رضاعته إلى اختلائه في غار حراء، لمّا بلغ سن الأربعين، وفيه عودٌ إلى أهم الأحداث التي تخلّلت هذه المدة مثل حرب الفِجار، وزواجه من خديجة، وتحكيمه في وضع الحجر الأسود موضعه...

(١-٥) قصة المولد.

٧ - بعثته ﷺ[١]:

وفي هذه البعثة وصفٌ لبدء نزول الوحي وأوائل ما تلقاه النّبي من الآي والسور، ثمّ تصويرٌ لموقف المشركين ومساعيهم للقضاء على الدعوة الإسلامية في مهدها، ثمّ عرضٌ لسائر الأحداث الموالية حتى حصول البيعتين الأوليين.

٨ - الهجرة[٢]:

هذا الفصل من أطول فصول « القصة »، وصف فيه المؤلف هجرة النبيّ وما فعلته قريش في ملاحقته معتمدًا في ذلك على الحديث الطويل، المرويّ في صحيح البخاري، وتخلّص بعدها إلى وصف انتظار المؤمنين له في المدينة، واستقبالهم الكبير له، ثمّ تحدّث عن الأشهر الأولى في المدينة، علمًا بأنّ الشيخ خصّص مقالًا آخر، استنبط فيه عشرة مقاصد للهجرة، استنبطها بحسّه المقاصديّ[٣].

٩ - ظهور الإسلام في المدينة[٤]:

تناول الشيخ في هذا الفصل بالحديث انتصارَ الإسلام في الطور المدنيّ (٦٢٢ - ٦٣٢م)، بعد استقرار النبي بالمدينة، ثمّ ظهور فئة ما عرف في تاريخ الإسلام الأوّل: بالمنافقين، ثمّ تطرّق إلى عمليّة المؤاخاة التي أنجزها الرسول بين المهاجرين والأنصار، وأخيرًا أشار إلى طرق تصرف النبي كقائدٍ للأمّة وبانٍ للدّولة، بعد اتساع نزول شرائع الإسلام.

١٠ - الغزوات[٥]:

هذا الفصل لا يدل عنوانه على كل مضمونه بدقةٍ، فهو لا يصف الغزوات فقط، بل ضمّنه الشيخُ المقاصد منها واقتصر على غزوة الأحزاب، ثمّ توسّع بعد ذلك في ذكر الوفود التي قدمت على النبي في المدينة، خلال سني حياته الأخيرة (علمًا أنّ الشيخ خصص أربع مقالات في مجلة الهداية التونسية لتعداد الوفود[٦])، ثمّ ختم هذا الفصل بالحديث عن حجّة الوداع، وخطبتها الشهيرة.

(١، ٢) قصة المولد.

(٣) ابن عاشور، المقصد العظيم من الهجرة، المجلة الزيتونية (العدد ٣)، (٣/ ٩٤ - ٩٧). بتاريخ (محرّم ١٣٥٨ هـ/ مارس ١٩٣١م).

(٤، ٥) قصة المولد.

(٦) وفود العرب في الحضرة النبويّة، الهداية في (٥) أعدادٍ: مارس (١٩٧٨م) (ص ٢٥ - ٣٠)، مايو (١٩٧٨م) (ص٥١ - ٥٤)، سبتمبر (١٩٧٨م) (ص ١٧ - ٢١)، نوفمبر (١٩٨٢م) (ص ١٧ - ٢١)، يناير (١٩٨٣م) (ص ٤١ - ٤٥).

١١ - شأن رسول الله ﷺ[١]:

يمكن بِلُغَتنا العربية المعاصرة ترجمة هذا العنوان بنمط الحياة اليوميّة للرسول[٢]. ففي هذا الفصل تطرّق الشيخ - على غير عادة السابقين من كتّاب السيرة - إلى كيفيات تقضية النّبي ﷺ ليومه وليلته، وذلك بإيجاز بديعٍ: فذكر مجالسه، وتقسيمه لوقته ثلاثة أجزاء، ولباسه وسائر أغراضه الشخصية، حسبما ورد في الصحاح.

١٢ - أزواج رسول الله ﷺ وأبناؤه[٣]:

كان حديث الشيخ عن الأزواج والأبناء مجرّد تعداد لأسمائهم بهدف التأريخ وذكر معلوماتٍ اسمية مدققة دون الخوض في أي تفصيلٍ من التفاصيل الأخرى، رغم أهميتها وما أسالته من الحبر. ويكفي أن نقارن ما ورد في هذا الفصل بما كتبه العقّاد في نفس الموضوع[٤].

١٣ - شمائله وأخلاقه ﷺ[٥]:

وهذا الفصل فصلٌ مدقَّقٌ، يعرض فيه الكاتب لجملة الأوصاف الخِلقية والخُلُقيّة للنّبي، ويركّز فيها على سمات الجمال الجسدي والكمال الأخلاقي، كما رسمتها الذاكرة الجماعية حسبما تواتر في فصول الشمائل المحمديّة. وقد تناول هذا المحور في مقالٍ خاصٍّ نقد فيه طرق أحاديث الشمائل وأسانيدها[٦].

١٤ - أسماؤه الشريفة[٧]:

اختتم الشيخ رسالته بفصلٍ قصيرٍ، خصصه لشرح معاني أسماء النبي بالاعتماد على الحديث المروي في موطّأ الإمام مالكٍ. ويرى الشيخ أن هذه الأسماء إنّما هي صفاتٌ

---

(١) قصة المولد.

(٢) « نمط الحياة اليومية » يسمّى اصطلاحًا في الفرنسية « Le quotidien » وقد أطلق عليه الأستاذ الدكتور عمر الإمام في عمله المتعلق بالسنة الشعرية تسمية: « شؤون الحياة اليومية »، تجسيمًا لوظيفتها الإنشائية المنفتحة على كل ما هو هامشي في الحياة في إطار نظام أدبي موحد، انظر: عمر الإمام، السنة الشعرية في العصر الأموي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، المطبعة الرسمية، تونس (٢٠٠٨م) (ص ٥١٩ - ٥٢٤).

(٣) قصة المولد.

(٤) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد (١ / ٩٩ - ١٢٦)، المجموعة الكاملة، دار الكتاب المصري (١٩٩٤م).

(٥) قصة المولد.

(٦) ابن عاشور: الشمائل المحمديّة، المجلة الزيتونية (عدد ٩) (١٣٥٦هـ / ١٩٢٩م) (ص ٤٥٢ - ٤٥٦).

(٧) قصة المولد.

تتحقّق - في صورتها الفُضلَى - في شخص النّبي ﷺ. ويتنزل هذا الشرح - على إيجازه - في تصورٍ كلاميٍّ عامٍّ، مفاده: أنّ الاسم والمسمّى متطابقان، وأنّ الاسم صفةٌ للموصوف، فيه تتجسّد أعلى معاني ذلك الاسم. ولذلك شرح الشيخ أسماء النّبي الخمسة لبيان مدى حملها لمعانيها السامية. وهي طريقةٌ لطيفةٌ لإبراز تجليات الفرادة النبويّة.

ولأهميّة هذا الموضوع في الفكر العاشوري، عاد إليه الشيخ بالشّرح والتّفصيل في كتابه: كشف المغطّى عن معاني الألفاظ الواردة في الموطأ[1]، موضحًا فيه أن الأسماء التي نسبت إلى النّبي ليست مجرّد مواضعات لفظيّة متباينة عن مدلولاتها - بل هي حقائق تنطبق - كلّ الانطباق - على واقع الحال، ولذلك أسند إلى كلّ اسم (صفةٍ) ما يتناسب معه من الأحداث، مؤكدًا انطباقها التام على مُسَمَّياتها.

١٥ - خاتمة[2]:

وخصّص الشيخ الخاتمة لدعاءٍ شديد الإيجاز، يتألف من جملتين. وعادة الشيخ ألّا يطيل في الدعاء، وأن يتجنّب تكلُّف السّجع، ولذلك ورد الدّعاء في الخاتمة مختصرًا. واللافت فيه أنه ذكر كلمتي « الاجتماع والتفرّق »، ممّا يوحي بأنّ النصّ كان محاضرةً شفويّةً كما افترضنا.

من الواضح إذن أن الكاتب ركَّز على الأحداث التاريخيّة الثابتة، واقتصر عليها دون إيراد أيّة معلومة يُشتمّ منها رائحة التّزيّد والمبالغة والأسطرة (Mythification). فقد وردت كتابته موثّقةً جافةً خالية - إلّا في القليل منها - من أساليب التّضخيم واللاعقلانية، ترجمةً لحسٍّ تاريخي ناضج، ووعي بالأحداث في وجودها الماديّ، مع قرنٍ للمسبّبات بأسبابها الموضوعيّة. ويتجلّى هذا الحس التاريخي مثلًا في:

- ذكر التّواريخ ومحاولة ضبطها والحسم فيما وقع فيه الاختلاف.

- الاقتصار على الوقائع المعقولة أي: التي يقبلها العقل ولا تتنافى مع معاييره الكونيّة.

- تجنّب الإطالة في سياقة المعجزات، التي بالغ في إيرادها بعض المؤرخين والقصاص حتى غدت كتبهم زاخرة بالأخبار اللاتاريخية.

- التركيز على المنزع العقليّ والاقتصار - حسب المبدأ الخلدوني[3] - على

(١) مالك بن أنس، كتاب الموطأ. (٢) قصة المولد.

(٣) للتذكير فإن ابن عاشور كان في الهيئة المديرة للجمعية الخلدونية منذ (١٩٠٥م)، وأنه معجبٌ بمقدمة

ما يطابق الواقع وعلى الثابت من الأحداث والأسماء والروايات حتى لا يذكر ما لا يمكن التأكد منه.

اتّبع الشيخ إذن التّسلسل التاريخي منهجًا، وتوخّى في رسم الأحداث منطق التّرابط الزمنيّ، مع التركيز على المهمّ الأهمّ من الأحداث، وتوّج سرده التاريخي بذكر كمال الأوصاف الجسدية، وجمال الشّمائل الأخلاقيّة، وهو ما يدعم فرضيتنا بأنّ « قصة المولد » مزيجٌ من التأريخ و الأخلاق، يصاغ بلغة الأدب ونفَس الإيمان.

٤ - المشروعية الفقهية للاحتفال بالمولد النبوي:

كتب الشيخ ابن عاشور - وهو الفقية المتضلّع - رسالته هذه، وفي ذهنه السجال الفقهي القديم، الدائر بين بعض متشدّدي الفقهاء الحنابلة - وغيرهم - ممّن يبدّع الاحتفال بالمولد النبويّ ويعتبره « ضلالةً »، بما أنّ السلف الصالح لم يقم به، إضافةً إلى كون الاحتفال ذريعةً إلى محرّم اللهو الذي قد يفضي إلى الاختلاط الممنوع بين الجنسين، مع استعمال الآلات الموسيقية[1] والرقص... من جهةٍ أُولى، وبين من يجيز هذا الاحتفال ويعدّه « مسلكًا حسنًا » من جهةٍ ثانيةٍ.

ولذلك استهلّ الشيخ هذا الكتاب بذكر الحُجج التي تنهض دليلًا على مشروعيّة الاحتفال.

ومن المفيد - في هذا السياق - أن نستعرض هاتيك الحجج بإيجازٍ حتّى نكشف المنطق الفقهيّ الناظم لفكر الرّجل وهو يحدّث عن نشاطٍ تشرف عليه الدّولة ويقيمه أعلامُ جامع الزّيتونة.

أ - الشرعية القرآنية:

في القرآن آياتٌ عديدة تنوّه بالمناسبات الدينيّة الكبرى، وتحتفي بها مثل تلك الآيات الواردة في شأن شهر رمضان[2]، وليلة القدر[3]، وأيام الحجّ[4]... فتفصيل بعض المناسبات والأزمنة على سائر الأوقات أمرٌ ثابتٌ بنصّ القرآن. ويوم المولد يجوز التنويه به قياسًا على المسلك القرآنيّ في تفضيل بعض المناسبات والتنويه بها.

= ابن خلدون في علم التاريخ، وانظر أيضًا ملاحظاته حول الأساطير وكتابة التاريخ: أليس الصبح بقريب؟ (ص ١٩٦، ١٩٧).

(١) رشيد رضا، ذكرى المولد النبوي، دار النشر للجامعات (٢٠٠٩م).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٨٥).

(٣) سورة القدر: الآيات (١ - ٤).

(٤) سورة البقرة: الآيات (١٩٧، ١٩٨).

ب - الاستنتاج المنطقيّ:

أقام الشيخ هذا القياس قائلًا: إذا كان العيدان الشرعيّان (الفطر والأضحى) يردان عقب الفراغ من عبادةٍ معلومة (الفطر بعد الفراغ من صيام شهر رمضان، والأضحى بعد إنهاء أركان الحجّ)؛ فإنّ « ذكرى الواسطة في تبليغ ذلك »[١] - أي: مولد الرّسول ومقدمه - جديرة بالإشادة والاحتفاء؛ إذ من باب أولى وأحرى الاحتفال بمن كان السبب في تبليغ معاني الدين. وهذا - كما نرى - استنتاجٌ منطقيٌّ يخالف إلى حدٍّ ما القياس الفقهي التقليديّ من وجوهٍ عدّةٍ ليس هذا مجال ذكرها.

ج - إجماع العلماء:

وهو الذي يعدّ المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلاميّ. ويعتمد ابن عاشور على هذا الأصل ليذكّر أنّ الاحتفال بالمولد « استحسنه جمهور مشيخة المغرب ووصفوه: بالمسلك الحسن »[٢].

وهذه الإشارة العابرة توحي بما يمكن أن يكون - على لسان الشيخ - استباقًا لفكرة وجود إسلامٍ خاصٍّ بالغرب الإسلامي (إفريقية والأندلس)، يتوفّر على خصائص تميّزه عن الإسلام في المشرق، بل وعلى سماتٍ تشريعيّة منبثقة من السياق الثقافي المحليّ.

د - العرف:

والطّريف أنّ الشيخ دعّم رأيه بوقائع تاريخيّة تعود إلى القرون الوسطى، يذكر من خلالها أنّ الملك مظفّر الدين أبا سعيدٍ كوكبوري، هو الذي جعل الاحتفال عادةً رسميّة، أي إنّه أضفى عليها طابعًا رسميًّا سياسيًّا. ثم يذكر بايات تونس في العصر الحسينيّ ومن بينهم المشير أحمد باشا باي، والصادق باي وما قاموا به من إحياءٍ لهذه العادة. يقول:

« وشاع ذلك في بلاد المغرب والأندلس، ولمّا رحل العلّامة أبو الخطّاب عمر، المعروف بابن دحية البَلَنْسِيّ الأندلسيّ، المالكيّ، رحلته الشهيرة إلى المشرق، أوّل القرن السابع، واتّصل بالملك الجليل، مظفّر الدّين، أبي سعيد كوكبوري بن زين الدين، كوجك عليّ، صاحب إربل، حسّن الشيخ للملك التسنن بهذا السنن، فرغبت همّته في الاتّسام بميسم أفاضل الزّمن، لذلك أقام في سنة ستّ وستمائةٍ حفلًا عظيمًا، وأنشأ له ابن دحية كتابًا سمّاه: التّنوير بمولد السّراج

(١، ٢) قصة المولد.

المنير؛ ليقرأ في ذلك اليوم، وجعل يعيد قراءته كل عام، تارةً في اليوم الثاني، وتارة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل. فهو أوّل الملوك نظم هذا الاحتفال في سلك رسوم دولته... »[١].

وكأنّ الشيخ بذلك يعتمد مبدأً عريقًا في الفقه المالكي، ألا وهو العرف، ليعضد ما اختاره من الأدلّة النّصية والقواعد التشريعيّة.

ولكنّ الملاحظ أيضًا أنّ ابن عاشور لم يذكر باي عصره مع أنه عاصر الكثيرين منهم، على خلاف الشيخ إبراهيم الرياحي الذي دعا له بالاسم[٢]. (وهذا التداخل بين الديني والسياسيّ في الاحتفال بالمولد جديرٌ بأن يهتمّ به الدارسون).

والملاحظ أيضًا أنّ الشيخ لم يذكر أدلّة القائلين بعدم جواز الاحتفال، وربّما كان ذلك لأنّه لا يعتدّ بها. كما أنه لم يستعمل العبارة الشائعة اليوم « بدعةٌ حسنةٌ / سيّئة »[٣] حتى يبعد كلّ شبهةٍ، ويؤكد أنّ إقامة المولد « مجرّد مسلكٍ » أي: سلوكٌ حسن، واختيارٌ اجتهادي تضافرت على إباحته الأدلّة النّصيّة والقواعد العقليّة والتاريخية، على أن يكون مناسبةً تُحيى بتلاوة القرآن، والصّلاة على النبي، وإكرام آله، ومساهمتهم، بالإضافة إلى اللهو المباح، وهذا كله ثابتٌ بنصّ الكتاب والسنّة. يقول المؤلف:

« دعاني إليه الاتّساء بأفاضل الأمّة، الذين ألهمهم اللّه صرف الهمّة، إلى العناية بتعظيم اليوم الذي يوافق من كلّ عامٍ، يوم ميلاد محمّدٍ، رسوله، عليه الصّلاة والسّلام، إذ كانوا قد عدُّوه عيدًا، علمناه من قوله تعالى في التنويه بشهر رمضان: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والخلاصة إذن: أنّ الاحتفال بالمولد مشروع، وأنّه من مندوبات الأعمال وفضائلها، ينبع من الرغبة في الاقتداء بأكابر الأمّة، وإحياء سننهم، ومدّ جسور سيرهم، فلا يعدو أن يكون اتساءً بهم في عملٍ فاضلٍ.

٥ - معضلةٌ عقديّة:

كتب ابن عاشور - وهو المتكلّم الضّليع - كتابه هذا وفي ذهنه أيضًا سجالٌ من نوع آخر، هو ذاك الذي هزّ الفكر الإسلاميّ في العصر الوسيط؛ لأنّه بحث مسألة المصير

---

(١) ابن عاشور، قصة المولد.

(٢) إبراهيم الرياحي، تعطير النواحي بترجمة العلّامة إبراهيم الرياحي (٢ / ٢ - ١١)، وهو من تأليف حفيده السيد عمر بن محمد بن علي الرياحي، طبعة المكتبة العتيقة، تونس. وقد ألفه سنة (١٨٤١م).

(٣) فتاوى الإمام الشاطبي (ص ٢٠٣ - ٢٠٤)، جمعها وحقّقها وقدّم لها: محمد أبو الأجفان.

الأخروي لأبوي الرّسول ﷺ. وقد نجم هذا الإشكال الحسّاس بسبب حديثٍ نبويٍّ رواه الإمام مسلم في صحيحه[١]، واتّفق كبار المحدّثين على سلامة سنده من العلل، وقد ورد فيه أنّ أبا النّبيّ في النّار، وهو ما من شأنه أن يجعل في سلسلة آباء النبي حلقةً ضعيفةً بما أنها تحتوي على «مشركٍ» مصيره النار. فانبرى ابن عاشور - لا إلى تضعيفه ودحضه كما فعل السيوطي[٢] - بل إلى تأويله وإيجاد معنًى مختلف عما يوحي به ظاهره. فأكّد - بما له من براعة الاستدلال - أنّ أهل الفترة في الجنّة؛ لأنّ الدعوة الدينيّة لم تبلغهم، بما أنّهم ماتوا قبل ظهور الإسلام. وأنّ العقل - الذي لم تَهدِهِ أنوار الرّسالة - غير قادرٍ على استنباط أدلّة الاعتقاد بمفرده، وذلك لدقّتها وخفائها. وبما أنّ أبوي الرّسول قد عاشا وماتا - كلاهما - قبل البعثة فإنّهما يعدّان من أهل الفترة، فلا يحق عليهما العذاب، وترجى لهما بركة ابنهما.

في هذه المقاربة، وظّف الشيخ طائفةً من الأدلّة الكلامية (العقدية)، ومنها دليل الأشاعرة المتعلق بعجز العقل عن إدراك دلائل الوحدانيّة، على عكس المعتزلة الذين يقرّون قدرة العقل على ذلك.

ومن خلال هذا الجدل ذي الطبيعة الكلاميّة، يشير ابن عاشور إلى دقّة هذه المسألة ويستدل فيها بمقالات جمهور أهل السنّة، كما ذكر ثلاث آياتٍ قاطعةً تؤكد توقّف الجزاء الأخرويّ على بعث الرسل وتبليغهم الدّيانة.

وأخيرًا، يذكر مبدأ أصوليًّا مفاده: «أنّ أصول الاعتقاد لا تنتقض بأخبار الآحاد»، وبما أن الحديث الذي تفرَّد به مسلمٌ خبر آحادٍ، فلا يمكن الاعتماد عليه لردّ عقيدةٍ جوهريّةٍ من عقائد أهل السنّة الأشاعرة، وهي عدل اللّه تعالى، الذي جعل عذابه مرتهنًا بإرسال الرسل.

---

(١) النووي، شرح مسلم (٣/ ٧٩).

(٢) خصَّص جلال الدين السيوطي لهذه المسألة مجموعة من الرسائل:

١ - مسالك الحنفا في أبوي المصطفى.

٢ - التعظيم والمنّة في أن أبوي الرّسول في الجنّة.

٣ - الدرج المنيفة في الآباء الشريفة.

٤ - نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين.

٥ - السبل الجليّة في الآباء العليّة.

وقد طبعت كل هذه الرسائل في كتاب واحدٍ عنوانه: رسائل الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في تحقيق نجاة أبوي المصطفى ﷺ وأنهم من أهل الجنة في الآخرة، تحقيق: حسنين مخلوف، القاهرة، مطبعة المدني (ط٢)، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

وأضاف الشيخ أيضًا دليلين عقليين:

أ - **أولهما**: إنّ شرف النسب، وطهارته من كل منقصةٍ ضرورة لكمال الذات المحمديّة، المنوط بها تبليغ الرسالة.

ب - **ثانيهما**: إنّ رضا النبي لا يتم وأبواه في النار، وبما أنّ اللّه ﷻ خاطبه في القرآن قائلًا: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥]، فإنّه سينقذهما منها بفضل بركة ابنهما؛ إذ الرّسول لا يرضى وأبواه في النّار.

وفي نهاية الفصل الذي خصّصه الشيخ لطهارة النّسب[١]، ينصح كلّ مؤمنٍ أن يتمسّك بنجاة أبوي الرسول وأن يعرض عن غيره من ضعيف الآراء، بل وأن يتجنّب الخوض في المسألة لأنّه لا طائل من ورائها.

وخلاصة الرأي في هذا الجدل الكلاميّ: ضرورة الاعتماد على مبدأ التأويل الذي أقرّه كبار الأشاعرة، - مثل الغزالي وشيخه أبي المعالي الجويني وابن عاشور نفسه[٢] - وذلك كلّما ورد تعارضٌ أو إشكالٌ بين ظواهر بعض النصوص النقليّة والقواعد الكليّة للاعتقاد والسلوك.

وعلى هذا المنهج سار ابن عاشور في تفسيره، بل في حلِّ كل المعضلات المتضمَّنة في الآيات المتشابهة. وقد احتلَّ التأويل عنده كما في النظرية الكلاميّة - الأشعرية - أهميةً قصوى. ويعتمد عليه فيها اعتمادًا كليًّا كلّما تعلّق الأمر بنصٍّ متشابهٍ، يوحي ظاهره بالاختلاف مع أصول الدين وما استقرَّ من عقيدة التنزيه. وقد اعتمد ابن عاشور على هذا المبدأ في قضية حساسة، أسالت الكثير من الحبر، وهي المصير الأخروي لأبوي الرّسول...

٦ - منهج ابن عاشور في قصة المولد:

بالإضافة إلى أسلوب الاختصار الشديد - دون إخلالٍ - الذي انتهجه المؤلف في صياغة هذه الرسالة في كلّ ما عرض له من موضوعات السيرة، فإنّه اعتمد مبدأ الاقتصار على الصحيح من الأخبار، وهو ما يعني طرح الواهي، والضّعيف والخيالي الذي يكثر في آثار القُصَّاص[٣].

---

(١) عاد الشيخ إلى هذه المسألة بكثير من التوسع والبرهنة في مقالٍ صدر في المجلّة الزيتونية، عدد (٩) سنة (١٣٥٦ هـ/ ١٩٢٩م) (ص ٤١٦ - ٤٢٤). عنوانه: نسب الرّسول ﷺ.

(٢) انظر أقوالهم عند ابن عاشور: تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة (ص١٢). طبعة دار سحنون للنشر (٢٠٠٧م).

(٣) الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب؟ (ص ١٦٨).

وهذا المنهج العقلاني - التاريخيّ، في حقيقته امتدادٌ للمدرسة الأصولية المالكيّة في علم الحديث التي ينتمي إليها الشيخ ابن عاشور، والتي حاول التعريف بها في مقدّمته لشرح الموطأ[١]. وقد ذكر فيها احتياط الإمام مالك وشدّة حذره في نقل الحديث، وعدم تسرعه في قبوله والاعتماد عليه.

وهذا الأصل الحديثي ينبني على مسلّمة عقديّة ورمزيّة نوجزها كما يلي:

أ - صحة الإسناد:

وهو الضَّامن لصحَّة المتن، والمانع من تقوّلات من شاء أن يتكلّم في أمر الدين دون إجازة. وهذا التصوّر نابعٌ من أهميّة السّند في علم الحديث. والكل يعلم المقولة الشهيرة: « لولا الإسناد لقال من شاء ما يشاء »[٢].

ب - الكمال الذاتي:

فكرة « الكمال الذاتي » ذات أصولٍ كلاميّةٍ، مفادها: أنّ الكمال الذاتيّ موجودٌ في القيم نفسها، ولا تحتاج إلى تأثير العناصر الخارجية. ويقول عبد القاهر الجرجاني في هذا الصدد: « **ولم تكن الصفة شريفةً أو خسيسةً من حيث الموصوف. وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يُعترض على الصّفات الشريفة بشيءٍ، إن كان نقصًا، فهو في خارجٍ منها، وفيما لا يرجع إليها أنفسِها ولا حقيقتِها** »[٣].

وإذا طبقنا هذا المبدأ الفلسفيّ على السيرة النبوية، صار يعني أنّ الدين عمومًا، والمثال المحمديّ خصوصًا، ثَريّان كلاهما بما يتضمّنانه من القيم الصحيحة، المعقولة والمتطابقة مع الواقع، وهو ما يغني عن الالتجاء إلى النصوص الواهية، والحجج الضعيفة، والأخبار الباهتة التي من شأنها أن تُكدِّر صفو التعاليم الدينية وتلقي عليها بظلالٍ من الشكّ. فالحسن النّبوي ذاتيٌّ ولا يحتاج إلى أدلّة خارجيّة، لا ضعيفة ولا قويّة، ولذلك يقول:

« **آثرت فيها جمعَ لُمعٍ كافية للذين تعلّقتْ قلوبهم بمحبته، وأخبارٍ غير واهية الأساس من مختار عيون سيرته؛ إذ كان قد أغنى هذه الأمة عن التشبث بما ليس بمحجة الثبوت، ولقّنها أن تربأ عنها بإشارة قوله: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فكذلك ينبغي أن يكون المسلمون فيما يبيّتون من شؤونهم وأوضاعهم، وعلى ذلك الخُلُق علماؤهم**

(١) الطاهر ابن عاشور، كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ (ص ١٧ - ٤٤).

(٢) جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث (ص ٢٠١).

(٣) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة (ص ٣٤٨) طبعة شاكر، دار المدني.

وأشياعهم، فإنّ هذا الدين ثريٌّ بما أمدّه اللَّه من صحيحٍ كثير، عن أن يلفّق له شاعب كلٍّ منثلم أو كسير، فلا يحقّ لِحَمَلَتِه أن يشوبوه بما يكدر منه صَفْوَ صِفاته، وأن ينسَوا ما خصّت به هذه الأمة من صحة بلوغ الدين ورواياته »[١].

ولذلك خلا الكتاب من كلّ خبرٍ تُشتمّ منه رائحة المبالغة والإغراق، وخالف ما كتب في السيرة من القصص الخياليّة التي قد يقود فيها تعظيم النبيّ إلى تصويره في صورة غير واقعيّةٍ، وغير تاريخية، وهو نفس المنهج الذي اتبعه جلّ المؤرخين المعاصرين في كتاباتهم.

ج - الاستلهام الأخلاقي:

ما فتئَت السيرة النبوية تمثل في كلّ العصور مصدرًا للإلهام الأخلاقي - الروحيّ. وفيها يعدّ السلوك النبويّ - أكان قولًا أم فعلًا أم حالًا - التجسيد الأفضل للمثل العليا والقيم السامية. ولم يشذّ الشيخ ابن عاشور عن هذا المنحى ولا خالف فيه سابقيه، بل خصّص فصلًا كاملًا من رسالته لذكر الشمائل المحمديّة، يصوّر من خلالها نموذجًا في الأخلاق عاليًا، ويرسم مثالًا به يقتدى، يقوم على قيم العدل والحياء والمكارمة والطاعة. والشّميلة هي الخصلة من الخير أكانت خُلقيّة أو خلقيّة. ويبدو أن فكرة الجمال الخُلقي والخَلقي قد استقرت في الضمير الإسلامي، وصار الكُتّاب يتناقلون تلك الأوصاف الخلقيّة حسب الحديث المأثور عن أم معبدٍ[٢]. وهذا التركيز على الشمائل المحمدية يستحق مزيدًا من الدرس والتأمل. كما خصّص فصلًا آخر لشأن النبي، أي لطريقة حياته اليوميّة وسيرته فيها مع ربّه، وأسرته وعامة المسلمين خارج بيوته.

وفي هذا التصوير المثالي إثباتٌ لوظيفة أساسيّة من وظائف كتابة السيرة وإعادة إنتاجها وهي أمثلة السلوك النبويّ (Idéalisation) وجعله مصدرًا من مصادر التّوق الروحيّ للمؤمن، ومرجعًا من مراجع وعيه وحساسيته. وهو منحًى يستمد شرعيّته من الآية القائلة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، كما أنّه منحًى يتجاوز عصره من حيث دعوته إلى نحت نموذجٍ متعالٍ للمثل العليا[٣].

---

(١) ابن عاشور، قصة المولد.

(٢) القاضي عياض، كتاب الشفا (١ / ١٤٣). وانظر أيضًا مقال ابن عاشور: الشمائل المحمّدية، المجلة الزيتونية (عدد ٩) سنة (١٣٥٦ هـ/ ١٩٢٩م) (ص ٤٢٦ - ٤٥٢).

(٣) جعفر ماجد، محمد النبي الإنسان، منشورات رحاب المعرفة، تونس (١٩٩٤م).

د - الأسلوب الأدبي:

ولا يسعنا في هذه العجالة إلّا أن نشير إلى بعض الخصائص الأسلوبيّة التي ميّزت كتابة « القصّة ». فقد صاغها يَراعُ ابن عاشور منتقيًا أجمل العبارات وأنصعها، متخيرًا أوضح المفردات وأدقّها. ويتخلّل نسيج نصه سلسلةٌ من نفائس الصور البيانيّة، مما يقوّي فيه الأدبيّة (Littérarite)، بل ويجعله نصًّا فنيًّا بامتيازٍ، يتنزّل ضمن ما يمكن تسميته بالنثر الفنّي التاريخيّ. على أنّ الكاتب لم يثقل نصَّه هذا بالمحسنات البديعيّة، ولم يركن إليها، عدا بعض السجعات والاستعارات البليغة.

ولعلّ هذا المنحى في أَدْبَنة التاريخ[1] يهدف إلى تجسيد ما دعا إليه الشيخ من إصلاحٍ للغة العربية، وإحياءٍ لأساليبها والاعتماد عليها في إرساء ملامح نثرٍ فنّيٍّ معاصرٍ، تعدُّ كتابات الشيخ ذاتها من أجلى تجلياته[2]. ولكن الاستثناء الوحيد هو بعض الكلمات الغريبة التي أوردها رغم شرحه لبعضها وخاصة في فصل الشمائل (ومثال ذلك: مفرداتٌ مثل: شثن، احتباء، أدعج...).

ونرى أنّ هذه الطريقة في الكتابة الأدبيّة تسجّل لطورٍ من أطوار اللغة العربيّة بنقلها من طرائق التعبير القروسطيّة إلى لغةٍ نثريةٍ واضحةٍ ودقيقة، ولعلّ المساهمة في المجلّات الواسعة الانتشار ممّا يسّر للشيخ هذا العمل الدؤوب، تطويعًا لأبنية اللغة العربية وتطويرًا لسجلاتها وأنحائها في التعبير، بحيث تصف أحداث التاريخ وتستعيدها دون إغراقٍ في المحسّنات البلاغيّة.

ومن المفيد إعادة النّظر في أعمال ابن عاشور ضمن منظورٍ لساني زمنيٍّ؛ لإبراز مدى مساهمته في تطور العربية المعاصرة ومصادرها التّعبيريّة.

٧ - النبيّ في الفكر العاشوري:

ومن الجدير بالبحث أيضًا، التعريف بمكانة النبي محمدٍ ﷺ في الفكر العاشوري - وهي مسألةٌ قلما أكّد عليها الدارسون لهذا الفكر على كثرتهم - وعمومًا، فإنّ موقف ابن عاشور هو الموقف العقدي - الأشعري - الذي يقرّ بعصمة الرسول مبدأ عامًّا، ثم بأفضليته على سائر البشر، وعلى هذا الأساس بنى سيرته. ولكنّه خصص

---

(١) Littérarisation de l'histoire .

(٢) أليس الصبح بقريب؟ (ص ١٨٣ - ١٨٩)، دار سحنون للنشر والتوزيع (٢٠٠٦م).

صفحاتٍ مطولة في التفسير لدحض كل منقصةٍ أو شبهة لإبعاد الشوائب[١]. وبالاعتماد على مقولة العصمة - التي صاغها الأشاعرة، ومفادها: أنّ الأنبياء معصومون من ارتكاب الخطايا: الكبائر منها والصّغائر - رسم ابن عاشور - وهو من كبار الأشاعرة والمنافحين عن مبادئهم - صورةً عن الكمال الأخلاقي والإنساني للرسول الذي لم يرتكب قط أية مثلبةٍ تنقص من قدره أو تضع أمانته موضع الشكّ. فالأنبياء مُكلَّفون بتبليغ الوحي صافيًا من كل زيادة أو نقصان. ولذلك خصَّص ابن عاشور صفحات من تفسيره لِتَفنِيدِ كل التهم التي تُشتمّ منها رائحة المساس من القدر النبوي، أو تنفي عنه العصمة. وأظهر آية يعتمدها من يقرّ إمكانية وقوع الخطأ من النبي ﷺ هي الآيات الأولى من سورة: عبس، التي تولّى الشيخ شرحها بما لا يدع مجالًا للشك في عصمة النبي، ويبيّن فيها أنّه اجتهد واعتمد قرائن الحال[٢].

٨ - الهاجس الإصلاحي:

وفي متن هذه السيرة المختصرة، يتجلّى بوضوحٍ الهاجس الإصلاحي - التنويري لدى الشيخ، وهو من رجالات الإصلاح دون منازعٍ[٣]. إذ يعتبر تصدّي العلماء لتنقية كتب التاريخ مما علق بها من الخرافات والتزيدات، واجبًا ليس فقط دينيًّا - كما فعل نقاد الحديث وعلماء الجرح والتعديل - بل واجبًا اجتماعيًّا - حضاريًّا؛ لأنّ الاعتماد على الواهي من الأحاديث والأخبار المدلّسة، حريّ بأن يُسْقِم عقليّة الأمة، ويفاقم أمراضها، وينشئ لديها مواقف خاطئة وسلوكًا مغلوطًا. وهكذا، فإنّ أسلوب التحقيق والتمحيص يندرج في إطار حملةٍ يقودها الشيخ عبر أعمدة المجلات والكتب لبيان كذب أخبارٍ وضعتها العامة وتداولتها[٤]. على أنّ هذا العمل الإصلاحي، بدأه منذ سنة (١٩٠٨م)،

---

(١) انظر مثلًا: الصفحات المخصصة لقصة زينب بنت جحش وعبد اللّه بن أم مكتوم.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج ٣٠).

(٣) انظر: مقال محمد الفاضل ابن عاشور، المفتي المالكي، بعنوان: « الوزير الأكبر الشيخ يوسف جعيط » (ج ٢)، (مجلد ١٠)، المجلة الزيتونية (١٩٥٥م)، حيث ذكر أهمّ أعلام الفكر والدين والأدب والسياسة، ومنهم « الوزير الكاتب الشهير الشيخ أحمد بن أبي الضياف، فكان المتولي لتربيته، وكذلك شيخ الإسلام محمد ابن الخوجة والعلامة الأكبر الشيخ محمد النيفر والمحقق الفذ محمد الطاهر ابن عاشور، وكان الشيخ جعيط من أفراد العصابة التي رفعت شأن الأدب العربي بتونس، وقويت صلاته بعماد النهضة الأدبية الشاعر الشيخ محمود قبادو وبصديقه إمام اللغة شيخ الإسلام سالم بو حاجب وفارس الشعر والتاريخ والمحاضرة الشيخ الرئيس محمد الباجي المسعودي... ».

(٤) ابن عاشور، تحقيقات وأنظارٌ في القرآن والسنة (ص ٩٤) - طبعة دار سحنون للنشر.

تاريخ كتابة كتاب: أليس الصبح بقريبٍ؟ مُخصِّصًا فيه فصلًا لعلم الحديث الذي يضم خمسة فنونٍ هي « متن الحديث، ومصطلحه، وصفات النبي ﷺ، ودلائل نبوته، وسيرته وغزواته »[1]، وبيّن فيه أسباب التمحّل والوضع معتبرًا أنّ تدليس الأخبار من أعظم أدواء الأمة. وينصبّ نقده لاعتماد الضعيف الواهي، ضمن مجهودٍ لإصلاح عقلية العامة وتصوراتها للسيرة، يزيل من خلاله كلّ ما عارض العقل. وليس من الغريب بعد ذلك ألا يورد الشيخ أية « معجزة » مما امتلأت بها كتب السيرة عدا الثابت من الأمارات الواردة بنصّ القرآن.

٩ - المنزع المقاصديّ:

ويبدو بعد ذلك كله أنّ بذراتٍ أولى لنظريّة المقاصد - التي برع فيها الشيخ وطوّرها لاحقًا في كتابه الفريد: مقاصد الشريعة الإسلاميّة[2] - ظهرت في تناوله للسيرة النبوية وتأويله لأحداثها وانتقائه لوقائعها. وهذا يعني أنّه يقيس الأحداث والوقائع على ضوء ما تتضمّنه من غايات وبما يساعد على حفظ الكليّات الخمس المعروفة (الدين، النفس، المال، النسب، العقل)، ولذلك لم يختر من السيرة إلّا العناصر التي تُصْلِح السلوك، وتُقوّم الاعتقاد، وتعود بالنفع على الفرد والمجموعة. ولذلك ركّز على الشمائل المحمدية وعلى شأن النبي داخل بيته وخارجه... وأتى حديثه عن الغزوات مختصرًا للغاية كأنما أراد منه مجرد ذكر حدث.

ويعود اهتمامه بالمقاصد المتعلقة بالسيرة إلى الفصل الذي عقده - وهو فصلٌ شديد الأصالة والعمق - في كتابه المقاصد، بيّن فيه اختلاف درجات حُجّية الحديث النبوي، بحسب المقام / السياق. وعدّد اثني عشر مقامًا، تدلّ عليها قرائنها المختلفة، ونجد تطبيقات هذا الفصل في القسم الخاص بظهور الإسلام بالمدينة حيث ساد مقام التشريع، وأثناءه تصرّف النبي ﷺ تصرُّف الأئمة والقادة، وهذا المنحى - إن جُوِّدَ فيه النّظرُ - أدّى إلى تنزيل الكثير من الأحاديث في سياقاتها التاريخيّة، وربما أفضى إلى تنسيب بعضها.

١٠ - نظرة نقديّة:

إنّ السؤال - الذي يطرح عند كتابة أية سيرة جديدةٍ - هو ما عسى أن يضيف الكاتب إلى

---

(١) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب؟ (ص ١٦٦) - طبعة دار سحنون للنشر.

(٢) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق الميساوي، دار النفائس (٢٠٠١م)، وتحقيق الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة (٢٠٠٤م)، طبعة وزارة الأوقاف القطرية وقد اعتمدنا كليهما.

سلسلة الأحداث المعروفة التي تناقلتها عشرات الكتب والمقالات جيلًا بعد جيلٍ؟.

في قصة المولد لابن عاشور من الجِدَّة والطّرافة مظاهر نوجزها كما يلي:

أ - تعليل الشيخ لعدم وجود إخوةٍ للنبي هو - في نظره - « رمزٌ ربّانيٌّ مشيرٌ إلى معنى فذاذته » أي إلى تفرده. وهذا الضرب من التحليل والتعليل هو بحد ذاته منهج في البحث أصيلٌ؛ لأنه لا يدخل في إطار التحري التاريخي وإنما في رؤية تأويلية[1] يشرح من خلالها الشيخ مظاهر من السيرة رابطًا إيّاها بالأبعاد الربّانيّة التي لا تدرك إلّا بالإيمان، وإن كان التاريخ يدعمها بعض دعمٍ.

ب - مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة واعتباره رمزًا لامتداد الديانة الإبراهيميّة وتواصلًا للسّنتين.

ج - التركيز إلى حدٍّ ما على سني المجاورة والتحنُّث في غار حراء لتأمّل دلائل الوحدانية والنظر في أدلة الصنع الربانيّ للكون. وهذا الطور من السيرة قلما اعتنى به المؤرخون.

د - شرح أسماء الرسول ﷺ واستكناه دلالتها الرمزية واعتبارها عناوين عمّا في الذّات المحمدية من الفضائل والشرف.

هـ - شأن رسول اللَّه ﷺ: الحديث عن الحياة اليومية للنبي ﷺ وكيفيات تقضية أوقاته الخاصّة والعامّة، واعتبار ذلك من تفانيه التام في خدمة المسلمين والقيام بمصالحهم.

و - التشريع للمولد: واعتباره « مسلكًا حسنًا » متجنبًا بذلك الدخول في تسميته بدعةً. والطريف أنّ هذا المسلك هاجر من بلاد الغرب الإسلامية ومنها شاع لدى ملوك الدولة السلجوقية.

إلّا أنّ الغائب الأكبر - في هذه القصّة - هو تاريخ تونس والعالم العربي - الإسلامي في فترة ما بين الحربين، زمن كتابة النصّ على الأرجح. وكانت آنذاك جلّ مناطقه تحت نير الاستعمار رازحة. ولن يُعلّل هذا التغييب إلا إذا أوّلنا هذه القصّة واعتبرناها خطابًا للالتفاف حول شخصيّة النبي ﷺ بوصفه رمزًا جماعيًّا للهويّة، واحتماءً بمكونات الموروث الإسلاميّ - وأشد مكوناته تأثيرًا رمزيًّا هو شخصية النبي - في وجه عمليات الطمس الثقافي التي تفاقمت في ثلاثينيات القرن الماضي.

---

(١) بالفرنسية المصطلح المقابل: Vision herméneutique

وقد يكون الكاتب توسَّع في إشكاليّات الماضي وأشبعها تحقيقًا ولا حاجة عمليةً تدعو لها مثل الخوض في المصير الأخرويّ لأبوي النّبي ﷺ، ومشروعيّة الاحتفال بالمولد، والمفروض أنّها مسائل حُلّت أو تجووِزت. وفي المقابل، أهمل مظاهر أخرى من السيرة، ولم يذكرها إلّا سريعًا مثل: الإسراء والمعراج وفتح مكة وغيرها من جليل الأحداث التي حوّلت مجرى التاريخ.

١١ - منهج التحقيق:

إنّ قصر هذه الرّسالة لا ينبغي أن يحجب عنّا صعوباتها البالغة، وثراء مادّتها، وتنوع مصادرها، بل وتعقّد بعض مضامينها. ولذلك، حاولنا جاهدين تحقيقها، وجعلها قريبة من متناول القارئ؛ باتباع سلسلةٍ من الخطوات المنهجية نذكرها هنا حتى يرى القارئ الكريم طبيعة الجهاز النظري الذي اعتمدنا عليه:

١ - تقسيم النص إلى زهاء مائتي وحدةٍ دلالية (فقراتٍ) حتّى يسهل الفصل بين الأفكار والمعلومات الثريّة الواردة في النصّ، وحتى يسهل الانتقال من محورٍ إلى محورٍ آخر في سلاسةٍ. ولهذا التقسيم مزيّةٌ أخرى فهو يساعد القارئ على التأمل في كلّ فكرةٍ على حدة، بما أنّ أسلوب الشيخ كان هنا شديد التركيز والاختصار.

٢ - شرح المفردات الصّعبة التي لا يتأتّى للقارئ المعاصر فهمها بسهولةٍ، بما أنّ الشيخ يعتمد النصوص القديمة، وفي أنظمتها المعجمية بعض الغرابة والنّدرة والغموض. وقد حاولنا - قدر المستطاع - ذكر المعنى المراد من الصور البيانية التي يزين بها الشيخ كلامه والتي صارت استعارات بعيدة بسبب طابعها المجرد وذلك مثل: الوشيج، المنثلم... وتجدر الإشارة إلى أنّ الكاتب جرى على عادته في تحشية مقالاته، فقد كتب بنفسه مجموعةً من الإحالات والهوامش حافظنا عليها جميعًا وأضفنا أمامها عبارة (المصنّف).

٣ - ذكر التواريخ الميلادية التي توافق التواريخ الهجريّة وذلك حتى يتسنى للقارئ - الذي أَلِف التقويم الميلادي - الوقوف على زمن الحدث ووضعه في سياقه التاريخيّ.

٤ - تخريج الآيات القرآنية.

٥ - تخريج الأحاديث النبويّة.

٦ - إضافة ثلاثة عناوين لتيسير تقسيم الكتاب وفهم مقاطعه.

٧ - العودة إلى كتاب التحرير والتنوير[١]، إذ احتوت هذه الموسوعة التفسيريّة الضّخمة على تفاصيل ثريّةٍ تتصل بحياة النبي، رَبَطَها مؤلفُها بنزول الآيات التدريجي، وبتتابع الوحي. فتفسيره أكبر نصٍّ متكاملٍ، يقرن بين السيرة والقرآن، ويحقق معاني المفردات والآيات على ضوء ما صحّ من أسباب النزول[٢]؛ ولذلك، اعتمدنا على كل المظان التي أورد فيها تحاريره، وأوردناها حتى يجد القارئ تلك التحقيقات متاحة، على أنّ الشيخ لم يُراعِ في ذلك التتابع الزمني للأحداث، وإنّما اتبع نسق وجود الآيات في المصحف.

٨ - التعريف الموجز بكلّ الأعلام الذين وردت أسماؤهم في هذا الكتاب، وهم ينقسمون إلى فئتين: فئة الأعلام الذين عاصروا النبي محمّدًا ﷺ، سواء كانوا مؤمنين أو مشركين. وفئة العلماء والشخصيات الأدبيّة والفقهيّة التي استدلّ الشيخ بهم في عرضه لأفكاره. والهدف من هذه التعريفات تقديم الشخصيات وذكر الصِّلات المنعقدة بينها حتّى يتبيّن النّسق العاشوري في الاستدلال.

ولقد اخترنا - منهجًا - في عرضنا للمعلومات المتعلّقة بهؤلاء الأعلام والشخصيات التاريخيّة (مثل: الصحابة، وأجداد الرسول ﷺ، وأبنائه ومعاصريه) عدم الخوض في مشاكل صحّتها التاريخيّة من عدمها، واعتمدنا بالأساس في تقديمها على كتاب الطبقات الكبرى لابن سعدٍ، وهو مؤرخٌ مشهورٌ بالنّزاهة والصرامة[٣]. ويُعَلّل اختيارنا هذا برغبتنا في عدم تجاوز إطار بحثنا، وعدم استعمال المنهج الريبي دون ترشيدٍ.

٩ - إنجاز فهارس ختامية للآيات القرآنيّة والأحاديث النبوية والوقائع وأسماء الأعلام، ضَمَّنّا فيها الأشخاص والبلدان والقبائل والأماكن ليسهل الرجوع إليها.

١٠ - إفراد المفاهيم المركزية (المصطلحات) بفهرس مُرتَّب حسب الاشتقاق مع اقتراح تحديدٍ موجزٍ لكل مفهوم. ويندرج هذا العمل في إطار منهج علم الدلالة اللغوي[٤]:

---

(١) كلّ إحالاتنا على طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع (١٩٩٧م).

(٢) انظر المقدمة الخامسة لتفسيره (١ / ٤٦ - ٥٠). وحول علاقة السيرة بالقرآن، تحسن العودة إلى كتاب الأستاذ هشام جعيط:
La Vie de Muhammad, La Prédication prophétique à La Mecque, (pp. 30 - 39) Ed. Fayard, 2008.

(٣) انظر تقديم الأستاذ هشام جعيط ونقده لهذا المصدر الأساسي في السيرة النبوية:
La Vie de Muhammad, La Prédication prophétique à La Mecque, (pp. 356 - 364) Ed. Fayard, 2008.

(٤) La sémantique lexicale.

وهو منهجٌ يساعد على مقاربة فكرٍ ما من خلال مفاهيمه الكبرى ومصطلحاته المركزية. وهي طريقة أبانت عن جدواها في الدّراسات الحديثة للفكر العربيّ الإسلاميّ.

١١ - تقديم الكاتب والكتاب لإعطاء مجموعةٍ من المفاهيم العامّة التي تساعد على وضع « قصة المولد » في سياقها التاريخي والعقدي والفقهيّ.

ويقتضي واجب النزاهة العلميّة أن نُعلم القارئ الكريم بعدم تمكننا من الحصول على المخطوط الأصلي لهذه القصّة، وذلك رغم محاولاتنا العديدة وأبحاثنا المتواصلة، فاقتصرنا على النسخة المطبوعة (١٩٧٢م)، بالدّار التونسيّة للنشر واعتمدناها كأصلٍ وحيدٍ.

وهي - والحق يقال - طبعةٌ سليمةٌ في عمومها عدا هناتٍ إملائية نادرة، هنا وهناك، أشرنا إليها في مظانها.

كما عسُر علينا ضبط التاريخ الدقيق لكتابة هذه المحاضرة وإلقائها. ولذلك نرجو من كافة القرّاء إمدادنا بكل معلومة تُيسّر علينا عملية التحقيق الدقيق لهذا النصّ المحوريّ.

قصة المولد لوحاتٌ متخيَّرةٌ، بأسلوبٍ جزلٍ وألفاظٍ منتقاةٍ كُتِبَتْ، توثِّق أهمّ أحداث السيرة النبوية، التي لا يسع أحدًا جهلُها. وكأنّ ما ورد فيها من مختار المعلومات يندرج ضمن المعلوم من الدين بالضّرورة. صوَّر فيها الشيخ بريشته البارعة ما يلزم المؤمنين معرفته عن نبيّهم، حتى يتقوّى الإيمان بفذاذته، وتشتد فيه المحبة. واتّبع في تصويره هذا سبيل الإيجاز والدقة، فجاءت كلّ عبارةٍ فيه حاملةً لمعانٍ جمّةٍ، مجملةٍ تحتاج إلى فضلٍ من التوسع والتأليف. على أنّ الشيخ عاد إلى هاتيك اللمع فأوسعها تحقيقًا وتدقيقًا. وتعدّ هذه القصّة - على إيجازها - من كنوز التاريخ وعيون الإنشاء.

* * *
* *
*

نُبذَة عَنْ حَيَاة الشَّيْخ
مُحَمَّد الطَّاهر ابْن عاشُور[1]

إنّ الكتب والدراسات التي ألّفت حول حياة ابن عاشور، ومسيرته العلميّة والإصلاحية، بلغت - لا سيما في العقدين الأخيرين - كثرةً كثيرة، على أنّ جلّها يأخذ من بعض: يعيده ولا يحلّله إلا لمامًا. ولذلك قررنا التركيز الموجز على بعض الأبعاد المتّصلة بمكانة الرسول في الفكر العاشوري:

ولد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور في مدينة تونس سنة (١٨٧٩م)، وهو ينحدر من أسرة علميّة عريقة، تعود أصولها إلى الأندلس، أندلس الفقه المالكيّ والعقيدة الأشعريّة. حفظ القرآن صغيرًا، وبرز منذ طفولته في العديد من العلوم الدينية واللغوية، كالبلاغة والفقه، والكلام، واللغة والأدب.

ومن المعلوم أنّ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور الجدّ (أو الأوّل) (١٨١٥ - ١٨٦٨م) شرحًا لقصيدة البردة البصيرية عنوانها: شفاء الجريح بشرح بردة المديح، القاهرة (١٨٧٨م)، تونس (١٩٢٢ - ١٩٢٣م). وهذا يدل على أنّ الاعتناء بالتأريخ للرسول ﷺ وآثاره إنما هو إرثٌ عائلي عريقٌ وعادةٌ منغرسة في البيئة العائلية. وذلك بالإضافة إلى تربية

---

(١) امتاز العقدان الأخيران بتراكم الدراسات حول مسيرة ابن عاشور العلمية والسياسية. وهذه أهم المصادر المعروفة في اللغة العربية، ولكن جلّها يكرر بعضها البعض. وتحتاج المكتبة العربية إلى صياغة حياة الشيخ بشكلٍ تحليليّ علميّ يسلط الضوء على مساهماته الفكرية:

١ - حوليات الجامعة التونسية (العدد ٥) (١٩٦٨م)، و(العدد ٨) (١٩٧١م).

٢ - الزركلي، الأعلام (٦/ ١٧٣) (١٩٨٠م).

٣ - صادق الزمرلي، أعلام تونسيون، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي (١٩٨٦م) عليّ أحمد العطار، الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، رسالة دكتوراه (١٩٩٠م).

٤ - مجلة الهداية، عدد (٣/ ٤) (١٩٦٨م).

٥ - مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد (٤)، السنة (٤)، (١٩٧٥، ١٩٧٦م).

٦ - محمد الحبيب ابن الخوجة، محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، (٣) أجزاء، طبعة وزارة الأوقاف (٢٠٠٤م) وله أيضًا: مجلة جوهر الإسلام، عدد (٣/ ٤) (١٩٦٧م).

٧ - محمد العزيز بن عاشور، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دائرة المعارف التونسية (١/ ٤٠ - ٤٤) (١٩٩٠م).

٨ - صفحات من تاريخ تونس، تقديم: حمادي الساحلي - الجيلاني ابن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي (١٩٨٦م).

٩ - محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين (٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥) دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٢م).

جدّه للأم الشيخ محمد العزيز بوعتور وإجازته إيّاه في رواية الحديث سنة (١٩٠٤م)[١].

تولّى الشيخ ابن عاشور - بعد فترة التحصيل - مناصب علميّة وإدارية بارزة كالتدريس، والقضاء، والإفتاء، كما تمَّ تعيينه شيخًا لجامع الزيتونة، وسمي حاكمًا بالمجلس المختلط سنة (١٩٠٩م)، ثم قاضيًا مالكيًّا في سنة (١٩١١م). وارتقى إلى رتبة الإفتاء، وفي سنة (١٩٣٢م)، اختير لمنصب شيخ الإسلام المالكي، ولما حذفت النظارة العلميّة، أصبح أول شيخ لجامعة الزيتونة، ولكنّه أُبعد عنها لأسباب سياسيّة، ليعود إلى منصبه سنة (١٩٤٥م)، وظلّ به إلى ما بعد استقلال تونس سنة (١٩٦٥م).

لا شكّ أنّ الإشراف على جامع الزيتونة، تدريسًا وإدارةً وتنظيمًا، وقد تولّاه منذ (١٩٠٣م)، حتى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، يسّر له تخصيص حيّزٍ من أوقاته لخدمة السيرة النبوية ليستعمل نتائج ذلك العمل في إحياء ليلة المولد الذي هو من مهام جامع الزيتونة وشعائره المتوارثة من عقودٍ.

والمعلوم من سيرة الشيخ أنّه شغل خطة القضاء المالكي سنة (١٩١٣م) حتى (١٩٢٣م)، ثم صار باش مفتي المالكية سنة (١٩٢٧م)، ثم منصب شيخ الإسلام المالكي سنة (١٩٣٢م). وهذه الوظائف الفقهية - القضائية مقترنة بالعمل الإفتائي وهو ما اقتضى منه تخصيص ما يشبه الفتوى أو الجواب بجواز الاحتفال بالمولد، لا سيما بعد انتشار القول ببدعيّة الاحتفال بالمولد في الأوساط المتشددة، وربما كان ذلك من تأثير الحركة الوهابية التي بدأت أصداؤها تنتشر بدعمٍ من المملكة العربية السعودية[٢].

وقد عرف عن الشيخ اشتغاله الدؤوب بالعمل الصحفيّ - خاصة في الثلاثينيات من القرن الماضي - وقد ساهم الشيخ فيه ولا سيما بعد تأسيس « المجلة الزيتونية »، والمنار، والهداية الإسلامية، وهدى الإسلام، ونور الإسلام... ويبدو أنّ هذه المجلات كانت تنشر مقالات خاصة بالسيرة، أحيانًا في أعداد خاصة، مثل: عدد المجلة الزيتونية الذي خصص للمولد - وذلك للاستجابة لآفاق انتظار قرّاء يبحثون عن مضامين تتعلق بالسيرة، ومن تلك المقالات استمدّ الشيخ مادة هذا الكتاب.

---

(١) محمد العزيز بن عاشور، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دائرة المعارف التونسية (١ / ٤١) (١٩٩٠م).

(٢) تجدر الإشارة إلى أنّ الردود على الفكر الوهابيّ بدأت منذ وصول رسالة محمد بن عبد الوهاب سنة (١٨١٤م) إلى حمودة باشا باي الذي طلب من علماء تونس آنذاك الردّ عليها، فأنجز الشيخ إسماعيل التميمي ذلك الرد بدقّة، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس (٢٠٠١م) (٢ / ٣ / ٦٠ - ٧٥).

كما أنّ الاشتغال بتفسير القرآن (في كتابه المعلمي: تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الشهير بـ: التحرير والتنوير) طيلة خمسين سنةً تحقيقًا وتدقيقًا، دعاه إلى تحقيق القول في الكثير من أحداث السيرة النبويّة والعودة إلى أهم الأخبار والأسماء والتواريخ الواردة فيها. واللافت للنظر، أنّه ركّز كثيرًا على علاقة السيرة بالقرآن، وفسّر أحدهما بالآخر، ولعلّ « قصة المولد »، بمثابة إطارٍ تاريخيّ عامٍّ، فصّله وعاد إليه في كامل تفسيره، وهو ما دعانا إلى العودة إليه لمعرفة تفاصيل هذه « القصة ».

وصاحَبَ اشتغال ابن عاشور بالسيرة النبوية تأليفٌ لكتابين في شرح الحديث النبويّ، وهو من أقرب المواد التاريخية صلةً بالسيرة. وقد آثر - كعادته في التأليف - الاقتصار على التحرير والتحقيق في كتابين منفردين:

الأول: النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، تونس - ليبيا (١٩٧٩م)، دار سحنون (٢٠٠٧م).

والثاني: كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، تونس - الجزائر (١٩٧٥م)، دار سحنون (٢٠٠٧م). وقد اعتمد بشكلٍ أساسي على كتب الأحاديث الصحيحة في تحرير مواد قصّة المولد.

ويعد الاحتفاء بالنموذج المحمّدي نشاطًا عائليًّا من حيث تعود الشيخ على إقراء الحديث لأبنائه - ولا سيما الشيخ الفاضل ابن عاشور - الذي ذكر إجازاته ومروياته عن والده. وهذا يدلّ دلالة واضحة على المكانة الرمزيّة - الأخلاقية، التي تحتلها السيرة النبوية في تربية النَّشء وصياغة المخيال.

واعتبار النبي محمّدٍ ﷺ رمزًا للكمال الأخلاقي، يؤهله أن يكون عنوانًا للهويّة المغاربية الإسلامية، لا سيما في السياق الاستعماري الذي شهد عمليات التغريب والتجنيس، فكان الاعتناء بهذا الجانب من تاريخ الإسلام والمسلمين هو الجانب الثقافي ضدّ حملات تغريب المجتمع التونسي، وهو شكلٌ من أشكال العودة إلى رموز الذاتية.

أ - أعماله المطبوعة[1]:

١ - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، دار سحنون للنشر والتوزيع (٢٠٠٦م)،

---

(١) اعتمدنا على المقال الشامل للدكتور محمد العزيز بن عاشور، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دائرة المعارف التونسيّة (١/ ٤١) (١٩٩٠م).

دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠١٠م).

٢ - أليس الصبح بقريب؟ دار سحنون للنشر والتوزيع (١٩٦٧، ١٩٨٨، ٢٠٠٦م). دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠١٠ م).

٣ - التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع (١٩٩٧م) (وهذه هي الطبعة التي أحلنا عليها في تحقيقنا لقصة المولد).

٤ - تحقيق: الواضح في مشكلات شعر المتنبّي لأبي القاسم الأصفهاني، تونس (١٩٦٨م). دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠٠٩م).

٥ - تحقيق لكتاب سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي، تونس(١٩٧٠م). دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠٠٩ م).

٦ - جمع وتحقيق لديوان النابغة الذبياني، تونس - الجزائر (١٩٧٦م). دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠٠٩ م).

٧ - جمع وتحقيق لديوان بشار بن برد، دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠٠٩ م).

٨ - حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح: الفصول في الأصول، لشهاب الدين القرافي، تونس (١٩٢٣م).

٩ - شرح وتحقيق قلائد العقيان، للفتح بن خاقان، على شرح ابن زاكور. الدار التونسية للنشر (١٩٨٩م).

١٠ - شرح المقدمة الأدبية للمرزوقي في مقدمته لديوان الحماسة لأبي تمام، تونس (١٩٥٨م)، تونس - ليبيا (١٩٧٨م).

١١ - فتاوى الشيخ العلامة محمد الطاهر ابن عاشور، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بوزغيبة، الدار المتوسطية للنشر (٢٠١١م). والجدير بالذكر أنّ الباحث، جامع الفتاوى، لم يتطرق إلى الفتوى التي افتتح بها الشيخ ابن عاشور قصة المولد حول مشروعية الاحتفال به.

١٢ - قصة المولد، الدار التونسية للنشر (١٩٧٢م)، وهي التي اعتمدناها بشكلٍ أساسيٍّ بسبب عدم تمكننا من الاطلاع على المخطوط الأصلي.

١٣ - كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في « الموطأ »، تونس - الجزائر

(١٩٧٥م)، دار سحنون (٢٠٠٧م). دار سحنون (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة) (٢٠١١ م).

١٤ - مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق الميساوي، دار النفائس (٢٠٠١م)، وتحقيق الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة (٢٠٠٤م)، طبعة وزارة الأوقاف القطرية وقد اعتمدنا كليهما.

١٥ - النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح، تونس - ليبيا (١٩٧٩م). دار سحنون (٢٠٠٧م) (بالاشتراك مع دار السلام - القاهرة).

١٦ - الوقف وآثاره في الإسلام، جريدة النهضة، تونس، أكتوبر (١٩٣٧م).

ب - مقالاته المنشورة المتصلة بالسيرة النبوية:

نودّ تخصيصها بهذا القسم لبيان مكانة السيرة النبوية في الفكر العاشوري، وأنه خصص لها جلّ مقالاته التي بعث بها إلى المجلات التونسية والمصرية، وهذا له دلالتان:

الأولى: إرادة إبلاغ أفكاره حول السيرة ونشرها لدى جمهورٍ عريضٍ، أعرض من ذلك الذي إليه تتوجه الكتب.

الثانية: تخصيص جمهور القراء العرب المسلمين - من خلال المجلات المصرية التي كانت أكثر شيوعًا وانتشارًا من قريناتها التونسية.

١ - إعراض الرسول ﷺ عن الاهتمام بتناول الطعام، الهداية الإسلامية، مصر، المجلد (٧).

٢ - الإسراء، مجلة الهداية، يوليو (١٩٧٥م) (ص ١١٠ - ١١٢).

٣ - الرسول ﷺ والإرشاد، مجلة الهداية، في ثلاثة أعداد: أكتوبر (١٩٧٣م) (ص ٢٩ - ٣٤)، أبريل (١٩٧٥م) (ص ٢٧ - ٣٠)، مارس (١٩٧٧م) (ص ١٢ - ١٥).

٤ - الشمائل المحمدية، المجلة الزيتونية (عدد ٩) سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٢٩م) (ص ٤٢٦ - ٤٥٢).

٥ - الكتاب الذي همّ به رسول اللَّه ﷺ قبل وفاته، الهداية الإسلامية بمصر[1]، المجلد (١٢).

---

(١) لم نتمكن من الاطلاع على المقالات رقم (٦، ٧، ٩). ذكرها: محمد الحبيب ابن الخوجة، محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية (١ / ٣٢٣ - ٣٢٥)، طبعة وزارة الأوقاف (٢٠٠٤م).

٦ - مجلس رسول اللَّه ﷺ، الهداية الإسلامية، مصر، المجلد (٧).

٧ - المعجزات الخفيّة للحضرة المحمديّة (دون ذكرٍ للمصدر).

٨ - المقصد العظيم من الهجرة، المجلّة الزيتونية (عدد ٣)، سنة (١٣٥٨هـ / مارس ١٩٣١م) (٣/ ٩٤ - ٩٧).

٩ - معجزة الأميّة، الهداية الإسلاميّة، مصر، المجلد (١٠).

١٠ - نسب الرسول ﷺ، المجلة الزيتونية (عدد ٩) سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٢٩م) (ص ٤١٦ - ٤٢٤).

١١ - وفود العرب في الحضرة النبويّة، الهداية في (٥) أعدادٍ: (مارس ١٩٧٨م) (ص ٢٥ - ٣٠)، (مايو ١٩٧٨م) (ص ٥١ - ٥٤)، (سبتمبر ١٩٧٨م) (ص ١٧ - ٢١)، (نوفمبر ١٩٨٢م) (ص ١٧ - ٢١)، (يناير ١٩٨٣م) (ص ٤١ - ٤٥).

ج - كتبه التي لم تطبع أو هي بصدد الطبع:

١ - أصول التقدم في الإسلام.

٢ - أصول الإنشاء والخطابة.

٣ - آمالي على مختصر خليل.

٤ - آمالي على دلائل الإعجاز.

٥ - تحقيق وتصحيح لكتاب الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب، لابن السيد البطليوسي.

٦ - تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي.

٧ - تاريخ العرب.

٨ - تعليق وتحقيق على شرح حديث أم زرع.

٩ - تعاليق على المطوّل وحاشية السيالكوتي.

١٠ - تحقيق وتعليق على كتاب « مقدمة في النحو » المنسوب إلى محرز بن خلف الأحمر.

١١ - تراجم لبعض الأعلام.

١٢ - تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للحكيم ابن زهر.

١٣ - جمع وشرح « ديوان سحيم ».

١٤ - شرح قصيدة الأعشى.

١٥ - شرح معلقة امرئ القيس.

١٦ - غرائب الاستعمال.

١٧ - قضايا شرعية وأحكام فقهية وآراء اجتهادية ومسائل علمية.

١٨ - مجموع فتاوى ورسائل فقهية.

١٩ - مراجعات تتعلق بكتابَيْ: معجز أحمد واللامع للعزيزي.

٢٠ - موجز البلاغة.

ونختم هذه العجالة بشهادتين لِعَـلَمَـين عاصرا الشيخ:

الأولى: كتبها أشهر أقرانه، الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الجامع الأزهر، الذي وصف صديقه قائلًا:

« وللأستاذ فصاحة منطقٍ، وبراعة بيانٍ، ويضيف إلى غزارة العلم وقوّة النظر، صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة... كنت أرى فيه لسانًا لهجته الصدق، وهمّة طمّاحة إلى المعالي، وجِدًّا في العمل لا يمسه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه... وبالإجمال ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم »[1].

والثانية: للشيخ محمد البشير الإبراهيمي قائلًا:

« علم من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمامٌ متبحّر في العلوم الإسلاميّة، مستقلٌّ في الاستدلال، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذّرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها، أقرأ، وأفاد، وتخرّجت عليه طبقاتٌ ممتازةٌ في التحقيق العلميّ »[2].

د - وفاته:

توفي في تونس - بالمرسى - يوم الأحد (١٢ أغسطس سنة ١٩٧٣م)، عن عمرٍ يناهز الثمانية والتسعين عامًا.

---

(١) محمد الخضر حسين، تونس وجامع الزيتونة (ص ١٢٥ ، ١٢٦)، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين (ص ٣٠٦).

(٢) نقلًا عن الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة، شيخ الإسلام، محمد الطاهر ابن عاشور (١ / ١٦٩، ١٧٠).

وخلاصة هذه المسيرة الثريّة أنّ الشيخ كان مؤرخًا محققًا، متشبّعًا بجلّ مصادر الفكر الإسلامي، عارفًا بدقائق مظانّه، أمضى كلّ حياته في تحقيق مسائله، وبسط المعقوليّة والتاريخيّة على أنحائه، مقصيًا - بدقيق البرهنة ورشيق الاستدلال - ما داخل هذا الفكر من ألوان المبالغة والتكلّف.

ولا جرم أن بقي الرجل - وهو شيخ الإسلام - في نطاق دائرة الإيمان، مدافعًا عن قدسيّة الرموز الدينيّة، منافحًا عن مظاهر الكمال فيه، رغم ما زيّن كتاباته من روح التحرّر، وجودة التحرير.

أ. د. نجم الدين خلف الله

جامعة لوران، فرنسا، باريس،
ديسمبر ٢٠١٣م


السيرة النبوية
قصة المولد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[ديباجَة]

١ - الحَمدُ للَّه الذي أطْلعَ للنَّاسِ في ظُلمَة الضَّلالَةِ بدرَ الهُدى، وبلَّ بِغَيْثِ الرَّشادِ المُحَمَّدِيِّ ما لَحِقَ طينَةَ قُلوبِهم مِن صَدًا، ورَفعَ قَدْرَ نَبيِّهِ مُحَمَّدٍ وأعْلَى مَقامَه، وبعثَهُ رَحْمَةً للعالَمين في الدُّنيا وَعَرَصاتِ[1] القِيامَة، وأمرَ أُمَّتَه بتَعْظِيمِهِ، فَنبَّهم لِذلكَ بِالأمْرِ بالصَّلاةِ عَلَيْه[2]، والنَّهْيِ عَن رَفْعِ الصَّوتِ عِنْدَهُ، والتَّقديم بَيْنَ يَدَيْهِ[3].

٢ - اللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَيْه صَلاةً تَكون بَيْنَ أيدينا نُورًا، ونَزْدادُ بها نَضْرَةً وسُرورًا[4]، وعلى آلِهِ الذينَ خَصَّصْتَهُمْ بِمَزايَا الشَّرَف، وأطْلَعْتَهُمْ في سَماءِ الفَضائِلِ بُدورًا، ما يَشينُها كَلَف[5]، وارْضَ عَن أصْحابِهِ الذين أثْبَتَّ رِضاكَ عَنْهُمْ في كتابِكَ إعْلانًا[6]، الذين هَاجَروا ونَصَروا وآثَروا ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الحشر: ٨]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ﴾ [الحشر: ١٠]، فَأَنْعِمْ بِهِمْ إِخْوانًا.

* * *
* *
*

(١) العَرَصاتُ: السّاحات الواسعة.

(٢) إشارة إلى الآية الشهيرة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(٣) إشارة إلى الآيتين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

(٤) تضمين للآية: ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

(٥) الكلف: النقص في القمر.

(٦) الإشارة إلى الآية: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

مُقَـدِّمَة

٣ - أمّا بَعد، فَهَذهِ سَحابَةٌ أظلَّتْ بِذكْرِ الفَضائِلِ المُحَمَّديَّة، فَبُثَّ رَشَاشُها. وزُجاجَةٌ مُلِئَتْ مِن عِطْرِ الأَخْلاق النَّبَوِيَّة، فيها لِنُفوسِ السَّامِعينَ انْتِعاشُها، لَوْ وُزِنَتْ بِأَغْلَى الدُّرَرِ واليَواقيتِ لَما غَلَت سومًا على السَّامِعِ فَلَقال: هاتِ أو هَيْتَ[١]، وكَيفَ لا؟ وإنَّ مَـلأَهَا لَمِن زُلالِ شَرَفِ الرَّسولِ، وانْبِثاقَ لَوامِعِ بَرْقِها يُشامُ[٢] منهُ خَيرُ غَيْثٍ هَطولٍ.

٤ - آثَرْتُ فيها جَمْعَ لُمَعٍ كافيةٍ للَّذينَ تَعَلَّقَت قُلوبُهُمْ بِمَحَبَّتِهِ، وأخبارِ غَيرِ واهيةِ الأساسِ مِن مُخْتار عُيونِ سِيرَتِهِ؛ إذْ كانَ قد أغْنى هَذه الأمَّةَ عَن التشبُّث بما لَيسَ بِمَحَجَّةِ الثُّبوتِ، ولَقَّنَها أنْ تَرْبأَ عَنها بإشارَةِ قَولِهِ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

٥ - فكذلكَ يَنْبَغي أن يَكونَ المسلمونَ فيما يُبَـيِّتونَ من شُؤونِهم وأوْضاعِهِم، وعَلَى ذلكَ الخُلُقِ عُلَماؤُهُمْ وأشياعُهُم، فإنَّ هذا الدِّينَ ثَرِيٌّ بما أمَدَّهُ اللَّهُ مِنْ صَحيحٍ كثيرٍ، عَن أنْ يُلَفَّقَ لَه شاعِبُ[٣] كلِّ مُنْثَلمٍ أو كَسيرٍ، فلا يَحقُّ لِحَمَلَتِهِ أن يَشوبُوه بما يُكَدِّرُ منه صَفْوَ صِفاتِهِ، وأنْ يَنْسَوْا ما خُصَّتْ به هذه الأمَّةُ من صِحَّةِ بُلوغ الدِّينِ ورِواياتِهِ.

٦ - فَعلَى ذلكَ النِّيرِ[٤] قَد سَدَيْتُ مُحْكَمَ هَذا النَّسيجِ، وكذلك تَفَرَّعَت أفْنانُ هَذه الشَّجَرة الطيِّـبَة على ما انفتقَ عنه ذلكَ الوَشيجُ[٥].

٧ - دَعانِي إلَيهِ[٦] الاتِّساءُ بِأفاضِلِ الأمَّة، الذين ألْهَمَهُمُ اللَّهُ صَرفَ الهِمَّة، إلى العِنايةِ بِتَعظيمِ اليَومِ الذي يُوافقُ من كلِّ عامٍ، يومَ ميلادِ مُحَمَّدٍ، رَسولِهِ، عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛

---

(١) هَيْتَ أداة تعجّبٍ. تقول العرب: هيت للحلم وهيت لك، وهيت لك: أي أقبل. قال الزجاج: وأكثرها هَيْتَ لك بفتح الهاء والتاء. ابن منظور، لسان العرب (هـ. ي. ت).

(٢) يقال: شام السّحاب أو البرق: نظر إليه ليرى أين يمطر.

(٣) الشاعب: المتفرق، الفاسد، المنكسر. والكلمة هنا كناية عن الأحاديث والأخبار الضعيفة التي لا يمكن أن تعتمد في سيرة النبي ﷺ وإثبات فضائله.

(٤) النير: القصب والخيوط إذا اجتمعت، والنير: العلم، وفي الصحاح: علم الثوب ولحمته أيضًا. ابن سيده: نير الثوب عَلَمه والجمع أنيارٌ. ابن منظور، لسان العرب (ن. ي. ر). وهو هنا كناية عن المنهج والخط المتبع في كتابة هذا الكتاب.

(٥) الوشيج: عرق الشجرة وليفٌ يفتل ثم يُشد به ما يحمل، ويقال: وشَجَتِ العروق والأغصان أي: اشتبكت. ابن منظور، لسان العرب (و. ش. ج). وهو هنا كناية عن أغصان السيرة النبويّة وما يتفرع عنها من دروس وعبر.

(٦) أي: ما شجعني على تأليف هذا الكتاب.

إذ كانوا قدْ عَدُّوه عِيدًا، وَرَمَوا بِرَشيق نَبْل عُقولِهِم بذلكَ مَرمًى بَعيدًا، عَلِمناهُ من قَوْلِهِ تَعالى في التنْويهِ بِشهرِ رَمَضانَ: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٨ - فَأيُّ يَومٍ أسعدُ من يَومٍ أظهرَ اللَّهُ فيهِ للعالَمِ مَولودًا كانَ المُنقِذَ من الضَّلالةِ، أخرَجَ به النَّاسَ مِن ظُلماتِ الشِّرْكِ ومَناقِصِ الجَهالةِ. وإذا كَانَتِ الأعيادُ الثَّابِتَةُ في الدِّينِ قد جاءَتْ على مُناسَبَةِ الفَراغ مِن عِبادَاتٍ مَشروعَةٍ، فَذِكْرَى الواسِطَةِ العُظمى في تَبليغ ذلكَ يَحقُّ أنْ تَكونَ مُشَيَّدَةً مَرفوعَةً.

٩ - وأوَّلُ مَنْ عَلِمْتُه صَرَفَ همَّتَهُ إلَى الاحْتِفال باليَومِ المُوافِقِ يومَ مَولِدِ الرَّسول ﷺ، فيمَا حَكاهُ ابنُ مَرْزوقٍ[١]، هو القاضي أحْمدُ بنُ مُحَمَّدٍ العَزَفيّ[٢] السَّبْتِيّ المالكيُّ[٣] في أواسط القَرن السَّادِسِ. وتَبِعَهُ عَلَيْه ابنُهُ القاضي أبو القاسِمِ مُحَمَّد، من عُلَماءِ القَرن السادِسِ، وأوائِلِ السَّابعِ. واسْتَحسنَه جمهورُ مَشْيَخَةِ المَغْرِب، وَوَصفوهُ: بالمَسْلَكِ الحَسَنِ[٤].

١٠ - قالَ أبو القاسم البُرْزُلي[٥]: « مِيلادُ النَّبي ﷺ، مَوْسِمٌ يُعْتَنَى به في الحَواضِرِ تَعظيمًا لَهُ ».

١١ - وكانَ شأنُ أهلِ الخَيرِ إحياءَ لَيلَةِ المَولِدِ بالصَّلاةِ على النَّبي، ومَعونَة آلِهِ، ومُساهَمَتِهِم[٦]، والإكْثارَ من الصَّدقَاتِ وأعْمالِ البِرِّ، وإغاثَةَ المَلهوفِ، مع ما تَسْتَجلبُهُ

---

(١) ابن مرزوق، عالم دين ورجل دولة. ولد في تلمسان سنة (١٣١٠هـ)، وتوفي بالقاهرة سنة (١٣٧٩هـ). تتلمذ على شيخه شعيب، أبي مدين في سنة (١٣٥٣هـ)، كان يعمل مدرسًا في مدرسة يوسف الأول بغرناطة. من بين طلبته ابن الخطيب وابن زمرق.

(٢) العزفي بفتحتين، نسبة إلى جدّه أبي عزفة اللخمي وهو تلميذ القاضي أبي بكر ابن العربيّ، كذا في ذيل اللباب. (المصنّف).

(٣) أبو العَبَّاس أحمد ابن القاضي أبي عبد اللَّه محمَّد بن أحمد بن محمد اللخمي، المعروف بابن أبي عَزَفَة. ولدَ سنة (٥٥٧هـ)، وهو مِن أعلام عصره بِسَبْتَةَ. كان فقيهًا جليلًا اشتَهَرَ بعلمِهِ وعَمَلِه. لَزِمَ التَّدريسَ بِمدينة سَبتَة مدَّة طويلة، تتلمذ عَلَيه كثيرٌ من الطلبة.

(٤) وَرَدَ في « أزْهار الرِّياض »: أنَّ أحمد العَزَفِيَّ شَرَعَ في إنشاء كِتابٍ سَمَّاهُ: الدرَّ المُنَظَّم بمولد النبي الأعْظَم، وأتَـمَّهُ ابنُهُ. (المُصَنِّفُ).

(٥) أبو القاسِم بن أحمد البَلَوِي التونسّي المعروف بالبُرْزُليّ (ت٨٤١ هـ)، أَلَّفَ كتاب « جامِع مَسائِل الأحكام لما نَزَلَ من القضايا بالمُفتين والحُكَّام » المَعروف اختصارًا بـ « فَتاوَى البُرْزُلي »، دراسة وتحقيق وفهرسة محمد الحبيب هيلة (٧) أجزاء (٤٠٠٠) صفحة، دار الغرب الإسلامي، بيروت (٢٠٠٢م).

(٦) إعطاؤُهمْ سهمًا أي: نَصيبًا من الخَير والصَّدقة عَلى سَبيل الإحسانِ والمُكارَمَة.

المَسرَّةُ مِن مُباحِ اللَّهوِ المُرَخَّصِ في مِثْلِهِ بنَصِّ السنَّةِ(١).

١٢ - وشاعَ ذلك في بلادِ المَغْرِبِ والأندلُسِ. ولمَّا رَحَلَ العَلَّامَةُ أبو الخَطَّابِ عُمرُ، المَعروفُ بابنِ دِحيَةَ البَلَنْسِيِّ، الأنْدَلُسِيِّ، المالِكِيِّ(٢)، رِحْلَتَهُ الشَّهيرةَ إلى المَشرِقِ، أوَّلَ القَرْنِ السَّابِعِ، واتَّصلَ بالمَلكِ الجَليل، مُظَفَّر الدِّين، أبي سَعيد كَوْكَبُوري(٣)، بنِ زَين الدين، كوجَك عَلِيٍّ، صاحِب إرْبِلَ(٤)، حَسَّنَ الشيخُ للمَلِكِ التسنُّنَ بهذا السَّنَنِ، فَرَغِبَت هِمَّتهُ في الاتِّسام بمَيْسَم أفاضِلِ الزَّمَن، لذلك أقامَ في سَنَةِ ستٍّ وستمائةٍ(٥) حفلًا عَظيمًا، وأنْشأَ لَهُ ابنُ دَحْيَةَ كتابًا سمَّاهُ: التَّنويرُ بِمَوْلِدِ السِّراجِ المُنير(٦)؛ لِيُقْرَأَ في ذلكَ اليَومِ، وجَعَلَ

---

(١) ربَّما يشير المؤلفُ إلى الحديث التالي: « عَن عروة عن عائشة ﵂ قالت: وكان يوم عيدٍ، يَلعب السودان بالدَّرَقِ والحِراب، فإمَّا سألتُ النَّبي ﷺ، وإمَّا قال ﷺ: « تَشتَهِينَ تَنظرينَ ؟ » فقلت: نَعَم. فَأقامَني وَرَاءه، خَدِّي على خدِّهِ، وهو يقول: « دونَكُم يا بَني أرْفَدَةَ »، حتَّى مَللتُ، قالَ: « حَسبكِ؟ » قلت: نَعم، فَقال: « فَاذهبي »، صَحيح البُخاري (٢/ ٢٠) كتاب العيدين، باب الحِراب والدرق يوم العيد، و (٤/ ٤٧) كتاب الجهاد، باب الدَّرَق.

(٢) ابن دِحيَةَ الكلبي (٥٤٤ - ٦٣٣هـ) هو أبو الخطاب، عمر بن الحسن بن علي... بن دحية بن فروة الكلبي، المعروف بذي النَّسَبَيْن الأندلسي البلنسي الحافظ. وهو أديبٌ، مُؤَرِّخٌ، حافظٌ للحديث، من أهل سبتة بالأندلس، وَلِيَ قضاءَ دانية، ورَحلَ إلَى مَرَّاكشَ والشام والعراق وخراسان، واستقرَّ بمصر. من تآليفه: الابتهاج في أحاديث المعراج، أداء ما وجبَ من بيان وضع الوضَّاعين في رجب، الارتقاء إلى أفضل الرُّقى، الإرشاد في الحض على طلب الرواية والإسناد، تاريخ الأمم في أنساب العرب والعجم، التحقيق في مناقب أبي بكر الصديق ﵁، تنبيه البصائر في أسماء أم الكبائر، المطرب من أشعار أهل المغرب، نهاية السول في خصائص الرسول، التنوير في مولد السراج المنير. الزِّركلي، الأعلام (٥/ ٤٤).

(٣) مُظَفَّر الدّين أبو سَعيدٍ كوكبوري بن زَين الدّين علي بن بَكتَكين بن محمد (١١٥٣ - ١٢٣٢م) حاكم إربل في عهد صلاح الدين الأيوبي. دَخل تحت إمرة هذا الأخير دونَ حربٍ. شارَكَ مُظفَّرُ الدين في معظم الحروب التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين بدءًا من فتح حصن الكرك سَنة (١١٨٤م)، كما تَوَلَّى قيادَة جيوش المَوصِل والجَزيرَة في معركة حطّين. وقد أوصى ببلاده إلى الخليفة العباسي المستنصر إذ لم يكن له وَرَثةٌ.

(٤) إربيل أو إربل، مَركز محافظة أربيل وعاصمة إقليم كردستان العراق. وهيَ رابِع مَدينَة من حيث المساحَة في العراق، تَبعد عن بغداد حواليْ (٣٦٠) كيلومترًا. ومعظم سكان المدينة حاليًّا من الأكراد بالإضافة إلى أقليّات أخرى.

(٥) الموافق لسنة (١٢٠٩م).

(٦) قال المؤرخ ابن كثير: « كانَ ابنُ دحيَةَ من أعيان العلماء ومَشاهير الفضلاء، مُتقنًا لعلم الحديث وما يَتَعَلَّق به، عارفًا بالنَّحو واللّغة وأيامِ العَرَبِ وأشعارها. اشتغلَ ببلاد المغرب ثم رحل إلى الشام، ثم إلى العراق واجتاز بإربِلَ سنة أربع وستمائة، فَوجَدَ مَلكهَا الـمُعظَّمَ مُظفر الدين بن زين الدين يعتني بالـمَولد النَّبَوِيِّ، فَعَمل له كتابَ (التنوير في مولد السراج المنير) وقرأه عليه بنفسه، فأجازه بألف دينار. قال: وقد سمعناه على الملك المعظم في ستَّة مَجالسَ في سنة ست وعشرين وستمائة، قلت: وقد وَقَفتُ عَلى هذا الكتاب وكَتَبتُ منه أشياء حسنة مفيدة. ابن كثير، البِدايَة والنهاية (١٣ / ١٤٤، ١٤٥)، الطَّبعة (٢) سنة (١٩٧٧م) مكتبة المعارف - بَيروت. انظر تفاصيل هذه القصة، الفاضل ابن عاشور، التي نقلها عن ابن خلكان: وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: كَيف نَشَأ احتفالُ الـمَوْلِد في بِلاد=

يُعيدُ قراءَتَهُ كُلَّ عام، تارَةً في اليَوم الثاني، وتارةً في اليَومِ الثاني عَشَرَ من رَبيعِ الأوَّل. فَهو أوَّلُ المُلوكِ، نَظَمَ هذَا الاحتفالَ في سِلْكِ رُسُومِ دَولَتِهِ.

١٣ - وأوَّلُ مَنْ سَلَكَ هَذَا المَسلَكَ من مُلوكِ المَغرِبِ، السُّلْطانُ أبو عنانٍ المَرينيّ[١]. ونَحا ذلكَ النَّحو السلطانُ الجليلُ أبو فارسٍ عبدُ العَزيز بنُ أحمدَ الحَفصيُّ[٢]، سُلْطانُ تونسَ، وعَيَّنَ لذلكَ لَيلةَ اثنَتَيْ عَشْرَةَ من ربيعِ الأوَّل. فَكَمْ أغْدقَ في تلكَ الليالي من خَيراتٍ، وأجْرَى مِنْ عَوائِدَ وصِلاتٍ[٣].

١٤ - ثمّ لَحِقَت بهذهِ الإيالَةِ شَدائدُ ومِحَنٌ، وانْطَوى مِن بَهْجَة الدَّولَةِ الحَفْصِيَّةِ ذَلكَ البِسَاطُ الحَسنُ، فَلَمْ يَبْقَ مِن تلكَ الرُّسوم، إلّا مَا يَنْبَعِثُ عَنْ أرْيَحيَّة أهْلِ الطَّرِيقِ، أوْ أصْحابِ العُلوم. حتَّى قَيَّضَ اللَّهُ لِتَجديدِ ما رَثَّ مِنْها، وتَلْقِيم ما ذَوَى مِن شَجَرتِها وتَفرَّعَ مِنها، الأميرَ السَّاميَ الهِمَّةِ، الرَّامِي إلَى مَعالِي الأُمورِ عَن قَوْسٍ أرَاشَ سَهْمَهُ[٤]، الفائزَ بِتَعْظِيمِ قَدرِ المُصْطَفى، المُشيرَ الأوَّلَ أحْمَد بَاشا، ابْن المُصطَفى[٥]، نَوَّرَ اللَّهُ مَقَرَّ

=الإسلام؟ المَجَلَّة الزيتونية (عدد ٩) سنة (١٣٥٦ هـ) (١/ ٤٦٣).

(١) أبو عنان، فارِس بن علي، ولدَ بفاس سنة (١٣٢٩م). وهو حاكم مَرينيّ. وقد خَلَفَ والدَه أبا الحسن علي ابن عثمان كسلطان للمغرب سنة (١٣٤٨م). قتله وزيره خَنقًا سنة (١٣٥٨م). اتَّخذ له لقب أمير المؤمنين وبنى مدرسة مِكناس سنة (١٣٥٠م). كان أبو عنان من المولعين ببناء الزوايا، حيث اشتهر عصره بكثرتها وما تزالُ آثارها باقية إلى الآن في المغرب. ابن الخطيب، رَقْمُ الحُلَل في نَظْمِ الدُّوَل (ص ٨٤) المطبعة العمومية، تونس (١٣١٦م).

(٢) أبو فارس عَبد العزيز المَلقّب بـالمتوكل على اللّه، وُلِدَ بالقُسنطينة (الجزائر) سَنَةَ (١٣٦٢م) وهو سلطان حفصيٌّ حكم فيما بَينَ عَامَيْ (١٣٩٤م) و (١٤٣٤م). وقد اعتبره المؤرخ روبار برنشفيك من آخر كبار السلاطين الحفصيين؛ إذ كان محترمًا في الداخل ومهابًا في الخارج. وعرفت البلاد في عهده عصرًا من الازدهار. ويبدو أن ذلك كان نتيجة سياسته الداخلية التي تميزت بتوحيد البلاد، فقد قام منذ بداية عهده بِتَعيين ضُبَّاطٍ من المَوالي على رأس المدن الكبرى، ثم قضى عَلى جيوب الثورة على السلطة المركزية ببعض مدن الجنوب التونسي، وقد تم له ذلك فيما بين عامي (١٣٩٧ - ١٤٠٢م). وقد أولى أبو فارس عزوز اهتمامًا خاصًّا بكل ما يتعلق بالدين، من خلال اهتمامه بعلماء الدين وبالأشراف، كما ركز الاحتفال بالمولد النبوي، وأقام عددًا من المنشآت الدينية والاجتماعية. روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن (١٣) إلى نهاية القرن (١٥)، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٩٨٨م) (١/ ٢٤١ - ٢٦٩).

(٣) انظر تفاصيل الاحتفال بالمولد النبويّ في تونس خلال عَصر البايات في المقال المُمْتِع الذي كَتَبَه المُؤرِّخ التونسي محمد ابن الخوجة وعَنْونَه: مُرور مائة عام على تأسيس حفلة مَولديَّةٍ رسمية بتونس. صَدَرَ هذا البحث النَّفيس بنفس العدد الخاص بالمولد في المجلة الزيتونية (عدد ٩) سنة (١٣٥٦ هـ/ ١٩٢٩م) (١/ ٤٦٧ - ٤٧٣).

(٤) أراش السهم : ألزقَ عليه الريش. ابن منظور، لسان العرب (ر . ي . ش).

(٥) أحمد باي بن مصطفى أو أحمد باشا باي أبو العباس أحمد باشا هو ابن مصطفى باي، وقد تولى الحكم فيما بين (١٠ أكتوبر ١٨٣٧م - ٣٠ مايو ١٨٥٥م) وهو عاشر البايات الحسَيْنِيِّين بتونس. شهر بزيارته إلى باريس مع=

رُوحِه بِنورٍ ما لَهُ انْطِفا[١].

١٥ - فَأمَرَ بإقامَة حَفَلاتٍ لِلَيلَةِ المَوْلد ويَومِهِ، بِحاضِرَة تونسَ، ومَدينَةِ القَيرَوان، وأجْرَى لذلكَ النَّفَقاتِ، ما فيهِ وفاءٌ بالإحْسان، وأمَرَ بإطْلاقِ المَدافِعِ الحَرْبيّة من القِلاعِ، بنِيَّةِ التَّسليم عَلى أفْضَلِ الرُّسلِ، عَلَى صفةِ أعْظَمِ تَحيَّةٍ للملوكِ في اصْطِلاح الدُّولِ.

١٦ - وكَتَبَ له العَلَّامةُ، شيخُ الإسْلامِ، أبو إسحاقٍ إبراهيمُ الرِّياحيُّ[٢]، في ذِكْرِ المَولدِ مُختَصَرًا مِن مَولِدِ المُقَدَّسِ الشَّيخ مُصطَفَى البَكْريِّ المِصْريِّ[٣].

١٧ - وَجاءَ مِن بَعدِهِ الأميرُ الجليلُ، الخائضُ لِغَمَراتِ العُلا بِعَزْمٍ صارمٍ صقيلٍ، والذي كان لِأعمالِ ابنِ عمِّهِ خَيرَ ناسقٍ، المُشيرُ الثالثُ، مُحمَّدٌ الصَّادق[٤].

١٨ - فَأَمَرَ بِتَعميمِ الاحتفال بالمَولِدِ في جَميع مُدُنِ الإيالَةِ[٥]، وأجْرَى لَها مِن مالِ

= أحمد ابن أبي الضياف سنة (١٨٤٦م) وبتأثره بملوك فرنسا. ويروي هذا المؤرخ التونسي أخبار تعلقه بالنبيّ ﷺ. انظر: ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (٤ / ٥٣-٥٤) . طبعة وزارة الثقافة (١٩٩٩م).

(١) حُذفَت الهمزة هنا مراعاةً للقَصْر.

(٢) الشيخ إبراهيمُ بن عبد القادر بن أحمد الرياحي التونسي. ولدَ سنة (١٧٦٦م) في تَستور ونشأ وتوفِّي في مدينة تونس، ووَلِيَ رئاسةَ الفتوى فيها. تَـخَرَّج على أيدي العلماء مثل: صالح الكواش ومحمد الفاسي وعمر المحجوب وحَسن الشَّريف وإسماعيل التميمي. ولَم يَلبث أن تَرَقَّى في سلَّم الـمَعارف إلَى أن جَمع بَيـنَ الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة ورئاسة الفتوى. تَولَّى التدريسَ في الزَّيتونة وجامعِ صاحب الطابع. اعتنى الشيخ إبراهيم الرياحي بتدريس تفسير البيضاوي وشرح القسطلاني على صحيح البخاري، ومُختَصر خليل في الفقه المالكي، فأقبل على دروسه العدد الكبير من طلبة العلم. تَركَ عدَّةَ فَتاوى مُحَرَّرَة، وخُطبًا جُمعِيَّة، ولَه حواشٍ كتبها في النحو والعَروض. كما كان مِن بين من رَدَّ عَلى رسالة محمد بن عبد الوهاب التي وَجَّهَهَا إلى باي تونس. لَهُ ديوانُ شعرٍ تولَّى تَحقيقَه وإخراجَه كلٌّ من الأستاذ محمد اليعلاوي والأستاذ حمادي الساحلي. وجمعت رسائله وخطبه في كتاب سمِّيَ: « تعطير النواحي بترجمة الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي ». أَلَّفَ أيضًا قصَّةً لإحياء ذكرى الـمَولد النبويّ. محمد بن عثمان السنوسي، مُسامَرات الظريف (١ / ٤٠) تحقيق الشاذلي النيفر.

(٣) صاحب كتاب « الـمَورِدُ الرَّوِيُّ في الـمَولد النَّبَويِّ » وهو قطب الدين مصطفى البكري الـخَلْوَتـيّ، الدمشقيّ، الشهير بالقطب البكري المتوفَّى (١١٦٢هـ).

(٤) محمد الصادق باي (١٨١٣م - ١٨٨٢م)، باي تونس الثاني عشر، تولى منصبه سنة (١٨٥٩م) إلى حين وفاته. برز خلال حكمه عهد الأمان الذي ينصُّ على تحقيق العدل بين الرعية، ويؤكد حقوق الأجانب في المملكة وهو ما سيسمَح لهم بالتدخل في الحياة السياسية. كما أصدر خلال عهده أول دستور تونسي بدأ العمل به يوم (٢٦) أبريل (١٨٦١م). وينصّ هذا الدستور على تنظيم الحياة السياسية والفصل بين السلط الثلاثِ والـحَدِّ من سلطة الباي. ولكن وقع إلغاؤه سنة (١٨٦٤م) إثر ثورة علي بن غذاهم.

(٥) أي: الولاية؛ لأن تونس كانت آنذاك ولاية عثمانيةً تابعةً للصدر الأعظم في إسطنبول.

الدَّولةِ عَطايَا فيها كِفايَةٌ وفَضالَة، فَهِيَ إلى اليَوم صَدَقَةٌ جارِيَةٌ مِن مَنْبَعِ عَيْنِ الحُكومَة، مُخَلِّدَةً بها مآثِرَ في المَحاسِنِ لَه مَعلومَةً، وتَـرَكَهَا سُنَّـةً باقيةً فيمَن بَعدَهُ، فَتَلاحَقوا في الوَفَاءِ بِحَقِّهَا، وشَدُّوا عَقْدَهُ[1].

١٩ - وكَمْ مِن لُطْفٍ خَفِيٍّ حَفَّ بِهَذِه البلادِ، لَعَلَّه مِن بَركاتِ هذا الاعْتِناء. قَال ابنُ الجَوزيّ [2]:

« مِمَّا جُرِّبَ مِن بَـرَكَةِ رَسول اللَّهِ ﷺ، أنَّ الاحتفالَ يَومَ مَولِدِهِ أمانٌ في ذلكَ العامِ، وبُشْرَى لِمَن فَعَلَهُ بِنَـيْلِ المَرامِ »[3].

* * *
* *
*

---

(١) مُعظَمُ مَوادّ هذا الفصل مأخوذَةٌ من بَحثٍ تاريخي مُطوّلٍ، قامَ به نَجل الشيخ ابن عاشور، الشيخ الفاضل ابن عاشور، وعَنْوَنَه: كَيف نَشَأَ احتفالُ المَولد في بلاد الإسلام؟ وقد صدَر هذا البحث بنفس العدد الخاص بالمولد في المجلة الزيتونية، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م) (١/ ٤٦٢ - ٤٦٦).

(٢) ابنُ الجَوزيّ: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكريّ (١١١٦ - ١٢٠١م) وهو فقيهٌ حنبليٌّ، مُحدِّثٌ ومؤرخ ومتكلِّمٌ؛ ولدَ وتوفي في بغداد. حَظي بشهرة واسعة، في الخطابة والوعظ والتصنيف. انظر: شذرات الذهب في أخبار مَن ذَهَبَ، لأبي الفتح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) لم نَعثُرْ على هذا النصّ في تآليف ابن الجوزي. ولعل هذا النصَّ مَوجودٌ في قصة المولد التي أشار إليها الباحث محمد عبد الحيّ الكتاني بقوله: « وجدت على ظهر مولدٍ مطبوعٍ بالمكتبة الإنسية ببيروت عام (١٣٣٠هـ) عنوانه مولد الجوزي الشهير بالعروسي وهي الطبعة الثالثة أوله: الحمد للّه الذي أبرز من عنده عروس الحضرة صبحًا منيرًا... » المجلة الزيتونية، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦ هـ/ ١٩٢٩م) (١/ ٤٨٠).

نسب رسول اللّه ﷺ [١]

٢٠ - هو مُحَمَّد بنُ عبدِ اللَّه[٢] بنِ عَبد المُطَّلبِ[٣] بنِ هاشِمِ[٤] بنِ عبدِ مَنافِ[٥] ابنِ قُصَيٍّ[٦] بنِ حَكيمٍ[٧] (ويُلَقَّبُ: كِلابًا)، ابنِ مُرَّةَ[٨] بنِ كَعْبٍ [٩]، ....

---

(١) وَرَدَ هذا الفصلُ بشكلٍ مُفَصَّلٍ في مَقالٍ لابن عاشور، صدرَ في المَجَلَّة الزيتونيّة (عدد ٩) (سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م) (ص ٤١٦ - ٤٢٤). عنوانه: نَسَبُ الرَّسولِ ﷺ.

(٢) عَبد اللَّـه بن عبد المطّلب (٥٤٤ - ٥٧١م)، هو والدُ النبي، كان يُكنَى: أبو قُثَم، وأبو أحمد. ذَكر الطبري في تاريخه: « كانَ عَبدُ اللَّـهِ، أبو رسول اللّـه، أصغر وُلْدِ أبيه، وكان عبد اللّـه والزبير وعبد مناف - وهو أبو طالب - بنو عَبد المطلب لأمٍّ واحدةٍ، هذا في رواية ابن إسحاق ». ورَوى هِشام بن محمد عن أبيه أنه قال: « عَبد اللّـه بن عبد المطلب، أبو رسول اللّـه، وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير وعَبد الكعبة وعاتكة وبَرَّة وأميمة ولد عبد المطلب إخوة ». ابن سعد، الطبقات الكبرى (١ / ٩٤ - ٩٧)، دار صادر، بيروت.

(٣) « وأما جَدُّهُ عَبْد المُطَّلِب، فاسمُهُ عامر في قول ابن قتيبةَ، وشَيبَةُ في قَول ابن إسحاق وغيره وهو الصحيح. وقيل: سُمِّيَ شَيبَةَ؛ لأنَّه ولد وفي رأسه شيبةٌ. وأما غيره من العرب ممن اسمه شيبة فإنما قُصد في تسميتهم بهذا الاسم التفاؤل لهم ببلوغ سنِّ الحنكة كما سمّوا بـ (هَرَم وكَبير). عاشَ عبد المطلب مائة وأربعين سنة، وكان لِدَةَ عَبيد بن الأبرص الشاعر، غير أن عبيدًا مات قبله بعشرين سنة ». السُّهيليّ، الرَّوضُ الأُنُف (١ / ٧).

(٤) هاشم هو عَمرو العُلا « وهو اسم منقول من أحد أربعة أشياء من العَمْر الذي هو العُمْر أو العَمْر الذي هو من عُمُور الأسنان، وقاله القتبي، أو العَمر الذي هو طرف الكُمِّ، يقال: سَجَدَ على عمريه أي على كُمّيه، أو العَمْر الذي هو القرط (...) وزاد أبو حنيفة وجهًا خامسًا، فقال في العُمر الذي هو اسم لنخل السكر ويقال فيه عَمْرٌ أيضًا، قال: يَجوز أن يكون أحد الوجوه التي بها سمي الرجل عَمْرًا »، وهاشم بن عبد مناف هو الجد الثاني للنبي. ارتفعَ شأنه بَعد أبيه، وإليه يُنسب الهاشميون. وهو أول من سَنَّ رِحْلَتَي الشتاء والصيف لقريش. وأول من أطعم الثريد بمكة. قال ابن إسحاق: « اسمه كان عمرو وإن تسميته هاشمًا كانت لـهَشمه الخبز لعمل الثريد بمكة لقومه سَنَة المجاعة. كان هاشمٌ موسرًا غَنيًّا، ويعمل بالتجارة، وكان يتولى أمورَ السقاية والرفادة. تُوفي بغزة عند بني عم قبيلة قريش، وقبره معروف هناك بمسجد السيد هاشم ». السهيلي، الروض الأنف (١ / ٧).

(٥) عَبد مَنافٍ، اسمُه: الـمُغيرة بن قُصيٍّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، سيرة ابن هشام.

(٦) قصيُّ بن كلاب بن مُرَّة (٤٠٠ - ٤٨٠م) هو الجَدُّ الثاني لشيبة بن هاشم، المشهور باسم عبد المطلب، وهو الجد الرابع للنبي ﷺ. حَصَل على نفوذٍ واسعٍ في مكةَ. ويُعتَبر أشهر سيِّدٍ في قريش في الجاهلية. حيث إنَّه انتصر لقريش على باقي قبائل كنانة وخزاعَةَ حينما أخرجهم من مكة، وجَعل سُكنى مَكةَ خاصَّةً بقريش.

(٧) كِلاب بن مُرَّة، أبو زَهرة، هو الجدُّ الخامس للنبيّ ﷺ. كانَ يَسكن قريبًا من مكة مع بني كنانة، وذلك قبل أن يستولي ابنه قصي على مكة.

(٨) مُرَّة بن كعبِ بن لؤي بن غالبِ بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضرَ ابن نزار بن مَعَدّ بن عدنان.

(٩) كَعب بن لؤي، الجد السابع للنبي ﷺ، كان سيد قبيلة كنانة. وقيل: إنَّه أول مَن سَمَّى يَومَ الجمعة بهذا الاسم. =

ابنِ لُؤَيٍّ[١] بنِ غالبِ[٢] بنِ فهرٍ، (وهوَ قُرَيش)[٣]، ابنِ مالكِ[٤] بنِ النَّضرِ[٥]، بنِ كِنَانَةَ[٦]، ابنِ خُزيمَةَ[٧] بنِ مُدركَةَ[٨] بنِ إلْياس[٩] بنِ مُضَرَ[١٠] بنِ نزارٍ، (واسْمه خَلدان) ابنِ مَعَدٍّ[١١]، ابنِ عَدنَانَ[١٢].

ولَم يَثْبُتْ - بِالتَّحقيق - مَا فَوقَ عَدْنانَ.

٢١ - رَوَى ابنُ عَبَّاسٍ[١٣] أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، رَفَعَ نَسَبَهُ إلَى عَدْنانَ، ثُمَّ قَالَ: « كَذَبَ النَّسَّابونَ »، مَرَّتَيْنِ أو ثَلاثًا[١٤].

= وكان يُكْنَى أبا هَصيص.

(١) لؤي بن غالبِ بن فهرِ بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

(٢) غالب بن فهرِ بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

(٣) فهرُ بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ذَكر بعض المؤرخين أنّه قريش ولكنّ أغلبيتهم أنكروا ذلكَ، وذكروا أن قريشًا الذي تنتسب له قبيلة هو جده النضر بن كنانة. ولهذا عَدَّه بعض المؤرخين بقريش الأوسط باعتبار أنَّ النَّضر بن كنانة هو قريش الأكبر، وقصي بن كلاب هو قريش الأصغر. قالَ الطبريُّ في تاريخه: « وكانَ فهرٌ في زَمانِهِ رَئيسَ الناس بمكة ».

(٤) مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

(٥) النَّضر بنُ كنانَة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وهو نفسه قريش عندَ كثيرٍ من النسابين.

(٦) كنانَة بن خزيمة بن مدركة، الجد الثالثَ عَشَرَ للنبي ﷺ. وإلَيه تُنسب قَبيلة كنانة.

(٧) خُزَيمة بن مُدركة، الجَدُّ الرابعَ عشَر للنبي ﷺ، ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

(٨) مُدركَة بن إلياس، الجد الخامسَ عَشَرَ للنبي ﷺ، يُكْنَى بأبي هذيل أو أبي خُزيمَةَ.

(٩) إلياس بن مُضَر، الجدُّ السادسَ عَشَرَ للنَّبي ﷺ، زَوج خندف، جَدَّة القبائل الخندفية.

(١٠) مُضَر، الجدُّ السابعَ عشرَ للنبي ﷺ، وكان يكنى بابنه إلياس، وكان يقال له: مُضَر الحمراء، أحدُ الشِّعْبَيْن الرئيسَين اللذَيْن تنقسم إليهما القبائل العربية العدنانية، إلى جانب ربيعة ويُطلق عليهم اسم المضريين.

(١١) نزارُ بن مَعَدٍّ، الجدّ الثامنَ عَشر للنبي ﷺ. قَال الطبريّ: قيلَ: إنَّ نزارًا كان يُكَنّى أبا إيادٍ، وقيل: بل كان يكنى أبا ربيعة.

(١٢) إلَيهِ يَرجع العَرب، لذلكَ يُقال لهم: العَربُ العدنانيَّة.

(١٣) عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم النبي محمد ﷺ، صحابي جليل، شُهرَ بألقاب عديدة منها: حَبْرُ الأمة، وفَقيهها، وإمام التفسير وترجمان القرآن... وُلدَ ببني هاشم قبلَ الهِجرة بثلاثِ سنينَ. وكان النبي ﷺ يُدنيهِ منه وهو طفلٌ ويربّت على كتفه قائلًا: « **اللهمَّ فَقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل** » [أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٩٧) بترقيم الشيخ شاكر وزين رحمه اللّه، والطبراني في الكبير (١٠٦١٤)].

(١٤) هناك اتِّفاقٌ أنَّ النَسبَ النبوي يتوقّف عندَ عَدنانَ. وفيما بعدَ عدنان إلى إسماعيل، فيه خلافٌ كثيرٌ، ومَنَعَ بَعضهم الرفع في النسب على عدنان تمسكًا بأنه ليس فيما وراء عدنان إلى آدم طريق صحيحٌ كما صرَّح به النووي. قال القضاعي في عيون المعارف في أخبار الخلائف: وقد روي أن النبي ﷺ قال: « **لا تجاوزوا معد بن عدنان، كَذَبَ النسابون** » ثم قرأ: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨] « **ولو شاء أن يعلمه علمه** ». وذكر التوزَرِي الخطابي في شرح =

٢٢ - وفي رِوايةٍ أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ، زَادَ فَذَكرَ: عَدْنانَ بنَ أُدَدٍ[١].

واتَّفقَ أهلُ الأنْسابِ عَلى أنَّ عَدْنانَ مِن عَقِبِ إسماعيلَ[٢] بنِ إبْراهيمَ الخَليل[٣]. وثَبتَ ذلكَ بِنصِّ القرآنِ؛ إذ جَعَلَ العَرَبَ أبناءَ إبراهيمَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ

= الشقراطيسية: أنه ﷺ كرَّر: « كذب النسابون ». مرتين أو ثلاثًا قال: والصحيح أنه قول ابن مسعود. ويروى عن عمر ابن الخطاب ﷺ أنه قال: « إنما ننسب إلى عدنان، وما فوق ذلك لا ندري ما هو »، وعن عروة بن الزبير ﷺ، أنه قال: « ما وجدنا أحدًا يعرف ما فوق عدنان وإسماعيل إلا تخرصًا ». ويُحكى عن مالك بن أنس ﷺ أنه سئل عن الرجل برفع نسبه إلى آدم ﷺ، فكره ذلك. فقيل له: فإلى إسماعيل: فأنكر ذلك. وقال: ومن يخبر به!. والذي عليه البخاري وغيره من العلماء موافقة ابن إسحاق على رفع النسب. أما ما يتفرع عن الأنساب عن عمود النسب النبوي فلا خفاء. انظر: نهاية الأرب للقلقشندي .

(١) قالَ ابن عساكر: « (...) عن ابن إسحاق، قَال: رسول اللّه ﷺ، محمد بن عبد اللّه، بن عبد المطلب، بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدي بن أدد، وليس في رواية يونس عن ابن إسحاق ابنُ أدد، قال: ابن عدنان بن أدد. زاد يونس عن ابن إسحاق بعد أدد ابنَ المقوم بن ناخور بن ثارح بن يعرب...»، تاريخ مدينة دمشق (٣/ ٥٥).

(٢) تَرْجَمَ الشيخ ابن عاشور في تفسيره لإسماعيل فَكَتبَ: « وإسماعيلُ اسمُ الابن البِكرِ لإبراهيم - عليهما السلام - وهو وَلَدُه من جاريته هَاجَرَ القِبطيَّة، وُلدَ في أرض الكنعانيين، بين قادش وبارد سنة (١٩١٠ق.م) عشر وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح. ومعنى إسماعيل بالعِبريَّة سَمعُ اللّه أي: إجابَة اللّه؛ لأنَّ اللّهَ استجابَ دعاءَ أمِّهِ هَاجَرَ؛ إذ خَرجت حاملًا بإسماعيل مفارقة الموضع الذي فيه سارة مَولاتها حين حدث لسارة من الغيرة من هاجر لما حملت هاجر. ولم يكن لسارة أبناء يومئذ، وقيل: هو معرب عن يَشمَعيل بالعبرانية، ومعناه: الذي يسمع له اللّه. ولما كَبُرَ إسماعيل رأى إبراهيمُ رؤيا وحي أن يذبحه فَعزَمَ على ذبحه ففداه اللّه، وإسماعيل يومئذ الابن الوحيد لإبراهيم قبل ولادة إسحاق، وكان إسماعيل مقيمًا بمكة حول الكعبة، وتوفي بمكة سنة (١٧٧٣ق.م) ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف قبل ميلاد المسيح تقريبًا، ودفن بالحجر الذي حول الكعبة ». التحرير والتنوير (١/ ٧١٩).

(٣) كما تَرْجَمَ الشيخُ ابنُ عاشور، لإبراهيم قائِلًا: « إبراهيم اسمُ الرسول العظيم، المُلقَّب بالخَليل وهو إبراهيم ابن تارح (وتسمي العرب تَارحَ آزَرَ) ابن نَاحور بن سروج بن رَعْو، بن فالح، بنِ عابر، بنِ شالح، بنِ أرفكشاد، بن سام بن نوح، هكذا تقول التوراة. ومَعنى إبراهيمَ في لغة الكلدانيين: أبٌ رَحيمٌ أو أبٌ راحم. قَاله السهيلي وابن عطية. وفي التوراة: أن اسم إبراهيم إبرام، وأن اللّه لما أوحى إليه وكلّمه أمره أن يُسَمَّى إبراهيم؛ لأنَّه يَجعله أبًا لجمهور من الأمم، فَمعنَى إبراهيمَ - على هذا - أبو أمم كثيرة. ولدَ في أور الكلدانيين سنة (١٩٩٦ق.م) ست وتسعين وتسعمائة وألف قبل ميلاد المسيح، ثم انتقل به والده إلى أرض كنعان (وهي أرض الفنيقيين) فأقاموا بحاران (هي حوران)، ثم خَرجَ منها لقحط أصابَ حارانَ فَدخلَ مصرَ، وزوجه سارة، وهنالك رامَ ملك مصر افتكاك سارة، فرَأى آيَةً صرفته عن مرامه، فأكرمَهَا وأهداها جاريةً مصريةً اسمها هاجَر وهي أمّ وَلَده إسماعيل، وسماه اللّه بعد ذلك إبراهيم، وأسكن ابنه إسماعيلَ وأمَّه هَاجَرَ بوادي مكةَ، ثمَّ لـمَّا شبَّ إسماعيل بَنى إبراهيم البيت الحرامَ هنالك. وتوفي إبراهيم سَنةَ (١٧٧٣ق.م) ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف قبل ميلاد المسيح ». التحرير والتنوير (١/ ٧٠١، ٧٠٢).

سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨][١].

٢٣ - وفي أعْلام النُّبوءَة [٢]: أنَّ نِزارًا كانَ - في زَمنِ يَسْتَاسِبَ، مَلكِ الفُرْسِ [٣]- رهينَةً عَنْ عَربِ مَكَّةَ[٤]، على عادَةِ الأمَمِ يَومئذٍ في إعطائِهم أشرافَ قَومِهمْ رهائنَ عندَ الملوكِ الغالبينَ، وأنَّ الملكَ يَستاسبَ لَقَّبَه نِزارًا، وتَفسيره باللّغَةِ القَديمَةِ الفَهْلَوِيَّةِ [٥]: يا مَهزولُ؛ لأنَّهُ كان نَحيفًا.

٢٤ - وكانَ مَعَدًّا أيضًا قد بَقِيَ مدَّةً رَهينَةً عندَ بُخْتَنصَّرَ[٦] مَلكِ بابِلَ[٧]، بعد أن حارَبَ

---

(١) يقول الشيخ في تفسيره: « والمِلّة: الدين والشريعة ». وقوله: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨] زيادة في التنويه بهذا الدّين وتحضيض على الأخذ به بأنه اختص بأنه دين جاء به رسولان إبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - وهذا لم يستتب لدين آخر، وهو معنى قول النبي ﷺ: « أنا دعوة أبي إبراهيم » أي: بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وإذ قد كان هذا هو المقصود فمحمل الكلام أنّ هذا الدّين دين إبراهيم، أي أنّ الإسلام احتوى على دين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ومعلوم أن للإسلام أحكامًا كثيرة ولكنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى من دين إبراهيم، جعل كأنه عين ملّة إبراهيم، فعلى هذا الاعتبار يكون انتصاب ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ على الحال من « الدّين » باعتبار أن الإسلام حوى ملّة إبراهيم. ثم إن كان الخطاب موجّهًا إلى الذين صحبوا النبي ﷺ فإضافة أبوة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمة؛ لأنّ غالب الأمة يومئذ من العرب المُضَرية، وأمّا الأنصار فإن نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لأنّهم من العرب القحطانيين؛ على أن أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قِبل الأمهات. وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أبوة إبراهيم لهم على معنى التشبيه في الحُرمة واستحقاق التعظيم كقوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولأنه أبو النبي محمد ﷺ، ومحمد له مقام الأبوة للمسلمين، وقد قرئ قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ بزيادة وهو أبوهم. ويجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ على طريقة التعظيم كأنه قال: « ملّة أبيك إبراهيم ». التحرير والتنوير (١٧ / ٣٥٠).

(٢) لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ).

(٣) ذكره ابن خلدون: « وقال الطبري: ويقال له الرائد وكان على عهد يستاسب وحافده أردشير يمن ابن ابنه إسفنديار من ملوك الفرس وأنه شخص من اليمن غازيًا.... ».

(٤) مكة بها مولد النبي ﷺ وفيها المسجد الحرام والكعبة، قبلة المسلمين. تَقع غرب السعودية، وتبعد عن المدينة حوالي (٤٠٠) كيلومتر في الاتجاه الجنوبي الغربي، وعن الطائف حوالي (١٢٠) كيلومترًا في اتّجاه الشرق.

(٥) اللغة الفَهلَوِيّة أو البهلوية هي الفارسية الوسطى، تَطوَّرت عبر عهود مديدة. فاللغة الفهلوية الأشكانية استخدمت في عهد سلالة الأشكانيين من القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن الثاني بعد الميلاد. ثم سادت اللغة الفهلوية الساسانية في عهد الحكم الساساني من أوائل القرن الثالث الميلادي حتى سنة (٦٥١) ميلادي.

(٦) بختنصر الكلدي (٦٠٥ - ٥٦٣ ق.م) أشهر ملوك الدولة البابلية، قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة على منطقة بلاد الشام ودمَّرَ عدة ممالك في حملتَين، وسبى الكثيرين من سكان بلاد الشام، وبنى الحدائق المعلقة التي تعد من عجائب الدنيا.

(٧) عاصمة البابليين أيامَ حكم حمورابي حَيث كانَ البابليون يَحكمون أقاليم ما بين النهرين، وحكمت سلالة البابليين الأولى تحت حكم حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م)، في معظم مقاطعات ما بين النهرين، وأصبحت بابل=

بِلادَ العَرَبِ، وما رَجَعَ مَعَدٌّ إلى قَومِهِ إلَّا بَعدَ هَلاكِ بُخْتَنَصَّرَ[١].

٢٥ – وأمُّ رَسولِ اللّهِ ﷺ، آمنةُ بنتُ وَهْبِ[٢] بنِ عَبدِ منافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كِلابِ بنِ مُرَّةَ[٣]، فَـزَهْرَةُ أخو قُصَيٍّ، جَدِّ النَّبي ﷺ.

٢٦ – ولَيسَ لِأَبَوَيْ رَسولِ اللّهِ ولَدٌ سِوى رَسولِ اللّه ﷺ، رَمزٌ ربَّانيٌّ مُشيرٌ إلَى مَعْنَى فَذَاذَتِه[٤].

٢٧ – وتُـوُفِّيَ أبوهُ عَبدُ اللّه في مُدَّةِ الحَمْلِ بِهِ، على المَشهورِ الصَّحيحِ. وكانت وَفاتُه في يَثْرِبَ[٥] عندَ أخْوالِهِ بَني النَّجَّار[٦]. مَرِضَ في رِحْلَتِهِ إلَى يَثرِبَ. وكانَت أمُّ عَبدِ المُطَّلِبِ مِن بَني النجَّار، وهيَ سَلْمى بنتُ عَمْرٍو النَّجَّاريةِ[٧].

٢٨ – وتُوُفِّيَت آمنةُ ابنَةُ وَهبٍ وعُمْرُه ستُّ سنينَ. تُوفِّيَتْ بِمَوضِعٍ يُقالُ لَه: الأبْواءُ[٨]، بَيْنَ مَكَّةَ ويَثْرِبَ. وكانت قَدِمَت يثربَ مَعَ عَبْدِ المُطَّلِب، وأمِّ أيمنَ[٩] حاضنةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ، لِزيارَةِ أخوالِ عَبدِ المُطَّلِبِ مِن بَني النَّجَّار. وقَبْرُها بالأبْواءِ.

٢٩ – وثَبَتَ في الصحيح: أنَّ رَسول اللّهِ ﷺ زَارَ قبرَ أمِّهِ بالأبْواءِ في طَريقِهِ، في إحدى غَزَواتِهِ، وبَكى عِنْدَهُ[١٠].

=العاصمة التي تقع على نهر الفرات التي اشتهرت بحضارتها. وبلغ عدد ملوك سلالة بابل (١١) ملكًا حكموا ثلاثة قرون (١٨٩٤ ق.م – ١٥٩٤ ق. م). في هذه الفترة بلغت حضارة المملكة البابلية أوج ازدهارها وانتشرت فيها اللغة البابلية بالمنطقة كلها، حيث ارتقت العلوم والمعارف والفنون وتَوَسَّعَت التجارة لدرجة كبيرة.

(١) قيلَ: كان عُمُر نزارٍ حين الخروج به إلى بابِلَ اثنَتَي عشْرَةَ سنةً. (المصنّف).

(٢) آمنة بنت وهب الزُّهْرِيَّة القرشية هي أم النبي، ماتت وعمره (٦) سنوات، سنة (٥٧٥م).

(٣) تقدّم ذكرهم.

(٤) فذاذته: أي تَفَرُّدُه في الـحُسْن والنبوَّة والحِكمة. والفذاذة هي الفَرادَةُ.

(٥) يثرب: الاسم الأصلي للمدينة قبل هجرة الرسول إليها. سمّيت يثرب بهذا الاسم نسبة إلى يَثرب بن قاينة ابن مَهلائيل. شاع اسم يثرب قديمًا ووجد في نقوش غير عربية فظهر في جغرافية بطليموس اليوناني باسم يثربا، وفي كتاب اسطفان البيزنطي باسم يثرب. استوطَنَتْها قبيلة عبيل بقيادة يثرب التي سميت باسمه ووجدوا فيها أرضًا خصبة وشجرًا وماءً. ولكنها اكتسبت مكانتها المقدسة بعد هجرة الرسول إليها، وصارت تسمّى المدينة المنورة.

(٦) بَنو النجار أخوال عَبد اللّه، والد النبي، وهم من قبيلة الخزرج الأنصاريّة.

(٧) زَوجَة هاشم سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد النجارية الخزرجية، ولدت له: عبد المطلب والشِّفاء.

(٨) الأبواء مَركز تابع لمحافظة رابغ شمال مَكَّةَ ويَمرّ بها وادي الأبواء، وكانت في الجاهلية وصدرِ الإسلام من ديار بني ضَمرَةَ من قبيلة كنانة.

(٩) أم أيمن رضي الله عنها حاضنة الرسول ﷺ.

(١٠) عَنِ ابن عباس: كَانَ رَسُولُ اللّـه ﷺ مَعَ أُمِّهِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ، فَلَمَّا بَلَغَ سِتَّ سِنِينَ خَرَجَتْ بِهِ إِلَى أَخْوَالِهِ بَنِي=

طَهارَة النَّسب الشَّريف[1]

٣٠ - لَمَّا جَعلَ اللَّهُ تَعالى مُحَمَّدًا أفضلَ رُسُلِهِ، وقدَّرَ أنْ يَبْعَثَه بشريعةٍ هي أقومُ سُبُلِهِ، قدَّرَ لَه أكملَ الفَضائِلِ في ذاتِه وما يَتَّصلُ به، وجَعَلَ في أوَّلِ ذلكَ طهارَةَ نَسَبِهِ، حتَّى لا تُوضَعَ جَوْهَرتُهُ الفَريدَةَ في غَيرِ صَدَفِ أمْثالِهَا، ولا تُزَنُّ[2] بِنَقيصَةٍ تَلتصق بِبَدْئِها أو مَآلِهَا.

٣١ - فأظْهرَه مِن أكْرَمِ الأَصْلابِ والأَرْحامِ، إذْ لَم يَكُنْ في عَمودِ نَسَبِهِ شيءٌ ممَّا كانَ عَليه أهلُ الجاهليّةِ مِن مَجلَبةِ الشكوكِ والأوهام، لا لِأنَّ بَعضَ ما كانوا عَليهِ يُعَدُّ مِنَ الحَرام، إذ لَم يَكن لَهمْ شرعٌ تَتَمايزُ بِهِ الأفعالُ في الأحْكام؛ بَلْ لِأنَّ العُقودَ المُسمَّاةَ بالنِّكاح هي أرْفعُ مقامًا، وأبعدُ عَن أنْ تُسامَ ذَامًا، والنَّسبُ بها أوثقُ اتِّصالًا، فَقَصَرَ اللَّهُ تَسَلُّلَ[3] رَسولِه عَلى تلكَ الصِّفَةِ؛ لِئَلَّا يَكونَ في نَسَبِهِ غَضاضَةٌ، ولا مُوجِبُ انتقاصٍ في جاهليَّةٍ ولا بَعدَها.

٣٢ - رَوى عِياض[4] في الشِّفَاء[5] عن مُحَمَّدِ بن السَّائبِ الكلبيِّ النسَّابة[6]، أنَّه

=عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ بِالمدِينَةِ تَزُورُهُمْ بِهِ، وَمَعَهُ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْضُنُهُ وَهُمْ عَلَى بَعِيرَيْنِ، فَنَزَلَتْ بِهِ فِي دَارِ النَّابِغَةِ، فَأَقَامَتْ بِهِ عِنْدَهُمْ شَهْرًا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ يَذْكُرُ أُمُورًا كَانَتْ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ، لَـمَّا نَظَرَ إِلَى أُطُمِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ عَرَفَهُ، وَقَالَ: « كُنْتُ أُلاعِبُ أُنَيْسَةَ جَارِيَةً مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى هَذَا الأُطُمِ، وَكُنْتُ مَعَ غِلْمَانٍ مِنْ أَخْوَالِي نُطَيِّرُ طَائِرًا كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ »، وَنَظَرَ إِلَى الدَّارِ، فَقَالَ: « هَهُنَا نَزَلَتْ بِي أُمِّي، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْرُ أَبِي عَبْدُ اللَّـهِ بْنُ عَبْدِ الْـمُطَّلِبِ، وَأَحْسَنْتُ الْعَوْمَ فِي بِئْرِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ »، وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ يَخْتَلِفُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ أُمُّ أَيْمَنَ: فَسَمِعْتُ أَحَدَهُمْ، يَقُولُ: هُوَ نَبِيُّ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهَذِهِ دَارُ هِجْرَتِهِ، فَوَعَيْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ كَلامِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا كَانُوا بِالأَبْوَاءِ تُوُفِّيَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ، فَقَبْرَهَا هُنَاكَ، فَرَجَعَتْ بِهِ أُمُّ أَيْمَنَ عَلَى الْبَعِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ قَدِمُوا عَلَيْهِمَا مَكَّةَ وَكَانَتْ تَحْضُنُهُ مَعَ أُمِّهِ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ. فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْـحُدَيْبِيَةِ بِالأَبْوَاءِ، قَالَ: « إِنَّ اللَّـهَ قَدْ أَذِنَ لِـمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ، فَأَصْلَحَهُ وَبَكَى عِنْدَهُ، وَبَكَى الْـمُسْلِمُونَ لِبُكَاءِ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: فَقَالَ: « أَدْرَكَتْنِي رَحْـمَتُهَا فَبَكَيْتُ ». ابن سعد، الطبقات الكبرى (١ / ٩٤).

(١) وَرَدَ هذا الفصلُ بشكلٍ أطولَ في الجزء الثاني من مَقالٍ لابن عاشور، الصادر في الـمَجلَّة الزيتونيّة، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٢٩م) (ص ٤١٩ - ٤٢٤). وعنوانه: نَسَبُ الرَّسولِ ﷺ. وفي هذا القسم الثاني أورد سلسلة من الأدلة التي تثبت وجود الشرف الأخروي لآباء النبي.

(٢) زَنَّهُ بالخير زَنًّا وأَزَنَّه: ظَنَّه به أو اتَّـهمه، أزْنَـنْـتُه بشيء: اتَّـهَمْتُه به. ابن منظور، لِسان العرب (ز.ن.ن).

(٣) من السلالة؛ أي: انْحِدار النَّسب الشريف.

(٤) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي (١٠٨٣ - ١١٤٩م). قاض مالكي، مُحدِّث وفقيه.

(٥) كتاب الشفا من أشهر كتب القاضي عياض وهو مُؤَلَّف لَه مَكانة عليا في التدريس الزيتوني وتكوين علماء تونس.

(٦) أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث بن عبد الحارث الكلبي، يكنى ابن الكلبي =

قال: « كَتَبْتُ لِرسول اللَّهِ ﷺ، خَمسمائة أمٍّ، فما وَجدت فيهنَّ سِفاحًا ولا شيئًا ممَّا كانَت عَلَيْهِ الجاهِلِيّةُ »[١].

٣٣ - يعني: النِّكاحَ، وهو العَقْد على المرأة، عَن رِضًا من أوليائها، ورضًا منها عَلَنًا، بِنِيَّةِ الاخْتِصاصِ والدَّوام.

٣٤ - فآباءُ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأمَّهاتُهُ كِرامٌ. خُلاصَةٌ مِن قَومِهِمْ وأزْمانِهِمْ. وذلكَ قِوامُ صَفاء النَّسَبِ وَزَكائِه، فَقَد جَمَعَ اللَّهُ لِرسولِه في أصولِهِ السُّؤْدَدَ والصِّيانَةَ، وَأوْفَرَ لَهُ في نَفْسِهِ الكَرامَةَ المُستَبانَةَ.

٣٥ - وأمَّا أمْرُ الدِّين فَلَيسَ بِثالِمٍ لِشَرفِ العُنْصُرِ؛ إذِ النَّاسُ معادِنُ كَمعادِنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، « **خِيارُهُمْ في الجاهليَّةِ خِيارُهُمْ في الإسلام** »[٢].

٣٦ - عَلى أنَّ آباءَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وأمَّهاتِهِ، ولا سيَّما الأدْنَوْنَ مِنْهمْ، ما سَنُّوا لِقَومِهِمْ شِرْكًا، ولا نَصبُوا لَهم أوثانًا، ولكنَّهم وَجَدوا النَّاسَ في حَالَةِ شِرْكٍ فَسايَرُوهم. ولَم تُبْعَثْ فيهم رُسُلٌ يَدْعونَهُم. قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٩]. وقالَ: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

٣٧ - فَلَا شَكَّ أنَّهم مِن أهْلِ الفَتْرَةِ. وأهلُ الفَتْرَةِ نَاجونَ مِن العَذابِ، لِقَوله تَعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء: ١٥][٣].

= (١١٠ - ٢٠٤هـ)، مُؤَرِّخٌ ونسَّابَة. يعرف أخبار العرب وأيامها ووقائعها. يُعتَبَر المؤلفون في الأنساب الذين جاؤوا بعده عالة عليه. أخذ العلماء والمؤرخون عنه من أمثال ابن سعد والبلاذري والطبري باعتباره ثقة. من كتبه: اشتقاق البلدان والأنساب والأصنام.

(١) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١ / ٢٠) (تحقيق: أحمد فريد المزيدي، المكتبة التوفيقية).

(٢) رقم الحديث (٤٧) (حديث مرفوع) حَدَّثَنَا يحيى، قَالَ : حدثنا محمد بن خزيمة البصري بمصْرَ، قَالَ: نا أبو زيد، قَالَ: نا ابن عون، عَنْ ابن سيرين، عَنْ أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـه ﷺ: « **النَّاسُ مَعَادِنُ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا** ». الفَوائد المنتقاة لأبي طاهر المُخلص.

(٣) وردَ في تفسير التحرير والتنوير ما يلي: « ودلَّت الآية على أن اللَّـه لا يؤاخذ الناسَ إلا بعد أنْ يُرشدهم رحمة منه لهم. وهي دليل بَيِّنٌ على انتفاء مؤاخذة أحدٍ ما لم تبلغه دعوة رسول من اللَّـه إلى قوم، فهي حجة للأشعري ناهضة على الماتريدي والمعتزلة الذين اتفقوا على إيصال العقل إلى معرفة وجود اللَّـه، وهو ما صرَّحَ به صدر الشريعة في التوضيح في المقدمات الأربع. فَوجود اللَّـه وتوحيده عندهم واجبان بالعقل فلا عذر لمن أشرك باللَّـه وعطل،=

٣٨ - وجُمْهورُ أهلِ السنَّة يُفَسِّرونَ الرَّسولَ في هذه الآية بالنبي المُرْسَل، ولا يَحمِلونَه عَلى أنَّه العَقلُ؛ إذ لا بُدَّ للعقول مِن هادٍ، ولَيسَ بِالسَّهلِ إدراكُ أدلَّة الاعتقادِ.

٣٩ - فإنِ استَبانَ لِأَحَدٍ مِن أهْلِ الفَتْرَةِ دَليلُ الوَحدانيَّةِ بالعَقل، فَقَد يُؤاخَذُ جَميعُ قَومِهِ. وعَلى ذلكَ يُحمَلُ مَا وَرَدَ في الآثار: « أنَّ عَمرو بنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النَّار »[1].

٤٠ - فَعِنْدَنا[2]: النَّسَبُ الشَّريفُ ما انتظَمَ في سِمْطَيْهِ إلَّا جوهَرٌ، لم تَنْخَرْهُ قادِحَةٌ، فَكانَت فَرائِدُهُ في سائِرِ الأجيالِ نيِّرَةً واضحةً. وما هوَ إلَّا نَسَبٌ زَكيُّ العُنْصرِ، وما بَيْنَهُ وبَينَ استبانَتِهِ إلَّا أنْ يَسمعَ واعٍ ويَرى مُبْصرٌ.

٤١ - وأمّا الحَديث المَرويُّ في صَحيح مُسلمٍ[3]، فَقد تَأَوَّلَهُ العُلَماء[4]. ويَحقُّ تأويلهُ على كُلِّ مُسلِمٍ، عَلَى أنَّ أخبارَ الآحاد، لا تَنتَقضُ بها أصولُ الاعْتقادِ، فإذَا كانَ آباءُ رَسولِ اللَّهِ لَمْ تَحِقَّ عَليهم كَلِمَةُ العَذابِ، فَإنَّ بَرَكَته مَرْجُوَّةٌ لَهم في رَفْعِ مَنازِلهم يَومَ الحِسَابِ، لِقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، فعلَى المُؤْمِن المُوَفَّقِ أنْ يكونَ مِمَّنْ أعْرَضَ عَمَّا يُخالفُ هذا وأغْضَى.

* * *

= ولا عذر له بعد بعثة رسول. وتأويل المعتزلة أن يراد بالرسول العقل تطوُّحٌ عن استعمال اللغة وإغماضٌ عن كونه مفعولًا لفعل « نبعث »، إذ لا يقال: بَعثَ عقلًا بمعنى جعل. وقد تقدم ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. تفسير التحرير والتنوير (١٥ / ٥٢).

(١) حديث أبي هريرة: « رَأيت عَمْرو بنَ عامر يجرُّ قصبه في النار، وكانَ أوَّلَ مَن سَيَّبَ السائبَةَ وبَحرَ البحيرة »، أخرجه أحمد، المسند (٢ / ٢٧٥، ٣٦٦) والبخاري (٦ / ٤٠٠، ٨ / ٢١٣).

(٢) إشارة إلى مذهب الأشاعرة من أهل السنة.

(٣) ربَّما يشير إلَى الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلًا قال: يا رسول اللّه، أين أبي؟ قال: « في النار »، فلما قفى دعاه، فقال: « إن أبي وأباك في النار ». أو إلى الحديث الآخر (٩٧٦) حدثنا يحيى بن أيوب ومحمد بن عباد (واللفظ ليحيى) قالا: حدثنا مروان بن معاوية عن يزيد (يعني: ابن كيسان) عن أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزورَ قبرها فأذنَ لي ». مُسلم.

(٤) انظر رسالتي الإمام السيوطي: « مَسالك الحنفا في نَجاة والدَي المُصطفى » و « التعظيم والمِنّة بأنَّ والدَي المصطفى في الجنة ». ويحسن النظر في ردود الشيخ على سائر الأدلة الواردة بشأنِ مَصيرِ آباء النبي، في القسم الثاني من مقاله: نَسَبُ الرَّسولِ ﷺ، الصادر في المَجَلَّة الزيتونيّة عدد (٩) سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٢٩م) (ص ٤١٩ - ٤٢٤).

مَولدُ الرّسولِ ﷺ

٤٢ - لا خِلافَ في أنَّ سيِّدَنا مُحَمَّدًا[١] ﷺ، وُلِدَ يومَ الاثْنَين، كَما في صحيحِ مُسلمٍ[٢]. والمَشهورُ أنَّه وُلِدَ في اليَومِ الثانيَ عَشَرَ مِنْهُ، وأنَّهُ وُلِدَ عِندَ الفَجر، وذلكَ مِن عامِ الفِيل، وهو العام الذي دَخلَ فيهِ جَيشُ الحَبَشَةِ[٣] مَكَّةَ[٤].

٤٣ - فكانَ يَومُ المولدِ لِخَمسينَ أو خَمْسةٍ وخَمسينَ يومًا مَضت مِن يَوم دُخولِ الفيل مَكَّةَ، ويُوافق يَومُ المَولِدِ اليَومَ العشرينَ مِن إبْريلَ، سَنَةَ إحدى وسبعينَ وخمسمائةٍ مِن ميلاد المَسيحِ[٥].

٤٤ - قيلَ: كانَ ذلكَ عندَ طُلوعِ مَنزلة الغَفْرِ[٦] مِن مَنازِلِ القَمرِ[٧]. وكانَ عندَ دُخولِ

---

(١) في المطبوعة: مُحَمّد بالرفع وهو خطأ إملائيٌّ؛ لأنّ الكلمة بَدَلٌ من: سَيِّدَنا، اسم إنَّ، وحُكْمُه النَّصب.

(٢) رَوى مسلم عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ أَن رَسُولَ اللَّه ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ الاثْنَيـن فَقَالَ: « فِيهِ وُلِدْتُ وَفِيهِ أُنزِلَ عَلَيَّ ». الصحيح (١١٦٢).

(٣) عُرفت إثيوبيا في الكتب القديمة باسم: الحبشة (Abyssinie) نسبةً إلى قبيلة حَبَشت التي هاجرت من اليَمن إلى مُرتفعات القرن الأفريقي بعدَ انهيار سُدِّ مأرب. واسم « الحبشة » مشتقٌّ مِن لَفظ: « حَبشت » - الذي ورد في التوراة - ويعني: « الأجناس المختلطة »، إشارةً إلى التصاهر ما بين الساميين الوافدين من جنوب الجزيرة العربية والحاميين من سكان البلاد الأصليين.

(٤) سبق ذكرها.

(٥) يُعَرِّفُ الشَّيخ ابن عاشور بالمَسيح قائلًا: « عيسى اسم معرب من يشوع أو يسوع، وهو اسم عيسى ابن مريم قلبوه في تعريبه قلبًا مكانيًّا ليجري على وزن خفيف كراهية اجتماع ثقل العُجمة وثقل ترتيب حروف الكلمة، فإن حرفي علة في الكلمة وشينًا، والختم بحرف حلق؛ لا يجري هذا التنظيم على طبيعة ترتيب الحروف مع التنفس عند النطق بها، فقدموا العين لأنها حلقية فهي مبدأ النطق، ثم حركوا حروفه بحركات متناسبة وجعلوا شينه المعجمة الثقيلة سينًا مهملة فللّه فصاحة العربية. ومعنى يشوع بالعبرانية السيد أو المبارك. ... وعيسى ﷺ هو ابن مريم كوَّنه اللَّه في بطنها بدون مس رجل، وأمه مريم ابنة عمران من سبط يهوذا. ولد عيسى في مدة سلطنة أغسطس ملك رومية، وفي مدة حكم هيرودس على القدس من جهة سلطان الرومان وذلك في سنة (٦٢٠) عشرين وستمائة قبل الهجرية المحمدية، وكانت ولادته بقرية تعرف ببيت لحم اليهودية، ولما بلغ ثلاثين سنة بُعث رسولًا إلى بني إسرائيل وبقي في الدنيا إلى أن بلغ سنه ثلاثًا وثلاثين سنة ». التحرير والتنوير (١ / ٥٩٤)، سورة البقرة، الآية (٨٧).

(٦) الغَفْر هو أوّل المَنازل اليمانية وتتألف من (٣) نجوم خفية من برج العذراء (السنبلة)، وتقع ما بين الزباني (العقرب) وذَنب الأسد، وسميت الغفر إما لنقصان ضوء هذه النجوم أو لأن نضارة الأرض تستتر عند طلوعها، وطلوعها في (١٨) تشرين أول وسقوطها في (١٦) نيسان. واعتماد ابن عاشور على هذه المَقولات الفلكية يعلَّلُ بكونه جُزءًا من الثَّقافَة التقليديّة - الفقهيّة، الضروريَّة لمعرفة مَواقيت الصَّلاة والحَجّ.

(٧) في التصور التقليدي، للقَمَر ثمانيةٌ وعشرون منزلًا يَنزلها في كلِّ شَهرٍ، أربعة عَشَرَ منها شامية، أولها الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والدبرة، والصرفة، والعواء، =

الشَّمْسِ في بُرْجِ الحَمَل، وهوَ أوَّلُ البُـرُوجِ الرَّبيعيَّةِ.

٤٥ - وقَبِلَتْهُ الشِّفَاءُ[١]، بِكَسْرِ الشِّينِ وفَتْحِ الفاءِ مُخَفَّفَةً، وهي بِنتُ عَوفِ بنِ عَبد الحارِثِ ابنِ زَهْرَةَ. قيل: هي أمُّ عَبْدِ الرَّحْمن بنِ عَوْفٍ.

٤٦ - وكانَ مَوضعُ وِلادَتِهِ، الذي لا اختلافَ فيهِ بَينَ أهْلِ مكةَ، بِدارِ أبيه عَبدِ اللَّهِ، وهيَ عند الصَّفَا في شِعْبِ بني عَامِرٍ، الذي سُمِّي بعدَ ذلكَ: سوقَ اللَّيلِ.

٤٧ - وَقَد كانَتْ تلكَ الدَّارُ مَسْكَنَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ مُدَّةَ إقامَتِه بِمَكَّةَ قبلَ الهِجْرَة.

٤٨ - ولمَّا هاجَرَ احتازَها عُقيلُ بنُ أبي طالبٍ[٢]، ثم باعَهَا وَلَدُهُ مِن مُحمَّدِ بنِ يوسفَ الثقفيِّ[٣]، فأدْخَلَها في دارِه التي تُعرَفُ بالبَيْضاء.

٤٩ - ولمَّا حَجَّتِ الخَيزُرَانُ[٤]، زَوجُ المَهديِّ[٥]، اشتَـرَتْها، وفَصَلَتِ الدارَ التي وُلدَ فيها رسول اللَّه ﷺ، وَجَعَلَتْها مَسجدًا، وأشْرَعَت بَابَهُ إلَى الزُّقاق المَعروفِ: بزُقاق المَولِدِ.

= والسماك، وهو آخر الشامية، والغفر، والزبانا، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، ومقدم الدلو، ومؤخر الدلو، والحوت.

(١) قال ابن كثير: « وذكر القاضي عياض عن الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته » في كتابه « البداية والنهاية ». لِتَرجَمَة الشفاء، قابلة النبي، انظر البحث الدقيق الذي قامَ به الشيخ محمد البشير النيفر، الـمَجَلَّة الزيتونيّة، عدد (٩) سنة (١٣٥٦هـ) (ص ٤٥٠، ٤٥١).

(٢) عُقَيل بنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم. أمُّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وكان أسنَّ بني أبي طالبٍ، بعد طالبٍ الذي مات دونَ أن يخلّفَ. كان عَلَّامَةً بالنسب وأيام العرب. أسلم وعمرهُ اثنتانِ وخَمسونَ سَنَةً، فقد وُلدَ قَبلَ الهجرة بأربع وأربعين سنة، وأسلم سنة ثمانٍ من الهجرة بعد الحديبية. مات عقيل بن أبي طالب في خلافة معاوية سنة (٤٩هـ). ابن سعد، الطبقات الكبرى (٤ / ٣١)، الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٢ / ١٥٦، ٣١٣).

(٣) مُحَمَّد بن يوسف الثقفيّ أخو الحجاج، وكان أميرًا على اليَمن، وكان يَلعَن عليًّا ﷺ على المنابر. ابن كثير، البداية والنهاية (٩ / ١١٧).

(٤) الخيزران بنتُ عَطاء، زَوجَة الخليفة العباسيِّ الـمَهدي، ووالدة هارون الرشيد والهادي. اختطفها أعرابٌ منَ اليَمن وبَقيت في قَصر الخَليفَة إلَّا أنَّه أعجب بها، فتزوجها وأثَّرت في جملةٍ من قَراراتِه منها تَعيين ابنها الهادي، إلَّا أن الخلافات ظهرت بين الطرفَين وحاولَ كلاهما تسميم الآخر، وعندما انتَصَرَ هارون على أخيه حظيت بمكانة كبيرة عند هارون. في رَمضَانَ سَنَةَ (١٦١هـ)، ذهبت الخيزران إلى مكةَ واشترت الدار المعروفة باسمها وأضافتها إلى المسجد الحرام، وأقامت في مكةَ إلى موسم الحجّ وحَجَّت. الخطيب القزويني، تاريخ بغداد (٥ / ٢٩٢).

(٥) أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه، المنصور بن محمد المهدي باللَّه، ثالث الخلفاء العباسيين بالعراق. ولد سنة (٧٤٥ م). وليَ الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور سنة (٧٧٥م). وكان أبوه قد أمَّرَهُ عَلى طبرستان وما والاها. وكان المهدي مُحَبَّبًا إلى الرعية، انتعشت بغداد في وقته وازدادت شهرتها واستقطبت المزيد من المهاجرين إليها من شتى الأديان. ازداد نفوذ البرامكة في عصره. توفي المهديُّ عام (٧٨٥م). الأعلام، الزركلي (٤ / ١١٧)، (١٩٨٠م).

٥٠ - وبَنَى السلطانُ، مُحَمَّد خَان العثمانيُّ الثالثُ[1] لذلكَ المَسجد قبَّةً ومِئْذنَةً في سَنَةِ (١٠٠٩هـ).

٥١ - وقَد رَأيتُ أنَّ هذهِ الدَّارَ كانَت تُسَمَّى: دارَ التَّبابِعَةِ[2]، ولَمْ أقِفْ على وَجهِ هَذه التَّسميةِ.

* * *
* *
*

(١) السلطان محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني. هو الخليفة العثماني الثالثَ عَشرَ من سلاطين الدولة العثمانية (١٥٦٦ - ١٦٠٣ م)، وأمسك زمام الحكم من (١٥٩٥م) حتى وفاته.
(٢) القاموس في تَبع (المُصَنِّفُ).

نَشأته ﷺ

٥٢ - كَفَله جدُّهُ عَبدُ المُطَّلِبِ، وسمَّاهُ مُحَمَّدًا. فقيلَ لعَبدِ المُطَّلِب: لِم سَمَّيتَه باسمٍ ليس لأَحدٍ مِن آبائكَ؟ قال: لأنِّي أرْجو أنْ يَحمَدَهُ أهلُ الأرْضِ كُلُّهُمْ[١].

٥٣ - والصَّحيح أنَّه خُتِنَ يومَ سابعِ ولادَتِه، وأوْلَمَ لذلكَ عَبْدُ المُطَّلِبِ، فَنحرَ جَزورًا[٢]، ودَعا رِجالًا من قُريشٍ فَطَعِمُوا.

٥٤ - وَقَد رُويَ في بَعض الأخبار: أنَّ رسول اللَّه ﷺ وُلِدَ مَخْتونًا. وَرَجَّحَ المُحَقِّقونَ خِلافَهُ، وأنَّهُ وُلِدَ كامِلًا.

٥٥ - وأرْضَعَته أمُّه، ثمَّ أرْضَعَتْهُ مَعَها ثُوَيْبَةُ الأسْلَمِيَّة[٣]، جارِيةُ عَمِّهِ أبي لَهَبٍ[٤].

٥٦ - وكانَ مِن عادَةِ أهلِ مَكَّةَ أنْ يَسْتَرضِعوا أبْناءَهُم في البادِيَةِ؛ لِأنَّ مكَّةَ كانت وَخيمَةً[٥]، فَيُحبّونَ أن يَنْفَعَ أبناؤُهم في البادِيَة. ولأنَّ ذلك أجْلَدُ لأجْسامِهِمْ، وأفصحُ لِألْسِنَتِهم، فالتَمَسَت لِمُحَمَّدٍ ﷺ المَراضِعَ.

٥٧ - وَوَرَدَت نِسْوَةٌ من بَني سَعْدِ بن بَكْرٍ[٦]، مِن هَوازِنَ[٧]، قُرْبَ مَكَّةَ، حِذوَ حُنَيْنٍ[٨]، جِئْنَ يَلتَمِسْنَ الرُّضعاءَ، فَأخَذَتْهُ حَليمةُ بنتُ أبي ذُؤَيبٍ. وكان مَعهَا زَوجُها الحارثُ ابن عَبد العُزَّى[٩]، وابنٌ لَها مُرْضَعٌ، اسْمُهُ: عَبدُ اللَّه[١٠].

---

(١) السُّهَيْلي، الرَّوض الأُنُف (١ / ٣١٠ - ٣١٢).

(٢) الجَزُور: ما يَصْلُح لأن يُذْبح من الإبِل وغَيره. ابن منظور، لسان العرب (ج . ز . ر).

(٣) ثُوَيْبَة الأسلميَّة، أوَّل مُرضِعَة للنبي ﷺ، وجاريَة عَمِّهِ أبي لَهَبٍ، أعْتَقَها حيـن بشَّرته بولادَة النبيِّ ﷺ، وقَد أسلمت بعد البعثة. وكان إرضاعها للرسول أيامًا قلائل قبل أن تَقدم حليمة السعدية. وقيل: إنَّ ثويبَةَ أرضعته أربعة أشهر فقط. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون (١ / ١٣٨)، الزِّركلي، الأعلام (٢ / ١٠٢).

(٤) عَبد العزى بن عبد المطلب، عَمُّ الرسول، مات سنة (٦٢٤م). وهو الأخ غير الشقيق لعبد اللّه بن عبد المطلب. عُرِفَ بكنية أبي عُتبَة، نسبَةً لابنه الأكبر عتبة، وشُهرَ بكنيته أبي لهب، قيل: لِوسامته وإشراق وجهه.

(٥) وَخيمة: أرض وَخامٌ ووَخيمٌ ووَخْمَةٌ ووَخِـمةٌ ووَخِيمةٌ ومُوخِمَةٌ: لا يَنْجَعُ كلؤُها، وكذلك الوَبِيلُ. وشيءٌ وَخِمٌ أي وَبِيءٌ. وبَلْدةٌ وَخِمَةٌ ووَخيمةٌ إذا لم يُوافِق سكَنُها. ابن منظور، لسان العرب (و . خ . م).

(٦) بنو سعد من قبائلِ الطَّائف وفيهم استرضع النبي. اشتهروا بالفصاحة. وأرضعت نساؤهم الكثيـرَ من فتيان قريش.

(٧) قَبيلة هوازن من قبائل قَيسِ عَيلانَ المُضريَّة .

(٨) يقعُ وادي حُنينٍ بَينَ مكةَ والطائف.

(٩) الحارث بن عبد العزى بن رفاعة بن ملان بن ناصرة بن فصية بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن، أبو رسول اللّه من الرضاعة. السهيلي، الروض الأنُف (١ / ٣١٥).

(١٠) السهيلي، الروض الأنُف (١ / ٣١٥).

٥٨ - وما وَضعت رَضيعَها المُبارَكَ حتَّى رَأتْ بَوارِقَ اليُمْنِ في ذاتِها ومَا حَولهَا. فلمَّا شَعَرَ بذلكَ زَوجُها قال لها: « تَعَلَّمِي [واللَّهِ][1] يا حَليمَة، لَقد أَخَذْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً ».

٥٩ - قال السُّهَيْليُّ: « ذَكرَ غيرُ واحدٍ أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ كان لا يَقبلُ من حليمَةَ إلَّا أحدَ ثَدْيَيْها، فإذا عَرَضَتْ عَليهِ الثَّدْيَ الآخَر يَأباه، كأنَّه قدْ أُلهِمَ أنَّ مَعَهُ شريكًا في لَبَنِها ».

٦٠ - فَكانَ مَفْطورًا على العَدل، مَجْبولًا عَلى جَميل المُشارَكَة والفَضْلِ[2].

٦١ - وأرْجَعَته مُرْضِعَتُه إلى أمِّهِ وهو ابنُ خَمسِ سنينَ وشَهْرٍ.

٦٢ - ولمَّا بلغَ ستَّ سنينَ توفيت أمُّهُ، ولمَّا بلغَ ثماني سنينَ وَكَسْرًا تُوُفِّيَ عبدُ المُطَّلِب، فَكفَلَه عَمُّهُ أبو طالِبٍ[3].

٦٣ - وقَد يَفعَ[4] - عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - على أجْمَلِ الصِّفاتِ، كانَ لا يُشبِهُ خُلُقُهُ خُلُقَ الصِّبْيانِ: فَمن ذلكَ أنَّه كانَ إذا قُرِّبَ إلَيْهِ مَعَ الصِّبْيان تَصْبيحُهُمْ - وهو طَعام الصَّباح - اختلَسَ بَقِيَّةُ الصِّبْيان مِنهُ، ويَكُفُّ هوَ.

٦٤ - وعَن أمِّ أيْمَنَ - حاضِنَتِهِ - أنَّها قالت: ما رَأَيْتُه يَشكو جوعًا أو عَطشًا، لا صَغيرًا ولا كَبيرًا. وكانَ يَكْثُرُ أن يَنامَ لَيْلَتَهُ دونَ أنْ يَتَعَشَّى، وكَذلكَ شَأْنُهُ حينَ يَشِبُّ. وحَسْبُنا حكايَةً لِحالِهِ هَذه كَلمَتانِ:

٦٥ - إحْداهما: ما رَواه أبو الفَضل في الشِّفاء[5]، عَن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ، أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، قالَ: « **ما هَمَمتُ بشيءٍ مما كانَ أهلُ الجاهليَّةِ يَعملون بِه غَيرَ مَرَّتَيْنِ، كُلُّ ذلك يَحولُ اللَّهُ بَيْني وبَينَ ما أريدُ. من ذلكَ، قلت لَيلةً لِغُلام كانَ يَرْعَى مَعي: لو أبْصَرْتَ لي غَنَمي حتَّى أرحلَ إلَى مَكَّةَ فأسْمَرَ بها، كَما يَسْمَرُ الشَّبابُ. فَخَرَجْتُ لذلك حتَّى جِئت أوَّلَ دارٍ في مَكَّةَ، سَمِعتُ عَزَفًا بالدُّفوفِ والمَزاميرِ لِعُرسِ بَعْضِهِم، فَجَلَستُ أنظرُ، فَضُرِبَ عَلَى أذنَيَّ فَنِمْتُ، فَما أيْقَظَنِي إلَّا مَسُّ الشَّمسِ، فَرَجعتُ ولَمْ أقْضِ شَيئًا. ثمَّ عَراني مَرَّةً أخْرَى مِثْلُ ذلكَ، ثمَّ لَم أَهُمَّ بعدَ ذَلكَ بِسوءٍ** »[6].

---

(١) تعلّمي: أي اعْلَمي. والزيادة من سيرة ابن هشام (١ / ١٣٩).

(٢) السُّهيليّ، الرَّوض الأُنُف (١ / ٣١٦).

(٣) أبو طالب، عَبدُمَناف بن عَبدالـمُطَّلب الهاشمي القرشي الكناني، يُكْنَى بـأبي طالب، وهو عم النبي (٥٤٠م-٦١٩م).

(٤) يَفَعَ يَيْفَعُ: كَبُرَ ونَشَأ وتَرَعْرَعَ، ومنه شابٌّ يافعٌ.

(٥) سَبَقَ التعريف به.

(٦) القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١ / ١٢٦) المكتبة التوفيقية، والحديث رواه الطبري (٢/ ٢٧٩) وصَحَّحَهُ الحاكمُ، وتَبعهُ الذهبيُّ، وضَعَّفَهُ ابن كثير، البداية والنهاية (٢ / ٢٧٨).

٦٦ - الثانيةُ: قَولُ النَّضرِ بنِ الحَارثِ[1] لِقُرَيش:

« قَد كانَ مُحمَّدٌ فيكم غُلامًا حَدَثًا، أرْضاكُم فيكم، وأصدقُكَمْ حديثًا وأعْظَمُكَمْ أمانةً، فلمَّا رأيتُم الشَّيْبَ فِي صُدْغَيْهِ قُلتم: ساحرٌ، وقُلتم: شاعرٌ، وقُلتُمْ: مَجنونٌ، واللَّه ما هو بأولئكم »[2].

٦٧ - ولَمَّا بَلغَ ﷺ أربعَ عشرةَ سنةً، ثَارَت حَرْبُ الفِجَار[3]، بَينَ قُرَيْشٍ - ومَن مَعَهم مِن كنانَةَ - وبَيْنَ قَيْسِ عَيْلانَ. وكانَت في شَهْرٍ حَرامٍ، فَلذلكَ سُمِّيَتْ: الفِجَارَ؛ لأنَّ القِتالَ في الشَّهرِ الحَرام مِن الفُجورِ.

٦٨ - فَكان سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ مَع أعْمامِهِ بَني هاشم يَنْبُلُ عَلَيْهِم؛ أي: يَلْتَقطُ لَهُم النِّبالَ التي يَرمِيهم بها أعداؤُهُمْ لِيَرموهُمْ بها. وثَبَتَ أنَّهُ كانَ راكبًا فَرسًا وأنَّهُ رَمى بِسَهْمٍ.

٦٩ - ولَم يَزلْ مُحمّد ﷺ يَزْدادُ عَلَى السنِّ خَيرًا. وتَتَقَدَّمُ بِه سَوابِقُ الهِمَمِ إلى الفَضائِلِ سَيْرًا، فَعُرِفَ في فُتُوَّتِه بِصِدْقِ الحَديثِ، وَكَرَمِ الأَخْلاقِ والوَفاءِ والأمانَةِ، والإعْراضِ عَن السَّفاسِفِ، والإقْبالِ عَلى الجِدِّ.

٧٠ - فَلمَّا بَلَغَ خَمْسًا وعِشرينَ سَنَةً مِن عُمْرِهِ، بَلَغَ خَديجةَ بنتَ خُوَيْلِدٍ[4] ما اشتهرَ به مِن الأَمَانَة، وكانَت امْرَأَةً ذاتَ مالٍ. وكانتْ تُقارِضُ رجالًا من قريشٍ، يَتَّجِرونَ لَها عَلى

---

(١) النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، أحد سادة قريش. اشتهر في التاريخ الإسلامي بمُعاداته للنبي ﷺ، سافرَ إلى شمال شرق الجزيرة يطلب قصص الفرس وأساطيرهم ليضاهي ما عند النبي ﷺ، فكان إذا جلس رسول اللّه مجلسًا، وتلا فيه القرآن خلفه في مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم السديد وعن إسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: واللّه ما محمد بأحسن حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها. ومما نزل فيه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥].

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، حديث رقم (٥٣٤).

(٣) حَرب الفِجَار (٥٨٠ - ٥٩٠م) هي إحدى حروب العرب في الجاهلية، حَصلت بين قبيلة كنانة (ومنها قريش) وبَينَ قبائل قَيس عيلان (ومنها هوازنُ وغَطفَانُ). وهي الحرب الوحيدة التي شارك فيها النبيّ قَبلَ البعثة. وسُمِّيَت بالفِجَار لما استحلَّ فيها هَذان الحَيَّان من المحارم بَينهم في الأشهر الحُرُم وقَطعوا فيه من الصلات والأرحام بينهم. ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ٣٥٣).

(٤) خديجة بنت خويلد بن أسد القرشية ﵂ زوج النبي الأولى، ولدت سنة (٥٥٦م) بمكة، ولكنَّ هذا يتعارض مع سنِّها حين وفاتها؛ إذ أثبتَ البيهقي أنَّ خديجَةَ توفيت وعمرها خمسون سنة، وهو أصح. يُروَى أنَّها تَزَوَّجت مَرَّتين قبل زواجها بالنبي، مِن سَيِّدَين من سادات قريش هما: عتيق بن عائذ المخزومي وقد أنجبت منه ابنة، وأبي هالة بن زرارة التميمي وأنجبت منه جارية وغلامًا. وقد كانت خديجة تاجرةً ذات مال، وكانت تستأجر الرجال وتدفع المال مُضارَبَةً، فَبَلَغَها أنَّ محمدًا يُدعَى بالصادق الأمين وأنه كريم الأخلاق، فبعثت إليه وطلبت منه أن يخرج في تجارة لها إلى الشام مع غلام يدعى « ميسرة ». ابن سعد، الطبقات الكبرى (٨/ ١١). الزركلي، الأعلام (٢/ ٣٠٢).

شَيءٍ مِن الرِّبْح تَجعلُه لَهم. فَرامَتْ أنْ تُقارِضَه، وأرْسَلَت إلَيه بذلكَ لِيَخْرجَ إلَى الشَّامِ[١] في تِجارَةٍ لَها. وَكانَتِ الشَّامُ مَتْجَرَ قُرَيْشٍ في رحلةِ الصَّيْفِ.

٧١ - فَخَرجَ سَيِّدنا محمدٌ ﷺ إلَى الشَّام في تِجارتها ومَعَه مَيْسَرَةُ[٢]، غلامُ خديجَةَ.

٧٢ - وبَعدَ قُفولِه من رِحْلَتِهِ هَذه، تَزَوَّجَ خَديجَةَ - رَضيَ اللَّهُ عنها - وعُمرُهُ خَمسٌ وعشرونَ سَنَةً، وكانت خديجةُ أيِّمًا، تُوُفِّيَ زَوجُها أبو هَالَةَ التميميّ[٣]، حَليفُ بَني عبدِ الدَّارِ[٤]، مِن قُريشٍ.

٧٣ - وغَلَبَ عَلَيْهِ لقبُ: « الأمين » بَيْنَ قريشٍ، ورُبَّما لَقَّبوهُ: بالمَأمون.

٧٤ - ولَمَّا بَلغَ خَمسًا وثلاثينَ سَنَةً، تَهَدَّمَتِ الكَعبَةُ فَشَرَعَ قُريشُ في بِنائِها. وكانَ سَيِّدنا مُحَمَّدٌ يومَئِذٍ مَعَهم، فَكانَ يَنقلُ الحِجارةَ فقالَ لَهُ عَمُّه العَبَّاسُ: اجْعلْ إزاركَ على عاتقكَ، كَما يَفعلُ الناسُ؛ لِيَخِفَّ عَلَيكَ حَملُ الحجارة، فَلَمَّا رَفَعَ إزارَهُ، خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيهِ، فَقال لَه عَمُّهُ العَبَّاسُ: لا حَرَجَ عَلَيكَ! شُدَّ عَلَيكَ إزارَكَ[٥].

٧٥ - ولمَّا ارتَفَع بناءُ رُكنِ الكَعبةِ، مَوضِعَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ، وأرادوا وَضعَ الحَجَرِ في مَوضِعِهِ، اختَلَفَت بُطونُ قريشٍ فيمَنْ يَتولَّى وَضْعَهُ، وتَنافَسوا في الفَوز بِهَذه المَنقَبَة، وبَلغَ بهم التنازعُ إلى أنْ هَمُّوا بالقتال. فَقالَ لَهم أبو أُمَيَّةَ بنُ المغيرَة المَخزومِيُّ[٦] - وكان

---

(١) اسم تاريخي لجزء من المشرق العربي يمتد على الساحل الشرقي للمتوسط إلى حدود العراق. تُشَكِّل هذه المنطقة بالمَفهوم الحديث كلًّا من: سوريا، لبنان، الأردن، وفلسطين بالإضافة إلى مناطق حدوديَّة مُجاورة.

(٢) مَيْسرة، غُلام خديجة. ذُكر في السِّيرة، وكان رفيقَ النبيِّ في تجارة خديجة قبل أن يتزوجها. وحكى بعضَ أدلة نبوته.

(٣) نَبَّاشُ بْنُ زُرَارَةَ بن وَقْدَان بنِ حَبيب بن سَلَامة بن غُوَيّ بن جروة بن أُسَيِّد بن عَمْرو بن تَميم التميمي الأَسيدي، أَبو هالة. قال مصعب بن عبد اللَّه: النباش بن زُرَارة التميمي أبو هالة، من بني أُسَيْد بن عمرو بن تميم، حليف بني عبد الدار. قال أَبو نعيم: النباش بن زرارة، له ذكر في المغازي، وله صحبة فيما ذكر بعض المتأخرين. أَخرجه ابن منده، وأَبو نُعَيم، وأَخرجه أَبو موسى فيما استدركه على ابن منده، وقد أَخرجه ابن منده، فلا وجه لاستدراكه عليه. قلت: لا صحبة للنباش، فإنه أقدم من عهد النبي ﷺ، لأن ابنه أَبا هالة هِنْد بن النباش كان زوج خديجة قبل النبي ﷺ، فأَبو هالة لا صحبةَ له أيضًا. وقيل: اسم أَبي هالة النباشُ، وعلى كل الاختلاف، فلا صحبة له. ابن الأثير، أَسْدُ الغابَة في مَعرفَة الصحابة (٥ / ٢٩٣).

(٤) بنو عبد الدار: هم بطن من بطون قريش وفيهم السدانة وهي الحجابة ودار الندوة، وهم حملة اللواء في الحرب، ومنهم بنو شيبة.

(٥) السُّهَيلِيّ، الرَّوض الأُنُف (١ / ٣٥١).

(٦) ابن المغيرة بن عبد اللَّه سيد بني مخزوم، و يلقب بـ « زاد الركب »؛ لأَنَّهُ كان يكفي أصحابه مؤنتهم في السفر، وهو أبو أم المؤمنين أم سلمة وأبو الصحابي المهاجر بن أبي أمية.

أسنُّهُم يومَئِذٍ -: اجْعلوا بَيْنَكُم فيما تَختلفونَ أوَّلَ داخلٍ من بابِ بَني شَيْبَةَ[1].

٧٦ - فَكانَ ﷺ أوَّلَ داخلٍ منهُ، فقالوا: هذا مُحَمَّدٌ، هذا الأمين، رَضيناهُ. فَحَكَّموهُ، فَقالَ: « **هَلُمَّ إليَّ ثوبًا** »، فأتوهُ بِثوْبٍ، فَأَخَذَ الحَجَرَ فوضَعَهُ فيه، ثم قال: « **لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبيلةٍ - أيْ: كلُّ سيِّدٍ لَها - بِناحيةٍ مِن الثَّوبِ، ثم ارفَعوهُ جميعًا** ».

٧٧ - فَلَمَّا رَفعوه، أخَذَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ وَوَضَعَه في مَوْضِعِهِ المَعروف مِن جِدارِ البَيْتِ، وبُنِيَ هُنالِكَ.

٧٨ - فَكانَت صَرْفَةُ قريشٍ عَن المُنافَسَةِ في واضِعِ الحَجَرِ فِي مَوضِعِهِ، مُعْجِزَةً خَفيَّةً لرسولِ اللَّهِ ﷺ، جَعَلَها اللَّهُ حُجَّةً لَه؛ إذْ كانَ هو ثاني مَن وَضَعَ الحَجَرَ في مَوضِعِهِ بَعدَ أن وَضَعَهُ إبراهيمُ عليه السلام[2].

٧٩ - وألْهَمَ اللَّهُ سبحانَهُ سيِّدَنا مُحَمَّدًا ﷺ إلْهامًا صَادِقًا، إلَى أنْ يُجاوِرَ[3] كلَّ سَنَةٍ شَهْرًا، فَحُبِّبَ إليه الخَلاءُ. فَكانَ يَخرُجُ إلَى غارٍ في جَبَلِ حِراء[4]، وهو عَلَى ثَلاثَةِ أمْيالٍ مِنْ مَكَّةَ، يُجاوِرُ بِهِ كُلَّ سَنَةٍ شهرًا.

٨٠ - (والمُجاوَرَةُ: الاعْتِكافُ؛ أي: الخَلْوَةُ للعِبادَةِ، فَكانَ يَتَحَنَّث به[5]، والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ. ويُقال: التَّحنُّف بالفاء.

٨١ - والظنُّ أنَّ اللَّه تعالى ألْهَمَهُ ما يَتَعَبَّدُ بِهِ ممَّا كانَ مِن دينِ إبراهيمَ، مِثلَ: النَّظَر في دَلائِلِ الوَحْدانيَّة، والسُّجودِ لِلَّهِ تَعالَى، والصِّيامِ والذِّكرِ، وما اللَّهُ أعلَمُ بِهِ مِنَّا.

٨٢ - وثَبَتَ أنَّه كانَ في تِلْكَ المُدَّةِ يُطعمُ المَساكينَ.

---

(١) كانَ أوَّلَ بابٍ للمسجد الحرام هو باب بني شَيبَةَ، وهو منسوب إلى شيبة بن عثمان الحجبي، سادن الكعبة؛ لأنَّه كان بجوار بيته، ويقال لهذا الباب: باب السلام. دخلَ النبي ﷺ من هذا الباب؛ لأنَّه مواجهٌ للكعبة أمام مقام إبراهيم.

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

(٣) جاوَرَ أي: أقامَ بجوار مَكَّةَ.

(٤) غار حِراء حيثُ كانَ يَختلي الرسول ﷺ قبل نُزول الوَحي، وفيه نزل القرآن أوَّلَ مَرَّةٍ. ويقعُ غارُ حِراء في شرق مكةَ على يسارِ الذاهب إلى عرفات في أعلى جبل النور، عَلى ارتفاع (٦٣٤) مترًا، ويبعد تقريبًا مَسافة (٤) كم عن الكعبة. ابن كثير، البداية والنهاية (٣ / ٣٣).

(٥) الحديث في البخاري: أوَّلُ ما بُدِئ به رسول اللَّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيَتَحَنَّثُ فيه - وهو التعبد - الليالِيَ ذَوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود ... عدد (٣).

٨٣ - ولَم أرَ مَنْ ضَبَطَ عدَّ السّنينَ التي دامَ فيها عَلى ذَلكَ الجِوارِ[1].

* * *
* *
*

(١) ذكرَ الشيخ صفي الرحمن المباركفوريّ أنَّ ذلك الجوار دام ثلاثَ سَنوات، كانَ يُجاور فيها مدة شهرٍ. ولكنه لم يُقدم على ذلك أي دليلٍ. انظر كتابه: الرحيق المختوم (ص ٧٤) .

بعثتـه ﷺ

٨٤ - وفِي شَهْرِ رَبيعٍ الثَّاني من السَّنة الأربَعينَ مِن عُمُرِهِ المُبارَك؛ أيْ: سَنَةَ أربعينَ من عَامِ الفيلِ، ابْتَدَأهُ اللَّهُ بالرُّؤيَا الصَّادِقَةِ، وهيَ أوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ مِنَ الوَحْيِ، فكانَ لا يَرى رُؤيا إلَّا جاءَت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[١]؛ أيْ: وَقعَ الأمرُ الذي رَآهُ مُماثِلًا في الخارِجِ للرُّؤْيَا.

٨٥ - وفِي السَّابِعَ عَشَرَ من رَمَضانَ مِن تِلكَ السَّنةِ، أوْحى اللَّهُ إلَيْه، وَهو في غارِ حِراء[٢]. فَرَأى جِبريلَ وأقْرَأه قَولَه تَعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فَرَجَعَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَأخْبَرَ بذلكَ خَديجَةَ. وسَمِعَ جِبريلَ يُناديهِ منَ السَّماءِ: يا مُحَمَّدُ، أنتَ رسول اللَّهِ. ورَآه بَينَ السَّماءِ والأرْضِ. فَأخْبَرَ خَديجَةَ بذلك.

٨٦ - فَذَهَبَتْ خَديجَةُ به إلى ابنِ عَمٍّ لها اسْمُهُ: وَرَقَةُ بنُ نَوفَل بنُ أسَدٍ[٣]. وكانَ قَد تَنَصَّرَ، وقَرَأَ التَّوراةَ والإنجيلَ. فأخْبَرَتْهُ بما رَأى رَسولَ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ لَه وَرَقَةُ: هَذا النَّاموسُ الذي نَزَّلَ اللَّهُ عَلى مُوسى، يا لَيتَنِي فيها جَذَعٌ[٤] إذْ يُخرِجُكَ قَومُكَ. فقال رسول اللَّه: « **أوَمُخرِجِيَّ هُم؟** » قال: نَعمْ، لَم يَأتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ ما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْني

---

(١) قال الزهري: أخبرني عروة عن عائشة - رضي اللّه عنها - أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول اللّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. البخاري، حديث عدد (٣). (باب بدء الوحي)، انظر: فتح الباري (١ / ٢٧).

(٢) يدافع الشيخ في تفسيره عن الفرضية القائلة بأنَّ بَدءَ الوحي كان في ليلة (١٧) من شهر رَمضان: « وقد ثَبَتَ أنَّ ابتداءَ نزول القرآن كان في شهر رمضان. قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولا شك أن المسلمين كانوا يعلمون ذلك؛ إذ كان نزول هذه السورة قبل نزول سورة البقرة بسنين إن كانت السورة مكية، أو بمدة أقل من ذلك إن كانت السورة مدنية، فليلة القدر المرادة هنا كانت في رمضان وتأيد ذلك بالأخبار الصحيحة من كونها من ليالي رمضان في كل سنة. وأكثر الروايات أن الليلة التي أنزل فيها القرآن على النبي ﷺ كانت ليلةَ سَبْع عشرة من رمضان ». التحرير والتنوير (٣٠ / ٤٥٨).
ولكن الشيخ صفي الرحمن المباركفوريّ يرجّح أنَّ ذلكَ كان في الحادي والعشرين من رمضان. وقدم على ذلك أدلة حديثية وأخرى حِسابيَّة. انظر هامش رقم (١) (ص ٧٥) من كتابه: الرحيق المختوم.

(٣) وَرَقَة بن نَوفل شخصية تاريخية، ورد ذكره في مُؤلفاتِ مؤرخين مسلمين ومسيحيين. واتفقت مُعظم هذه الكتب - لا سيما كتب الحديث - على أنه كان يَعرف الإنجيل. كما كان حنيفًا في الجاهلية. وتقول روايات أخرى: إنه كان نصرانيًا. وبَعد نزول الوحي على النبي، استُدعِيَ وَرقة بن نوفل لبيت خديجة، فأقرَّ لَه بالنبوة، ثم لم يلبث أن تُوُفِّيَ قَبلَ ظهور الإسلام. صحيح البخاري (١/ ٣). ابن هشام، سيرة ابن هشام (١ / ٢٤٣).

(٤) الجَذَع من الرِّجال: الشابُّ الحَدَثُ.

يَومُكَ أنصرْكَ نَصرًا مُؤَزَّرًا. ثمَّ لَم يَنْشَبْ وَرَقَةُ أنْ تُوفِّيَ.

٨٧ – ومَكَثَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ مُدَّةً يُوحَى إلَيْهِ، ولـم يُؤمَرْ بِدَعْوَةِ النَّاسِ حَتَّى نَزَلَ عَليهِ قوله تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر: ١، ٢][1] إلى آخِرِ السّورةِ، فَدعَا النَّاسَ إلَى الإسْلامِ.

٨٨ – وفي التِّرْمِذيِّ عن أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ النَّبي ﷺ بُعثَ يومَ الاثْنَينِ، وَضَعَّفَهُ.

٨٩ – فَكَانَ يَدْعو النَّاسَ إلى الإسْلامِ، فتَنَكَّرَ لَهُ المُشْركونَ، وامْتَعَضوا مِن ظُهورِ الإسْلامِ.

٩٠ – وكانَ الذينَ أسْلَموا – وَهُم زُهاء أربعينَ رجلًا – إذا صَلُّوا اسْتَخْفَوا بِصلاتِهِمْ. وصاروا يَأْوونَ إلى دَارِ الأرْقم بن أبي الأرْقَمِ، تَوقِّيًا مِن تَعرُّضِ قُريش لَهم بالأذَى، وبَقُوا كذلكَ ثلاثَ سنينَ.

---

(١) يقول ابن عاشور في تفسيره: « نودي النبي ﷺ بوصفه في حالة خاصة تلبس بها حين نزول السورة. وهي أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فَرِقَ من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: « دثروني دثروني »، أو قال: « زملوني »، أو قال: « زملوني فدثروني »، على اختلاف الروايات، والجمع بينها ظاهر فدثَّرَتْه فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١]، وقد مضى عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ [المزمل: ١] ما في هذا النداء من التكرمة والتلطف. و « المدثر »: اسم فاعل من تدثّر، إذا لبس الدِّثَار، فأصله المتدثّر، أدغمت التاء في الدال لتقاربها في النطق كما وقع في فعل ادَّعى. والدِّثار: بكسر الدال: الثوب الذي يُلبس فوق الثوب الذي يُلبس مباشِرًا للجسد الذي يسمى شعارًا. وفي الحديث: « الأنصار شِعَار والناسُ دِثَار »، فالوصف بـ « المدثر » حَقيقَة، وقيل هو مجاز على معنى: المدثر بالنبوءة، كما يقال: ارتدى بالمجد وتأزّر به على نحو ما قيل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾؛ أي: يا أيها اللابس خُلعة النبوءة ودِثارها. والقيام المأمور به ليس مستعملًا في حقيقته؛ لأن النبي ﷺ لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائمًا ولا مضطجعًا ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه، وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمُّم بالإنذار مجازًا أو كنايةً. وشاع هذا الاستعمال في فعل القيام حتى صار معنى الشروع في العمل من معاني مادة القيام مساويًا للحقيقة، وجاء بهذا المعنى في كثير من كلامهم، وعدّ ابن مالك في « التسهيل » فعل (قام) من أفعال الشروع، فاستعمال فعل القيام في معنى الشروع قد يَكون كناية عن لازم القيام من العزم والتهمم كما في الآية، قال في « الكشاف »: قُم قيام عزم وتصميم. وقد يراد المعنى الصريح مع المعنى الكنائي... وأفادت فاء ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ تعقيب إفادة التحفز والشروع بالأمر بإيقاع الإنذار. ففعل ﴿ قُمْ ﴾؛ مُنزَّل منزلة اللازم، وتفريع ﴿ فَأَنذِرْ ﴾ عليه يبين المراد من الأمر بالقيام. والمعنى: يا أيها المدثر من الرعب لرؤية مَلَك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار. والظاهر: أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة؛ لأن سورة العلق لم تتضمن أمرًا بالدعوة، وصدر سورة المزمل تضمَّن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ [المزمل: ١٥]، وقوله: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المزمل: ١١]، وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من اللّه إليهم. وابتدئ بالأمر بالإنذار؛ لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه، فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذٍ محتاجة إلى الإنذار والتحذير. ومفعول « أَنذِرْ » محذوف لإفادة العُموم؛ أي: أنذر الناس كلهم وهم يومئذٍ جميع الناس ما عدا خديجة – رضي اللّه عنها – فإنها آمنت، فهي جديرة بالبشارة ». التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩٤).

٩١ - فَلَمّا نَزَلَ قَولُه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٦] أظهرَ الرَّسولُ ﷺ والمُسلِمونَ أمْرَهُمْ، وتَحدَّوْا بِهِ المُشرِكينَ، وذلكَ سنَةَ عَشْرٍ قَبْلَ الهِجْرَةِ.

٩٢ - فَحَمِيَ[1] المُشْرِكونَ لِذلكَ، وأكْثَروا مِن أذَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وأصحابِهِ، وذَهَبَ كُبَراؤُهم عُتبَةُ بن رَبيعَةَ[2] وشيبةُ بنُ رَبيعَةَ[3] وأبو سُفيانَ[4] وأبو البُخْتُرِيِّ[5] والأسْوَدُ ابنُ المُطَّلِبِ[6] وأبو جَهْلٍ[7] والوَليدُ بنُ مُغيرَة[8] ونَبيه بن الحَجَّاج[9]، ومُنَبِّه بن الحَجّاج[10] والعَاصي بن وَائِلٍ[11] إلَى أبي طالِبٍ فَقَالوا: إنَّ ابنَ أخيكَ قد سبَّ آلِهَتَنَا، وعابَ دِينَنَا، وسَفَّهَ أحْلامَنَا، وضَلَّلَ آباءَنَا، فَإمَّا أنْ تَكُفَّهُ عنَّا، وإمَّا أن تُخلِّيَ بينَنَا وبينَه، فإنَّكَ على مِثل

(١) حمي: اشتدَّ غَضب المشركين.

(٢) عُتبَةُ بن رَبيعَةَ، من سادات قريش وشخصية نافذةٌ عندَ ظهور الإسلام، نَصَحَ قريشًا أن يؤمنوا بالنبي ﷺ أو يخلوا بينه وبين القبائل، وذلكَ بعدَ أن اجتمع بالرسول وسمع منه.

(٣) شَيبَة بن رَبيعة، شقيق عتبة، قُتِلَ يومَ بَدرٍ، أثناء المبارزة الشهيرة التي دارت بينه وبين حمزة بن عبد المطلب وعلي. كان مقتله هو وأخوه عتبة يومئذٍ السبب الرئيسي لطلب هند بنت عتبة للثأر من حمزة وقتله.

(٤) أبو سفيان هو صخر بن حرب الأموي القرشي، ولد سنة (٥٦٠م) وتوفي سنة (٦٥٢م) وهو سيد قبائل قريش وكنانة وأحد أشراف العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، أسلم يومَ فتح مكةَ.

(٥) من سادات قريش. قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول اللّه ﷺ عن قتل أبي البختريِّ؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول اللّه ﷺ وهو بمكة. ابن هشام (٣ / ٣٤٩).

(٦) جاء في أنساب الأشراف للبلاذري: « كانَ الأسود من المستهزئين، وكان يُكْنَى: أبا زمعة، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابِه، ويقولون: قَد جاءَكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر، ثمَّ يمكون ويصفرون، وكلم رسول اللّه ﷺ بكلام شق عليه ».

(٧) عَمْرو بنُ هشام بن المغيرَة المخزومي الكناني، كانَ من سادات قريش، من قبيلة كنانةَ. وكانَ من أشدّ المناوئينَ للنبيّ. كُنيَته: أبو الحكم. وكنّاهُ الوليد بن المغيرة بأبي جهل. وقيل: بل هو النبي.

(٨) الوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر المخزومي القرشي، أحد قادة قريش في الجاهلية ووالد الصحابي خالد بن الوليد، من أغنى أغنياء قريش، حيث ورد أنَّه بَنى ركنًا من أركان الكعبة الأربعة عندما قامت قريش بترميمها واشتركت باقي القبائل في الباقي.

(٩) نَبيه بنُ الحَجَّاج بن عامر بن حذيفة السَّعديّ، السهميّ، القرشي، أبو الرزام. شاعر، مِن ذوي الوجاهة في قريش، قبل الإسلام. كان نديمًا للنَّضر بن الحارث. ثم كان هو وأخوه منبه من « الـمُقتَسمين » وهم سَبعَةَ عَشَرَ رَجلًا من قريش اقتسموا أعقابَ مكة، يَصدون الناس عن النبي ﷺ وفيهم نزلت الآية: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ [الحجر: ٩٠]، وقُتِلَ مَع أخيه مشركين في وقعة بدر. أورَد البغداديُّ نُـتَـفًا من شعره، وقال: له شعر كثير. انظر: الزركلي، الأعلام (٨ / ٨).

(١٠) مُنَبِّه بنُ الحجَّاج بنُ عامر بن حذيفَةَ بن سَعيد - وقيل: سَعد - ابن سَهم بن عمرو بن هَصيص القُرشي، السهمي، أمُّه أرْوى بنتُ العاص، أحَد أشراف قُريش في الجاهلية، كان من المناوئين والمؤذينَ للنبي ﷺ.

(١١) هو العاصي بن وائل السهمي، سيد بني سهم في قريش. يَلتقي نسبه مع النبي في كعب بن لؤي.

ما نَحن عَلَيْه. فأجابهم أبو طالبٍ جوابًا رفيقًا، ورَدَّهم رَدًّا جَميلًا اقتَنعوا به.

٩٣ - ثمَّ لَم يَلْبَثوا أنْ عادوا إلى أبي طالبٍ ثانيةً وثالثةً، كلُّ ذلكَ يَطلُبونَ أنْ يَكُفَّ رَسولُ اللَّهِ ﷺ عَن مُعامَلَتِهِ إيَّاهُم، أو أنْ يُخَلِّيَ بَينَهم وبَينَهُ.

٩٤ - ولَمَّا رَأَوْا أبا طالبٍ غَيرَ مُسَلِّمٍ ابنَ أخيهِ، ورَأَوْا رَسولَ اللَّه ﷺ غيرَ مُقَصِّرٍ في الدَّعوَةِ إلَى الحَقِّ، جَعَلوا يُعَذِّبونَ ويُؤذونَ مَنْ أسْلَمَ مِن أهْلِ مَكَّةَ، ويُغْرونَ سُفهاءَهم بِأذى رَسول اللَّه ﷺ، يُشلونَهُم[١] عَلَيهِ.

٩٥ - وفي تلكَ المُدَّة أكرَمَ اللَّهُ رَسولَهُ ﷺ بِمُعجِزَةِ الإسْراءِ مِنَ المَسجد الحَرامِ إلى المَسجِدِ الأقصى ثمَّ إلَى السَّمواتِ العُلا.

٩٦ - وكان ذلك في اليقَظَة على الأصحِّ[٢]. وقد رأى من آيات رَبِّهِ الكُبْرى[٣] وحَديثُهُ طَويلٌ في الصَّحيحَيْنِ[٤]. وقَد كانَ ذلكَ في سنَةِ اثـنَـتَـيْنِ قبلَ الهِجرَةِ، وقيلَ: في سَنَةِ ثلاثٍ. والأشْهَرُ أنَّه كانَ في شَهر رَجَب.

٩٧ - ولَم يَزلِ المسلمونَ في تَزايُدٍ فَاغتمَّتْ قريشُ بذلك، وائتَمروا بدارِ النَّدْوَة وأجْمَعوا[٥] أمْرَهم على أنْ يَقطَعوا صلَةَ بَني هاشِمٍ وبَني المُطَّلِب. وتَعاهدوا عَلَى ذلكَ، وكَتبوا صحيفةً بِتَسجيلِ ذلكَ اشتَهَرت: بِصحيفَةِ القَطيعَةِ. وعلَّقوها في جَوفِ الكَعبَةِ إثباتًا لما تَضَمَّنَتْهُ، وتَوكيدًا على أنْفُسِهم أنْ لا يَنقُضوها. فانْحازَ بَنو هاشمٍ وبَنو المُطَّلِب، فَدَخلوا شِعْبَ أبي طالبٍ، مُسْتَهَلَّ المُحَرَّم سنةَ سَبعٍ من البعْثَةِ، وكان أبو طالبٍ يَخرج في تلكَ المُدة ويَحضرُ مَجامعَ قريشٍ عَلَى غَضَاضَةٍ. وبَقِيَ بنو هاشمٍ كذلكَ نحْوًا مِن ثَلاثِ سِنين.

---

(١) يشلون: قال أبو خراش، وروي لتأبط شرًّا:

لـمـا رأيـت بـنـي نـفـاثـة أقبـلـوا ... يُشْلُـون كُـلَّ مُـقـلِّـص خِـنَّـابِ

قال أبو محمد: يشلون: يدعون، ومنه: أشليت الكلبة إذا دعوتها ..، تاج العروس، (خنب).

(٢) يقول الشيخ ابن عاشور: « ولَقد يُرجِّحُ قولُ القائلين من السَّلَف بأنَّ الإسَراءَ بِرسول اللّه ﷺ كانَ يَقَظَةً وبالـجَسَد، عَلى قول القائلين بأنَّه كانَ في المنام وبالروح خاصةً. فإنَّ في حديث الإسراء أن اللّه فرَضَ الصَّلاةَ في لَيلَتِه. والصَّلاةُ ثاني أركانِ الإسْلام، فَهي حَقيقَةٌ (أي جديرة) بأنْ تُفْرَضَ في أكْمَل أحوال الوَحْيِ للنبي ﷺ وهو حَالُ اليَقظة فَافهم ». التحرير والتنوير (٢٣ / ١٥٠)، سورة الصافات، آية (١٠٢).

(٣) تضمين لآية: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النّجم: ١٨].

(٤) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، حديث رقم (٣٦٧٤).

(٥) في المطبوعة : وأجمعَ أمرهم. والراجح أنه خطأ.

٩٨ - وكانَ هِشامُ بنُ عَمْرِو بنِ رَبيعةَ[١] يَمُدُّهم في تلكَ المُدَّةِ بالطَّعَام واللِّباس؛ لأنَّ أباه عَمْرو بنَ رَبيعةَ، كانَ رَبيبًا لهاشمِ بن عَبْد مَنافٍ.

٩٩ - ثمَّ سَعى هِشامٌ هَذا إلى زُهَيرِ بنِ أبي أميَّةَ المَخزوميِّ، وهو ابن عاتكةَ[٢]، عمَّةِ رَسولِ اللَّه ﷺ، فقال له: أقَدْ رَضيتَ لأخوالكَ ما قَدْ عَلمتَ؟ أمَا إنَّهُم لَو كانوا أخوالَ أبي الحَكم - يَعني أبا جَهْلٍ - ما كانَ يَرضَى لَهُمْ بذلكَ. فاستَجاشَ لذلكَ زُهَيْرًا، والمُطْعَمَ بنَ عَديٍّ، وأبا البُختريِّ بنَ هشامٍ، وزمْعَةَ بنَ الأسود بن المُطَّلب، ودبَّروا أن يَنقُضوا الصَّحيفَةَ.

١٠٠ - فَلَمَّا أصْبَحوا، دَخَلَ زهيرٌ المسجدَ الحَرامَ فَقالَ: يا أهل مَكَّـةَ، أنأكُلُ الطَّعامَ، ونَلبسُ اللّباسَ، وبَنو هاشم هَلكَى، لا يُباعُ لَهم، ولا يُبْتاعُ منهم؟ واللَّهِ، لا أقْعُدُ حتَّى تُشقَّ هذه الصحيفةُ القاطعةُ الظَّالِمَةُ. فَظَاهَرَهُ على ما قالَ بقيَّةُ الخَمسَة. فَقالَ أبو جَهْل: هذا أمرٌ قُضِيَ بليلٍ. وقامَ المُطْعم بنُ عَدِيٍّ ليمزِّقَ الصحيفَةَ فَوجَدَها قد أفْنَتْها الأرَضَةُ[٣]، عَدَا السَّطْرَ الذي هو « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ».

١٠١ - وبَعدَ خُروجِ بَني هاشمٍ منَ الشِّعْبِ بِثمانِيَةٍ وعِشرينَ يومًا تُوُفِّيَ أبو طالبٍ. وبَعدَ مَوتِهِ بثلاثة أيام، تُوفِّيَتْ خَديجةُ - رَضيَ اللَّه عنها - وذلك في شهر رَمضانَ سَنَةَ تسعٍ من البَعْثَةِ أو سَنَةَ عَشرٍ.

---

(١) هِشَام بن عَمْرو بن رَبِيعَةَ بن الحَارِث بن حُبَيب بن جذيمة بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤي. قيل: إنه لم يزل ذا إيداع وكفّ عن أذى رسول اللَّه ﷺ والمسلمين، ولم يزل على دين قومه حتى كان فتح مكة فأسلَم يومئذٍ، شهد مع رسول اللَّه ﷺ حُنينًا. كان من المؤلفة قلوبهم، أعطاه رسول اللَّه ﷺ من غنائم حُنين دون المائة من الإبل. قاله ابن منده. وله أثر عظيم في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم وبني المطلب في مقاطعتهم واعتزالهم، وأن لا يبيعوهم ولا يبتاعون. ابن الأثير، أسد الغابة (٥ / ٣٧٨).

(٢) « مَذكور في المؤلفة قلوبهم؛ قاله أبو عمر، وقال: فيه نظر، لا أعرفه، وقال ابن منده وأبو نعيم كذلك، وقيل: ابن عبد اللَّه بن أبي أمية، وهو أخو أم سلمة وابن عم خالد بن الوليد بن المغيرة، فإن كان هو فهو ابن عمة النبي ﷺ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وذكره هِشَامُ بنُ الكَلْبِيِّ في المُؤلَّفة، وروى ابْنُ مَنْدَه عن السّائب شريكِ رسول اللَّه ﷺ، قال: ذهب بي عثمان وزُهير بن أبي أمية إلى رسول اللَّه ﷺ فأثنيا عليّ، فقال: « أنا أعْلَمُ بِهِ مِنكُما... » الحديث. وقال ابْنُ إسْحَاقَ: إنه كان ممن قام في نَقْض الصّحيفة التي كتبتها قريش على بني هاشم، ولم يُسْلِمْ منهم غيره وغير هشام بن عمرو، ووقع عند ابنِ سَعْدٍ في تسمية مَنْ كان يُؤْذي رسول اللَّه ﷺ من قريش ويواجهه بالعداوة، وعن يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ أنه عدّهم عشرين رجلًا وزيادة، ثم قال: ولم يسلم منهم أحد إلا أبو سفيان والحكم ابن أبي العاص »، ابن الأثير، أسد الغابة (٥ / ٤٢٣).

(٣) الأرَضَة: دودَة بَيضاءُ، تشبه النملة، تَنخَر العشبَ وغيرَه.

١٠٢ - وفي شَوَّالٍ من تلكَ السَّنَةِ، خَرَجَ رَسولُ اللَّه ﷺ إلى الطَّائِفِ[١] يَدْعوهُم إلَى الإسْلام، ويَطلُبُ منهم النُّصْرَةَ والمَنَعَةَ مِن كُفَّارِ قَومِهِ، فَلَم يَجدْ عِندَهُمْ خَيْرًا.

١٠٣ - ولمَّا جَاءَتْ قبائلُ العَرَبِ في مَوسِمِ الحَجِّ، عَرضَ عَلَيهِمْ نَفْسَهُ، ودَعاهُم إلَى الإسْلامِ، وأنْ يُصَدِّقوهُ، ويَمنَعوهُ حتَّى يُبَلِّغَ مَا بَعَثَه اللَّه لَهُ، وأن يَخرجَ مَعَ القبيلة التي تَستجيبُ لَه. فَلَم يَجد عندهمْ خَيرًا، ورَدُّوا عَلَيْهِ بجفاءٍ، إلَّا بَعضَ بَني شيبانَ، قالوا: سَنَنْظُرُ في أمْرِنا بَعدَ أنْ نَرجِعَ مِن الحَجِّ.

١٠٤ - فَعَلَ ذلكَ في مَوسِمَيْن أو ثَلاثةٍ.

١٠٥ - فَلمَّا كانَ المَوسمُ في سَنَةِ عَشْرٍ من البَعْثَةِ، لَقيَ رَسولُ اللَّه، عندَ العَقَبَة، سِتَّـةَ نفرٍ من الخَزْرَجِ[٢]، فَعرَضَ عَلَيهم الإسلامَ، فَقَبلوا وأسْلَموا. ولمَّا رَجَعوا إلى يَثربَ ذَكروا لِقَوْمِهم هَذا الأمرَ، ودَعَوهُمْ إلَى الإسلام فَفَشا فيهِمْ.

١٠٦ - وفي العامِ المُقبِل، وافَى مَوسِمَ الحجِّ اثنَا عشرَ رَجُلًا من الأوْس[٣] والخَزْرَجِ فأسلموا، ولمَّا أرادوا الانْصِرَافَ إلَى بَلَدِهِمْ، بَعَثَ مَعَهُم رَسولُ اللَّه ﷺ مُصْعَبَ بنَ عُمَيرٍ الدَّارِيَّ[٤] لِيُقرِئَهُم القرآنَ، ويُعَلِّمَهم شَرائعَ الإسلامِ.

---

(١) الطائف من محافظات مكةَ، تَقَع عَلى الـمُنحَدَرات الشرقية لجبال السرواتِ، عَلى ارتفاع (١٧٠٠) م فوق سطح البحر. وتبعد عن مكة (٦٨) كم.

(٢) الـخزرجُ هم بَنو الـخَزْرَج بن حارثة بن ثعلبةَ بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزْد بن الغَوث بن نبتِ بن مالك... ويقالُ لهم: بنو قيلة نسبةً لأمهم وهي: قيلةُ بنتُ الأرقم بن عمرو بن جفنةَ بن عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس، وقيل: قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلحاف بن قضاعة. ومن بطون الخزرج قديمًا بنو زريق وبنو بياضة وقوقل وساعدة وخَدرة وبنو النجَّار وبنو الحسحاس ومازن وبنو سلمة. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب.

(٣) الأوس من قبائل غسان بن الأزد القحطانية، هاجرت مع قبيلة الخزرج بعيدَ انهيار سدّ مأرب لتستوطن يثربَ في الحجاز، والأوس هم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن غسان بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ومن بطونهم النبت والجعادرة وبنو عبد الأشهل وبنو ظَفَر وبنو خطمة.

(٤) أبو عبد اللَّه، وقيل: أبو محمد، مُصعب بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف. أمُّهُ خَناس بنت مالك بن المضرب. شُهرَ بمُصْعَبِ الخير. صحابي من أهل السابقة في الإسلام، أسْلَم لمَّا كانَ النبي في دَار الأرقم، وكَتَم إسلامه خوفًا من أبَويْهِ وقَومه، ولما عُلمَ إسلامهُ قَاطَعَه أهله، فَساءت حاله. ثمّ هَرب من أهله وهاجَرَ إلى الحبشة، وبعد أن عاد منها هاجر إلى المدينة بَعدَ العقبة الأولى، وعَلَّمَ الناس القرآن والصلاة. شَهدَ مع النبي ﷺ وقعَةَ بَدر الكبرى وأحُدٍ، حيث حمَلَ لواء النبي حتى ماتَ في الحادي عَشَرَ من شهر شوال سنة (٣هـ)، وعمره أربعونَ عامًا، قتله ابن قَمئَةَ الليثي. ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣/ ٥).

١٠٧ - وفِي المَوسِمِ المُقْبِل، سنةَ اثنَتَيْ عَشْرَةَ من البعْثَةِ، آمنَ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَج[١] ثلاثةٌ وسَبعونَ رجلًا وامرأتانِ، وبايَعُوا رَسولَ اللَّهِ عندَ العَقَبَةِ[٢] مِن مِنًى[٣]، عَلَى أنْ يَمْنَعوه بما يَمنَعونَ به أبْناءَهُمْ ونِساءَهم.

١٠٨ - وجعلَ عَلَيهم اثنَيْ عَشَرَ نَقيبًا، يَكونونَ عَلى قَومِهم بالمَدينَةِ[٤]، وأمرَ أصْحابَهُ بالهِجْرَةِ إلَى المَدينَةِ.

* * *
* *
*

(١) اشتهرت هاتان القبيلتان - بعد هجرة النبي - بالأنصار لأنهم هم الذينَ نَصروه ودافعوا عنه. وَقد آخى الرسول بينهم وبين المهاجرين.

(٢) اسم مكان البيعة الأولى والثانية.

(٣) مِنى: منطقة صحراوية تبعد عَن شرق مكةَ حوالَيْ خَمسَة كيلومتراتٍ في الطريق بيـنَ مَكَّةَ وجبلِ عرفة. ويعرف هذا المكان كَموضعٍ لأداءِ إحدَى شعائر الحجّ إذ يبيت فيه الحجاج، كما أنها موقع رمي الجمرات، الشعيرة التي تؤدَّى بين شروق الشمس وغروبها، آخرَ أيام الحج.

(٤) اعتنى الشيخ بالتأريخ للمبايعات التي عقدها النبي في مختلف مراحل السيرة: « والمسلمونَ عاهَدوا اللَّـهَ في زَمَنِ الرَّسولِ ﷺ، عِدَّةَ عُهودٍ: أوَّلها: عَهدُ الإسلامِ كَما تَقَدَّم فِي صَدْرِ هَذه السّورَة - سورة المائدة -. ومِنها: عَهدُ المسلمين عندما يُلاقونَ الرّسولَ - عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ - وهو البَيعَة: أنْ لا يُشركوا باللَّـهِ شيئًا، ولا يَسرِقوا، ولا يَزْنوا، ولا يَقتُلوا أولادَهُمْ، ولا يَأتوا ببهتانٍ يَفتَرونَهُ بَيـنَ أيْديهم وأرْجُلِهم، ولَا يَعصونَه في مَعروفٍ، وهو عَيـنُ العَهد الذي ذَكرَه القرآن في سورة الـمُمتَحنَة عند ذكر بَيْعَةِ النِّساءِ المؤمنات، كما ورد في الصّحيح: « أنّه كانَ يُبايعُ المؤمنينَ عَلَى مِثْلِ ذلكَ »، ومنها بَيعَةُ الأنْصار رسولَ اللَّـه ﷺ في مَوسم الـحَجّ سَنَةَ ثلاثَ عشرَةَ مِن البعْثَة قبلَ الهِجرَة. وكانوا ثلاثةً وسبعينَ رجلًا التقَوا برسول اللَّـه بعد الموسم في العَقَبَة ومَعَهمُ العبّاس بنُ عبدِ الـمُطّلب، فبايعوا على أن يَمنَعوا رسولَ اللَّـه، كما يَمنعونَ نساءَهم وأبناءَهم، وعلى أنّهم يأوونَه إذا هاجَرَ إلَيْهِم. وقد تقدّم هذه البيعةَ بَيْعتان: إحْداهُما: سنة إحدى عشرَةَ من البعْثَة، بايعهُ نَفَرٌ من الـخَزْرَج في مَوسِمِ الـحَجِّ. والثّانية: سَنَةَ اثنتَي عشرَةَ من البعثة، بايعَ اثنَا عَشَرَ رَجُلًا مِن الـخَزرج في مَوسم الحجِّ بالعَقَبَة لِيُـبَلّغوا الإسلامَ إلى قَومهم. ومن المواثيق ميثاق بَيعَة الرّضوان في الـحُدَيْبِيَّة تَحت الشجرة سَنَةَ سِتٍّ من الهجرة، وفي كلّ ذلك واتّفقوا على السَّمع والطّاعة في الـمَنْشَطِ والـمَكْرَه ». التحرير والتنوير (٦ / ١٣٢).

الهِجْرَة[١]

١٠٩ - ولَمَّا حَلَّ شهرُ ربيعِ الأوَّل مِن سَنَةِ ثلاثَ عَشْرَةَ مِن البعثةِ، أذِنَ اللَّهُ لِرسولِهِ ﷺ في الهِجْرَة مِن مَكّـةَ إلى المَدينَةِ. وأخبرَ أبا بَكرٍ بذلكَ، فَرَغِبَ في صُحْبَتِه، (وَوَجَّهَا راحِلَتَيْهِما مَعَ عامر بنِ فُهَيرَةَ، ووَاعَدَاهُ غارَ ثورٍ بَعدَ ثلاثِ ليالٍ).

١١٠ - وخَرَجا في فَحْمَةِ العِشاءِ[٢] من لَيلَةِ الجُمُعَة من شَهر صَفَرٍ راجِلَيْن[٣]، وَوَصَلا غارَ ثَورٍ عندَ الفَجْرِ، فَباتا فيه ثلاثَ ليالٍ، وخَرجَا من صبحِ ثالِثَةٍ وهو صُبْحُ يَومِ الاثنينِ غُرَّةَ ربيعِ الأوَّلِ قاصِدَيْنِ المدينَةَ.

١١١ - وقَد أرْدَفَ أبو بكرٍ عامرَ بنَ فُهَيرَةَ - مَوْلاهُ - عَلى راحِلَتِهِ. ودليلُهما عَبدُ اللَّه ابنُ أرْقَطَ، ويُقالُ: أُرَيْقِط الدُّؤلي، من المُشركينَ، وكان هاديًا خِرِّيتًا؛ أيْ: عارِفًا بالمَسالكِ، فَسَلَكَ بهم طريقَ السَّواحلِ ما بَيْنَ عَسَفانَ ومَلَل، ولَم يَسلكْ بهِمْ الطَّريقَ المُعتادَ سلوكُها بَينَ مكّـةَ والمدينةَ، وهو طريقُ ثَـنِـيَّـةِ الوَداعِ.

١١٢ - ولَمّا عَلِمَت قُرَيشٌ بخُروج رَسولِ اللَّه ﷺ، حَميَ غَيظُهُم[٤]، وعَلِموا أنَّهُ أفلتَ مِن بَغْيِهم، وأنَّه سيكون في مَنَعَةٍ مِنْهُمْ.

١١٣ - وفِي صَحيحِ البخاريِّ: عَن سُراقَةَ بنِ جُعْشُم المُدْلِجيّ قال:

جاءَنا رُسلُ قُرَيشٍ يَجعلون[٥] في رسولُ اللَّه وأبي بَكرٍ دِيَةَ كلِّ واحدٍ مِنهما، لِمَن قَتَلَه أوْ أسَرَهُ. فَبينَما أنا جالسٌ في مَجلسٍ من مَجالِس قَومي، إذ أقبلَ رَجلٌ منهم حتَّى وَقَفَ عَلَينا فَقال: يا سراقةُ، إنّي قَد رأيتُ آنِفًا أسْوِدَةً بالسَّاحِلِ، أراها مُحَمَّدًا وأصحابَهُ.

---

(١) جُلُّ مَوادِّ هذا الفَصل تتكامل مع مقالٍ حَرَّره الشيخ ابن عاشور في المجلة الزيتونية، بعنوان: المَقْصَد العَظيم مِن الهِجْرَة، العدد (٣)، (٣/ ٩٤ - ٩٧) بتاريخ (محرم ١٣٥٨هـ/ مارس ١٩٣١م) حيث عدّد الشيخ عشرَ حِكَمٍ وغاياتٍ للهجرة.

(٢) « فَحْمة الليل: أوّله، وقيل: أشدّ سواد في أوّله، وقيل: أشدّه سوادًا، وقيل: فحمته ما بين غروب الشمس إلى نوم الناس، سميت بذلك لحرّها لأن أوّل الليل أحرّ من آخره ولا تكون الفحمة في الشّتاء ». ابن منظور، لِسانُ العرب (ف. ح. م).

(٣) أي: سيرًا على الأقدام.

(٤) أي: اشتدَّ غضبهم.

(٥) يَجعلون هنا بمعنى: يَعِدونَ.

قالَ سُراقَةُ: فَعرفتُ أنّهم هُم. ورَجوتُ أنْ أَلْحقَهُم، فآتِيَ بِهِما. قالَ: فَقلتُ لَه: إنّهم لَيسوا بهم، ولَكنَّكَ رأيتَ فُلانًا وفُلانًا، انْطَلَقوا بِأعْيُنِنَا، يَبتَغونَ ضَالَّةً لَهُم.

فَقالَ: لَعَلَّهُ.

ثمّ قُمتُ، فَرَكِبتُ فَرَسِي، ورَفَعتُها تُقَرّبُ حتَّى دَنوتُ مِنهم، فَسمعتُ قِراءَةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وهو لا يَلتَفِتُ.

فَلَمَّا قَربتُ مِنهُم، ساخَت يَدَا فَرَسي في الأرض، فَخَرَرْتُ عَنْها، ثمّ زَجَرتُها فَنَهَضَتْ. فَلم تَكَدْ تُخرِجُ يَدَها، فَلمَّا استوت قائمةً، إذَا لِأثَرِ يَدِها عَنانٌ ساطعٌ في السَّماء - يَعني دخانًا - فَنادَيْتُهم بِالأمان، فَوقَفوا حتَّى جِئْتُهمْ.

وَوَقَعَ في نَفْسي أنْ سَيظْهَرُ أمرُ رَسولِ اللَّه ﷺ، فقلتُ له: إنّ قَومَكَ قَدْ جَعلُوا فيكَ الديةَ لمن جاءهم بِكَ، وإنِّي لا أُريبُكُمْ ولا يَأتيكُمْ مِنِّي شيءٌ تكرهونه. ورَجَعَ سُراقَة وكَتَمَ أمْرَهم.

هذا مُخْتَصَرُ خَبَرِه، وهو في صحيح البخاريِّ أطولُ(١).

١١٤ - وسَمِعَ المُسلمونَ في المَدينَة بِخُروجِ رَسولِ اللَّه ﷺ من مَكَّةَ مُهاجرًا إلَيهِمْ، فكانوا يَغْدونَ كلَّ غَداةٍ إلَى الحَرَّة، فَينتَظرونَهُ حَتَّى يَردَّهمْ حَرُّ الظهيرة.

---

(١) البخاريّ: قال ابن شهاب وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سُراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سُراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفًا أسودةً بالساحل أراها محمدًا وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجتُ به من ظهر البيت فحططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تُقَرِّبُ بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول اللَّه ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فَخَرَرت عنها ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمةً إذا لأثر يديها عُثَان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول اللَّه ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يَرزآني ولم يسألاني إلا أن قال: «أخفِ عنا». فسألته أن يكتب لي كتابَ أمنٍ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول اللَّه ﷺ...

١١٥ - فَانقَلبوا يومًا، بَعدَما أطالُوا الانتظارَ، فَلمَّا آوَوْا إلى بُيوتِهم، إذَا يهوديٌّ كانَ على أُطُمٍ[١] من آطامِهِمْ بَصُرَ بِرَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَلم يَمْلِك اليهوديُّ أنْ نادى بأعلى صوته: يــا مَعاشِرَ العَرب، هذا جَدُّكم - أيْ بَخْتُـكُم - الذي تَنتظرونَ.

١١٦ - فَثارَ المُسلمونَ إلى السِّلاحِ، فَتَلَقَّوا رَسولَ اللَّه ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّة[٢].

١١٧ - وأقبلَ رسول اللَّه ﷺ مِن العَرَجِ، ثمّ مِن ثَنِيَّة الغائِرِ، فَتَلَقَّاهُ المسلمون من ظَهْرِ الحَرَّة، فَعَدَلَ بهم ذاتَ اليَمين حتَّى نَزَلَ قُبَاء[٣] في بَني عَمرو بنِ عَوفٍ، وذلك يومَ الاثْنَيْنِ الثاني عَشَرَ، وقيلَ: الثامنَ من ربيع الأوّل، المُوافق لِشَهْرِ أيْلول أي: اشتَنْبَـرَ[٤].

١١٨ - ونَزَل بدارِ كلثوم بنِ الهدْم[٥]، وكان يَجْلِسُ للنَّاس في بَيْتِ سَعْدِ بنِ خَيثَمَةَ[٦]، المَدْعُوِّ: بِبَيْتِ الأعْزَب. وبَقيَ هنالكَ بِضعَ عَشرَةَ لَيلَةٍ، ثمّ دَخلَ المَدينة يومَ الجُمُعة، والنَّاسُ سائرونَ مَعَه ما بَينَ ماشٍ وراكِبٍ.

---

(١) أطم: حِصن مَبني بحجارة، وقيل: هو كلُّ بَيت مُرَبَّع مسطح. ابن منظور، لسان العَرَب، أطم (أ. ط. م).

(٢) الحرّة: هي الأرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار، وتنتشر في عدة أماكن منها قرب المدينة، ولكل واحدة من هذه الحَرَّات اسمها الخاص. ولا زال بعضها موجودًا قرب المدينة. دائرة المعارف الإسلامية، (٧ / ٣٦٣).

(٣) قرية قُبَاء، إحدى أحياء المدينة من الجَنوب، يجري فيها وادي رانوناء. كانت في القديم قريةً مستقلة على طريق القوافل القادمة من مكة، ثم امتد العمران إليها فاتصلت بضواحي المدينة. تتميز قباء بكثرة المياه الجوفية، وخصوبة تربتها لذا تكثر فيها مزارع النخيل، والعنب، والبساتين. وفيها مَسجد قُبَاء الذي بناه الرسول عند وصوله إليها. وهو أول مسجد في الإسلام وكان النبي ﷺ يزوره بين الحين والآخر.

(٤) الموافق لـــ (٢٢ سبتمبر ٦٢٢م).

(٥) هو ابن امرئ القيس بن الحارث الأنصاري العوفي. شَيخ الأنصار. نَزلَ عَليه النبي أوّلَ مقدمه المدينة بقباء وكان قد شاخ. قال ابن سعد: « كان كلثوم بن الهدم رجلًا شريفًا وكان مسنًّا، أسلم قبل مقدم النبي ﷺ المدينة ، فلما هاجر، نَزلَ عليه. وكان يتحدث في منزل سعد بن خيثمة وكانَ يسمى منزل العزاب. ثم لم يلبث أن توفي وذلك قبل بدر وكان رجلًا صالـحًا ». الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣ / ٤٦٧).

(٦) يقول ابن سعدٍ: « سَعدُ بن خَيثَمَةَ، الصَّحابي الجليل، اسمه سعد بن خيثمة بن الحارث، بن مالكٍ، بن كعب ابن النحاط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم، ويُكْنَى أبا عبد اللَّه. وأمُّهُ هندُ بنت أوس بن عدي بن أمية ابن عامر بن خطمة بن مالك من الأوس، من أوائلِ الأنصار السَّابقينَ لدخول الإسلام، وكان مِنَ الذين بَايَعوا رَسولَ اللَّه في بَيعَةِ العَقبة الكبرى، وكانَ أحَدَ النُّقبَاء الاثني عَشَرَ، الذين قابلوا رسول اللَّه قَبلَ البَيعَة، آخى رَسول اللَّه بَينه وبين أبي سَلمَةَ بن عبد الأسد، ولما ندب رسول اللَّه المسلمين إلى الخروج إلى عير قريش أسرعوا، قال خيثمة بن الحارث لابنه سَعد: إنَّه لا بدَّ لأحَدنَا من أن يقيم. فآثِرْني بالخروج، وأقِمْ مَع نِسائكَ فَأبَى سَعدٌ وقال: لو كَان غَير الـجَنَّة آثرتك به، إنِّي أرجو الشَّهادَة في وجهي هذا، فاسْتَهَمَا فَخرج سَهم سَعد، فخرج مع رسول اللَّه ﷺ إلى غزوة بدرٍ، فاستَشهد يومئذٍ. قَتَلَه عَمرو بن عَبدِ وُدّ ». الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣ / ٣٦٦).

١١٩ - وصَعدت ذَوات الخُدورِ عَلى السُّطوح يَقُلنَ: (مِن الرَّمَل، عَروضُه: مَجْزوٌّ، وضَرْبُه مُعَرًّى):

طَـلَـعَ البَـدرُ عـلَـيْـنَـا	مِـن ثَـنِـيَّـاتِ الـوَدَاع[1]
وَجَـبَ الشّـكـرُ عَـلَـيْـنـا	مَـا دَعـا لـلَّـهِ دَاع
أيُّـهـا المَـبـعـوثُ فـيـنَـا	جـئـتَ بِالأمْـرِ المُـطَـاع

١٢٠ - وأخَذَ السُّودانُ يَلعَبونَ بالدَّرَق[2] والحِرَابِ. ونَزَلَ رَسولُ اللَّه ﷺ في دُور بَني النجّارِ، بدار أبي أيُّوبٍ، خَالد بنِ زَيدٍ النَّجَّاريِّ الخَزْرَجيِّ[3].

١٢١ - ثمَّ شَرَعَ في بنَاء مَسْجِدِهِ بالمدينة، وأتَمَّه في صَفَرٍ من العام المُقْبِل، وجَعلَ بُيوتَ أزواجِهِ حَولَ المَسجد تُفتَحُ أبوابُها إلى المسجد. وجعلَ لكلِّ امرَأةٍ مِنهنَّ بَيتًا، وجَعلَ لِكُلِّ بَيْتٍ حُجْرةً[4]. وكان كلَّما تَزَوَّجَ امرأةً بنى لها بيتًا.

١٢٢ - ومَكثَ رسولُ اللَّه ﷺ في دارِ أبي أيُّوبٍ سَبعَةَ أشهرٍ، ثم انتَقَلَ إلَى سُكنى بُيوتِهِ قَبلَ أن يَكمُلَ بناءُ المَسجدِ.

* * *
* *
*

---

(١) ثَنِيَّاتُ الوداع يدخل منها إلى المدينة الوافد من الشام، فلعل هذا البيت قديمٌ مع غيره، وألحق به البيتان. (المُصَنِّفُ).

(٢) درق: الدَّرَقُ: ضرب من التِّرَسةِ، الواحدة: دَرَقة تتخذ من الجلود. غيره: الدرقة الحَجَفة وهي تُرْس من جلود ليس فيه خشب ولا عَقَب، والجمع دَرَقٌ وأدراق ودِراقٌ. ابن منظور، لِسان العرب (د. ر. ق).

(٣) أبو أيوب الأنصاري، خالد بن زيد بن كليب الخزرجي النجاري، صحابي من الأنصار، شهد بيعة العقبة وبدرًا وسائرَ المشاهد مَع النبي ﷺ، وهو الذي خصَّه بالنزول في بيته عندما قدم المدينة، وأقام عنده حتى بنى حجراته ومسجده وانتقل إليها. آخى الرسولُ ﷺ بَينَه وبين الصحابي مصعب بن عمير. ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣ / ٣٦٨).

(٤) يصف الشيخ هذه الحجرات في تفسيره: « وكانت الحجرات تفتح إلى المسجد. وكانت الحجرات تِسعًا وهي من جريد النخل؛ أي الحواجز التي بين كل واحدة والأخرى، وعلى أبوابها مُسوح من شَعَرٍ أسودَ، وعَرْضُ البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحو سبعة أذرع، ومساحة البيت الداخل؛ أي الذي في داخل الحجرة عشرة أذرع؛ أي: فتصير مساحة الحجرة مع البيت سبعة عشر ذراعًا. قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سُقفها بيدي. وإنما ذكر الحجرات دون البيوت؛ لأن البيت كان بيتًا واحدًا مقسمًا إلى حجرات تسع ». التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٢٦، ٢٢٧).

ظهورُ الإسلامِ في المَدينة

١٢٣ - دخلَ أهلُ المَدينةِ في الإسلام أفواجًا مِمَّنْ كانُوا مُشركينَ ونَفرٌ مِنَ اليَهودِ. وَنَشأَ مِنَ ذَلكَ فَريقٌ لَم يَكنْ له نظيرٌ في أهلِ مَكَّةَ، وهو فَريقٌ أظْهروا الإسلامَ في ظاهِرِ أمْرهم وأبْطنوا الكُفْرَ.

١٢٤ - فأنْبَأ اللَّه تَعالى رَسولَهُ بِهِمْ ودَعاهُمْ: بالمُنافِقينَ.

١٢٥ - وَكانَ رَأسَهُمْ عبدُ اللَّه بنُ أُبَيٍّ ابن سَلولٍ[١]: اشتَهرَ بينَ المُسلمينَ بالنِّسبَةِ إلَى أمِّه مَعَ أبيه، تَفرِقَةً بَينَهُ وبَينَ ابنِه عَبدِ اللَّه بن عَبدِ اللَّه[٢]، الذي كانَ مِن خِيرَة المُسلمين، وأحبِّهِم لِرَسول اللَّه ﷺ[٣].

١٢٦ - وآخَى رَسولُ اللَّه ﷺ بينَ المُهاجرين والأنْصارِ، وكانَ المهاجرونَ زُهاءَ خَمسينَ.

---

(١) عبد اللَّه بن أبي ابن سلول من أبرز شخصيات يثرب وأحد قادة الخزرج. كان شديد العداوة للنبي ﷺ ولكن مهادن ظاهريًّا، يُلقَّب بكبير المنافقين. قيل: إنه كان على وشك أن يكون سيد المدينة قبل أن يصلها النبي ﷺ.

(٢) عَبدُ اللَّه بن عَبد اللَّه بن أبي ابن سلول، ابن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الأنصاريّ الخزرجي. كان من كبار الصحابة وأخيارهم، وله الكثير من المواقف التي أظهَر فيها شدة إيمانه بالرسول. اشتهر بالموقف الذي ذكره ابن عاشور يوم وفاة أبيه. ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠٧).

(٣) عاد الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير لهذه القصة: « وكان النبي ﷺ يصلي صلاة الجنازة على من مات من المنافقين؛ لأنّ صلاة الجنازة من الاستغفار. ولمّا مات عبدُ اللَّه بن أبي ابن سلول رأسُ المنافقين بعد نزول هذه الآية، وسألَ ابنُه عبدُ اللَّه بنُ عبد اللَّه النبيَّ ﷺ أن يصلي عليه، فصلّى عليه كرامة لابنه وقال عمر للنبي ﷺ: قَد نَهاكَ رَبُّكَ أن تُصلِّي عليه، قال له على سبيل الرد: « إنّما خَيّرني اللَّه ». أيْ لَيسَ في هذه الآية نهيٌ عن الاستغفار، فكان لصلاته عليهم واستغفاره لهم حكمة غير حصول المغفرة بل لمصالح أخرى، ولعلّ النبي ﷺ أخَذَ بأضعف الاحتمالين في صيغة ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠] وكذلك في لفظ عدد ﴿ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ استقصاء لمظنّة الرحمة على نحو ما أصّلناه في المقدمة التاسعة من مقدّمات هذا التفسير..(...) وسبب نزول هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ ما رواه البخاري والترمذي من حديث عبد اللَّه بن عباس عن عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنهما - قال: « لما مات عبد اللَّه بنُ أُبَيّ ابن سَلُول دُعِي له رسول اللَّه ليصلي عليه، فلمّا قام رسول اللَّه وثَبْتُ إليه فقلت: يا رسول اللَّه، أتصلّي على ابن أُبيّ وقد قال يومَ كذَا وكذا كذا وكذا، أَعَدّدُ عليه قولَه، فتبسّم رسول اللَّه وقال: « أخِّرْ عنّي يا عمرُ » فلمّا أكثرت عليه قال: « إنّي خُيِّرتُ فاخترتُ، لو أعلم أنّي لو زدت على السبعين يُغْفَرُ له لزدت عليها »، قال: فصلى عليه رسول اللَّه ثم انصرف فلم يمكث إلّا يسيرًا حتّى نزلتِ الآية من براءة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤]، قال: فعجبت بعدُ من جُرْأتِي على رسول اللَّه، واللَّه ورسوله أعلم اهـ ». وفي رواية أخرى: فلم يصلِّ رسول اللَّه على أحد منهم بعد هذه الآية حتى قُبض ﷺ، وإنّما صلّى عليه وأعطاه قميصه ليكفّن فيه إكرامًا لابنه عبدِ اللَّه وتأليفًا للخزرج ». التحرير والتنوير (١١/ ٢٧٩ - ٢٨٤).

١٢٧ - وشَرَع رَسولُ اللَّه ﷺ يُدبِّرُ أحْوالَ المسلمين، ويُقيمُ عمادَ جَماعَتِهم، ويَسوسُ نِظامَهُمْ.

١٢٨ - واتَّسعَ نزولُ شَرائعِ الإسلام. وتَصرَّفَ رسولُ اللَّه - عَلَيْه الصَّلاةُ والسَّلام - تصرُّفَ الأئِمَّةِ القادَةِ[1]، وأخَذَ الإسلامُ يَنتشرُ في قَبائلِ العَرَبِ الذينَ حَوْلَ المَدينَةِ.

* * *
* *
*

(١) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (ص٢٠٨)، (تحقيق الميساوي).

الغَزَواتُ

١٢٩ – وغَزَا رَسولُ اللَّه ﷺ غَزواتِه للذَبِّ[١] عَن حَوْزَةِ المُسلمينَ، وخَضْدًا لِشوكَةِ أذَى المُشركينَ. فَقد كان دَأْبُهم – بَعدَ الهِجرَةِ – تأليبَ العَرَبِ وإغراءَهم بِمُناوَأة المسلمين.

١٣٠ – وكانوا يجدونَ مِن خِداع المُنافقينَ وكَيْدِ اليَهود مَا وَسَّعَ أطماعَ أعداءِ الدِّينِ بانْحلالِ عُرَاهُ، وانفضاضِ مَنْ حَولَهُ قَبلَ أن يَبلُغَ مُنتهاه، فأطْلَعَ اللَّه رسولَه على ذلك وأمَرَهُ بالانْتِصارِ للدِّينِ.

١٣١ – ولِذلكَ لَمَّا غَزَتِ الأحزابُ المَدينَةَ [وأمرَ[٢]] بِحَفرِ الخَنْدَقِ، وهَزَمَ اللَّه الأحزابَ، قَال رسولُ اللَّه ﷺ: « **الآنَ نَغزوهم، ولا يغزونَنا** »[٣].

١٣٢ – وقَد أظهرَ اللَّه مِن نَصْرِ المُسلمينَ – مَعَ قِلَّتِهِمْ – ما كانَ مِن مُعجزاتِ هذا النَّبيِّ الكريم ﷺ.

١٣٣ – وجُملَةُ غَزواتِهِ سبعٌ وعشرونَ غَزوَةً، وهي التي كان رسولُ اللَّه ﷺ حاضرًا فيها بِنَفْسِهِ.

١٣٤ – وجُملَةُ السَّرايَا التي وَجَّهَهَا بِقَصْدِ القِتالِ أو التطلُّعِ أو الحِراسَةِ سبعٌ وأربعونَ سَرِيَّةً، وهي التي لَم يَحْضُرْها بِنَفْسِهِ.

---

(١) أي: للدفاع عن رقعة الإسلام والمسلمين.

(٢) نقصٌ في المطبوعة أكملناهُ بهذا الفعل ليستقيمَ المعنى.

(٣) يقول ابن حجر العسقلاني: « حَدَّثنا أبو نعيم: حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن سليمان بن صرد قال: قَال النبي ﷺ يومَ الأحزاب: « نغزوهم، ولا يغزوننا »، الحديث الحادي عشر حَديث سليمان بن صُرَد بن الجون بفتح الجيم الخزاعي، صَحابيٌّ مَشهور. يقال: كان اسمه يَسار فغيره النبي ﷺ، لَيس لَه في البخاري سِوى هذا الحديث وآخر تقدم في صفة إبليس، وله طريق في الأدب. وقد صرح في الرواية الثانية بسماع أبي إسحاق له منه، قوله: « **نغزوهم ولا يغزوننا** » في رواية أبي نعيم في « المستخرج » من طريق بشر بن موسى عن أبي نعيم شيخ البخاري، فيه « **الآن نَغزوهم** » وهي في رواية إسرائيل التي تلو هذه، وقوله في رواية إسرائيل: « **حين أُجلي** » بضم الهمزة وسكون الجيم وكسر اللام أي: رجعوا عنه، وفيه إشارة إلى أنهم رجعوا بغير اختيارهم بل بصنع اللَّه تعالى لرسوله، وذكر الواقدي أنه ﷺ قال ذلك بعد أن انصرفوا، وذلك لسبع بقين من ذي القعدة، وفيه علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ. وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر شاهدًا لهذا الحديث. ولفظه: أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب وقد جمعوا له جموعًا كثيرة: « **لا يغزونكم بعد هذا أبدًا ، ولكن أنتم تغزونهم** ». العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحديث (٣٨٨٣).

١٣٥ - وأعظم الغَزواتِ غَزوةُ الفَتْحِ، فَتح مَكَّةَ. فلمَّا فُتِحتْ مَكَّـةُ تسارَعَ العَربُ إلى الدُّخول في دين الإسلامِ أفواجًا، وبَدَّلَ اللّه بالعَذْب ما كانَ مِن دِينِهِمْ أُجاجًا. وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها(١)، وجَعَلَ بَينَهُمْ أُخُوَّةً ما كانوا - مِن قَبلُ - يَدرُونَ لَها كُنْهًا.

١٣٦ - ووَفَدَت الوفودُ إلى رَسولِ اللّه ﷺ، مِن جَميع مَنْ أسلَمَ مِن قَبائل العَرَبِ وأحْيائِها، تَتَلَقَّى ما هو للقلوب إكْسِيرُ(٢) إحْيائِهَا، وتُبَلِّغُ إسلامَ مَنْ وَراءَها، وتَقْفُلُ إليهم بألطافِ الشَّريعَةِ السَّمحة ورَونق رُوائِها.

١٣٧ - فكانَ رَسولُ اللّه ﷺ يُرشِدُهمْ ويُضَيفُهم، ويُنزِلُهم بِدِيارِ أصْحابِهِ، ويُجيزُهُمْ عندَ رُجوعِهِمْ، وجَعَلَ المُوَكَّلَ بافتقادِهِمْ بلالَ بنَ رباحٍ ﷺ(٣).

١٣٨ - وحَجَّ رَسولُ اللّه ﷺ بالنَّاسِ في السَّنَةِ العاشِرة من الهجرَةِ. واجْتَمَعَ في تلكَ الحَجَّة من المُسلمينَ أربعونَ ألفًا عَلَى الأصَحِّ. وخَطبَ في تلكَ الحَجَّةِ خُطْبَتَه العَظيمَةَ.

١٣٩ - ونَزلَ عَلَيه في يوم عَرَفَةَ(٤) من تلكَ الحَجَّةِ قولُه تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣](٥).

---

(١) تضمين لآية: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(٢) لم يرد ذكرُ هذه الكلمة في المعاجم العربية مثلَ لسان العرب، مقاييس اللغة، والصّحاح في اللغة... وقد أخذت من الأصل الإغريقي (Ksêron) الذي يعني دواءً مَصنوعًا من مسحوقات جافة. وهي هنا استعارَةٌ تَعني: أسباب الحياة الروحية والدَّواء من أمْراض الجاهلية.

والإكسِير - بالكسر - الكيمياءُ [القاموس المحيط]، والإكسير: المركب من الركنين العظيمين الشعر والدم أو من ثلاثة أجزاء أو من أربعة (أو دواء) [تاج العروس]، وورد في « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي »:

لو استعار الورى إكسير سيرته ... لكان أجودهم في سيرة الملك

(٣) بِلال بنُ رَباحٍ، الحَبَشي، أبو عبد اللّه، من الصحابة السابقين إلى الإسلام. كان عبدًا لبني جمح في قريش، أعلنَ إسلامَه فَعَذَّبه سيده أمية بن خلف. فاشتراه أبو بكرٍ وأعتقه. اشتهر بصبره على التعذيب، كان جميلَ الصوت، ولذلكَ كلفه النبي - عندما ظَهَر الأذان - بمهمة النداء للصلاة. توفي بلال في الشام ودفن في دمشق سنة (٢٠ هـ). وقبره هناك. ابن سعد، الطبقات الكبرى (٣/ ١٧٤).

(٤) يومُ عَرَفَةَ من أفضل الأيام عند المسلمين ويُوافق التاسعَ من شهر ذي الحجة وفيه يَقف الحجاج بعرفةَ، مَوقع قريب من مكةَ. وعَرَفَة أو عَرفات تبعد عن مكة (٢٢) كم.

(٥) جاء في تفسير التحرير والتنوير: « إن كانت آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] نزلت يَومَ حجّة الوداع بعد آية: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] بنحو العامين، كما قال الضحّاك، كانت جملة مُستقلّة، ابتدائية، وكان وقوعها في القرآن عَقب التي قبلها، بتوقيفِ النبي ﷺ، بجمعهَا مع نظيرها في إكمال أمر الدّين، =

شأنُ رَسولِ اللّهِ ﷺ

١٤٠ – كانَ شَأنُ رَسولِ اللّه ﷺ في خارِج أبْياتِه وفي أبْياتِهِ تَبليغَ الدَّعوةِ وإبلاغَ القُرآنِ، وتَدبيرَ أمورِ المُسلمينَ وتَعليمَ أصْحابِهِ، والإمامَةَ بالنَّاسِ، والخُطبَةَ لَهمْ، والقَضاءَ بَينَ الخُصومِ، وقَضاءَ حَوائِجِ أهْلِ الحَاجَاتِ، ولقَاءَ الوُفودِ، وتَدبيرَ الغَزَواتِ والسَّرايَا.

١٤١ – وكانَ يَجلسُ للنَّاسِ في مَجلِسِهِ بالمَسْجِدِ صَباحًا ومَساءً، إذا لَم يَكن قد غَابَ في مُهِمٍّ للمُسلمينَ. وكانَ مَوضِعُ مَجلِسِهِ ما بَينَ مِنبَرِه وبَيتِ عائِشَةَ، وهو المَوضِعُ المُشْتَهرُ بالرَّوضَةِ، لقولِه ﷺ: « ما بَينَ بَيْتِي ومِنْبرِي رَوضَةٌ مِن رياضِ الجَنَّة »[1]. وكانَ يَجلسُ فيه عَلى

= اعتقادًا وتشريعًا، وكان اليوم المعهود في هذه غير اليوم المعهود في التي قبلها. وإن كانتا نزلتا معًا يومَ الحجّ الأكبر، عام حجّة الوداع – وهو ما رواه الطبري عن ابن زيد وآخرين. وفي كلام ابن عطيّة أنّه منسوب إلى عمر بن الخطّاب، وذلك هو الراجح الذي عَوّل عليه أهل العلم، وهو الأصل في موافقة التلاوة للنزول – كان اليومُ المذكور في هذه وفي التي قبلها يومًا واحدًا، وكانت هذه الجملة تعداداً لمنّة أخرى، وكان فصلُها عن التي قبلها جاريًا على سنن الجمل التي تساق للتعداد في منّة أو توبيخ، ولأجل ذلك: أعيد لفظ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ ﴾، ليتعلّق بقوله: ﴿ أَكۡمَلۡتُ ﴾، ولم يستغن بالظرف الذي تعلّق بقوله: ﴿ يَئِسَ ﴾، فَلَم يقل: وأكملت لكم دينكم. والدّين: ما كلف اللّه به الأمّة من مجموع العقائد، والأعمال، والشرائع، والنظم... فإكمال الدين هو إكمال البيان المراد للّه تعالى الذي اقتضت الحكمة تنجيمه، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد، التي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام التي آخرها الحجّ بالقول والفعل، وبعد بيان شرائع المعاملات وأصول النظام الإسلامي، كان بعد ذلك كلّه قد تمّ البيان المراد للّه تعالى في قوله: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾، [النحل: ٨٩] وقوله: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [النحل: ٤٤]، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنّة كافيًا في هدي الأمّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافيًا في كلّ وقت بما يحتاجه المسلمون. ولكن ابتدأتْ أحوال جماعة المسلمين بسيطة ثمّ اتّسعت جامعتهم، فكان الدين يكفيهم لبيان الحاجات في أحوالهم بمقدار اتّساعها؛ إذ كان تعليم الدين بطريق التدريج ليتمكّن رسوخُه، حتّى استكملت جامعة المسلمين كلّ شؤون الجوامع الكبرى، وصاروا أمّة كأكمل ما تكون أمّة، فكمل من بيان الدين ما به الوفاء بحاجاتهم كلّها، فذلك معنى إكمال الدين لهم يومئذٍ. وليس في ذلك ما يشعر بأنّ الدين كان ناقصًا ولكن أحوال الأمّة في الأمـمِيَّة غير مستوفاة، فلمّا توفّرتْ كمل الدين لهم فلا إشكال على الآية. وما نزل من القرآن بعد هذه الآية لعلّه ليس فيه تشريع شيء جديد، ولكنّه تأكيد لما تقرّر تشريعه من قبل بالقرآن أو السنّة ». التحرير والتنوير (٦ / ١٠٢، ١٠٣).

(١) رواه الشيخان عن أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ: البخاري (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١)، وأما لفظ: « ما بين قبري ومنبري »، فهذا جاء في رواية ابن عساكر لصحيح البخاري، وما زال بعض العلماء – كالإمام النووي – يعزو هذا اللفظ لصحيح البخاري، بل إن البخاري نفسه لما أخرج الحديث في كتاب: « فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة » بلفظ: « بيتي ومنبري » بَوّب عليه بقوله: باب فضل ما بين القبر والمنبر، وكذلك جاء هذا اللفظ في روايات أخرى في بعض الحديث. وقال الحافظ ابن حجر – رحمه اللّه –: « وترجم بذكر القبر، وأورد الحديثين بلفظ البيت؛ لأن القبر صار في البيت، وقد ورد في بعض طرقه بلفظ: (القبر) ، قال القرطبي: الرواية الصحيحة « بيتي »، ويروى =

دُكَّانَةٍ مُرتَفِعَةٍ، مُتَّخَذَةٍ من طينٍ ويُحيطُ به جُلَساؤُه حَلَقًا.

١٤٢ - وكانَ في بَعض النَّهار، يَدخُل بُيوتَ أزْواجِه ويَتَفَقَّدُ شُؤونَهنَّ، ويُعينُ على بَعض عَمَلِ مَنْزِلِهِ.

١٤٣ - قَالَ عليُّ بن أبي طالبٍ ﷺ: « كانَ رَسولُ اللَّهِ إذا أوى إلى مَنْزِله جَزَّأَ دُخولَهُ ثَلاثَةَ أجْزاءٍ: جُزْءًا لِلَّه تَعالَى، وجُزءًا لِأهْله، وجُزْءًا لِنَفسِهِ. ثمَّ جَزَّأَ جُزْأَه بَيْنَهُ وبَينَ النَّاسِ فَيَردُّ ذلكَ على العامَّةِ بالخاصَّة ولا يَدَّخِرُ عَنهمْ شَيئًا »(١).

١٤٤ - وكَان فِراشُه الذي يَنامُ عَلَيْه مِن أَدَمٍ أيْ: جلدٍ مَدبوغٍ، مَحشوٌّ بِليفٍ، وفَوقَه مَسْحٌ مَثْنِيٌّ ثَنْيَتَيْنِ.

١٤٥ - وكانَ يَلبسُ القَميصَ، ولِقَميصِه كُمَّانِ يَبلغان إلى الرُّسغِ، وجَيْبٌ وزِرٌّ. ويَلبس الرِّداءَ والإزارَ، ويَجعلُ إزارَهُ إلى نِصفِ السَّاقِ. ولَبسَ الحُلَّةَ الحَمراءَ والبُردَيْنِ الأخْضَرَيْنِ، وكانَ يَلْبَسُ العِمامَةَ البَيْضَاءَ والسَّوداءَ، ويُسدِلُ آخِرَها بَينَ كَتِفَيْهِ، ولبسَ السَّراويلَ في الحَضَرِ والسَّفَر ومَدَحها، فَقال: « **إنِّي أمرتُ بالسّترِ، فَلم أجِدْ شَيئًا أَسْتَرَ منه** »(٢).

= « قبري »، وكأنه بالمعنى؛ لأنه دفن في بيت سكناه. فتح الباري (٣ / ٧٠). ومعناه: أنَّ البقعة التي بين المنبر وبيت النبي ﷺ ستكون بذاتها في الآخرة روضة من رياض الجنة. يقول القاضي عياض رحمه اللّه: قوله: « **روضة من رياض الجنة** » يحتمل معنيين: أحدهما: أنه موجب لذلك، وأن الدعاء والصلاة فيه يستحق ذلك من الثواب، كما قيل: « **الجنة تحت ظلال السيوف** ». والثاني: أن تلك البقعة قد ينقلها اللّه فتكون في الجنة بعينها ». قاله الداودي. انتهى. القاضي عياض، الشفا (٢ / ٩٢). ويقول ابن عبد البر: « قال قوم: معناه أن البقعة ترفع يوم القيامة فتجعل روضة في الجنة. وقال آخرون : هذا على المجاز. كأنهم يعنون أنه لما كان جلوسه وجلوس الناس إليه يتعلمون القرآن والإيمان والدين هناك، شبه ذلك الموضع بالروضة، لكرم ما يجتني فيها، وأضافها إلى الجنة لأنها تقود إلى الجنة، كما قال ﷺ : « **الجنة تحت ظلال السيوف** » : يعني أنه عمل يوصل به إلى الجنة، وكما يقال: الأم باب من أبواب الجنة. يريدون أن برها يوصل المسلم إلى الجنة مع أداء فرائضه. وهذا جائز سائغ مستعمل في لسان العرب ». التمهيد (٢ / ٢٨٧).

(١) انظر: القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١ / ١٤٥).

(٢) قال أبو هريرة ﷺ: دخلت يومًا السوق مع رسول اللّه ﷺ فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان يزن، فقال له رسول اللّه ﷺ: « **اتزن وأرجح** »، فقال الوزان: هذه كلمة ما سمعتها من أحد، قال أبو هريرة: فقلت له: كفى بك من الوهن والجفاء أن لا تعرف نبيك، فطرح الميزان، ووثب إلى يد النبي ﷺ يريد أن يقبلها، فأخذ رسول اللّه ﷺ يده منه، وقال: « **هذا إنما تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم** »، فوزن وأرجح، فأخذ رسول اللّه ﷺ السراويل. قال أبو هريرة: وذهبت أحمله عنه، فقال: « **صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله، إلا أن يكون ضعيفًا يعجز عنه فيعينه أخوه المسلم** »، قلت: يا رسول اللّه، وإنك لتلبس السراويل؟ قال: « **نعم في السفر، والحضر، وبالليل، والنهار، فإني أمرت بالستر، فلم أر شيئًا أستر منها** » الحديث مروي: لدى أبي يعلى، والطبراني في الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان، والبخاري في تاريخه.

وكانَ يَستَحسنُ لُبسَ البَياضِ ويَحُثُّ عَلَيهِ[١].

١٤٦ - ولَبسَ النَّعلَينِ وكَان لهما قُبالان، وكان يُحِبُّ النَّعلَ التي لا شَعَرَ فيها، وربَّما لَبسَ النِّعالَ التي لَها شَعرٌ، ولَبسَ الخُفَّيْن في الحَضَرِ والسَّفَر، وكان يَجْعَلُ في الخِنصَرِ من يَدِهِ اليُمنَى خَاتَمًا من فِضَّةٍ، وفَصُّه حَجَرٌ حَبَشِيٌّ مَكتوبٌ فيه: مُحَمَّدٌ رَسولُ اللّه، ثلاثة أسْطرٍ ابتداءً من السَّطر الأسْفَلِ. ولم يَتَّخذهُ زينَةً، ولكنْ لِيختمَ به كتبَهُ التي يُرسِلُها إلى الملوكِ وغَيرهم في مُهمِّ الأمور.

١٤٧ - وكانَ يُحِبُّ التَّطيُّبَ بالمِسكِ والعِطْر[٢]، ويُكثِرُ دَهْنَ شَعَر رَأسِهِ[٣].

* * *
* *
*

(١) وفي سياق متصل ذكر الشيخ أن أمور اللباس قد تدخل في مقام التجرد من الإرشاد: وهو « ما يتعلق بغير ما فيه التشريع والتدين وتهذيب النفوس وانتظام الجماعة، ولكنه أمر يرجع إلى العمل في الجبلة وفي دواعي الحياة المادية. وأمره لا يشتبه فإن رسول اللّه ﷺ يعمل في شؤونه البيتية ومعاشه الحيوي أعمالًا لا قصد منها إلى التشريع ولا طلب متابعة. وقد تقرر في أصول الفقه أن ما كان جبليًّا من أفعال رسول اللّه ﷺ لا يكون موضوعًا لمطالبة الأمة بفعل مثله، بل لكل أحد أن يسلك ما يليق بحاله. وهذا كصفات الطعام واللباس والاضطجاع والمشي والركوب ونحو ذلك سواء كان ذلك خارجًا عن الأعمال الشرعية كالمشي في الطريق والركوب في السفر، أم كان داخلًا في الأمور الدينية كالركوب على الناقة في الحج...، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: الميساوي (ص ٢٢٦)، ط. دار النفائس، الأردن.

(٢) عن أنس ﷺ، قال: قال رسول اللّـه ﷺ: « حُبِّبَ إليَّ النساء والطيب، وجعلت قُرة عيني في الصلاة »، ورد الحديث في: النسائي، السنن، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٧ / ٦١)، أحمد، المسند (٣ / ١٢٨)، الحاكم، المستدرك، كتاب النكاح (٢ / ١٧٤).

(٣) انظر: الأوصاف الدقيقة التي ذكرها ابن المؤلف الشيخ الفاضل ابن الطاهر ابن عاشور في كتابه: كشف الدرعات بوصف الشعرات (ص ٩٧ - ٩٨)، الدار التونسية للنشر (١٩٧٢م).

أزواج رسول الله ﷺ وأبناؤه

١٤٨ - تَزَوَّجَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ اثنَتَيْ عَشرَةَ امْرَأَةً على التَّداوُلِ، لا عَلى الجَمْعِ. ولَم يَجتَمِعْ في عِصْمَتِه أكثرُ مِن تِسْعِ نِسوَةٍ، وتلكَ خُصوصيَّةٌ نَبَويَّةٌ[١].

١٤٩ - فَتَزَوَّجَ خَديجَةَ - كما تَقَدَّمَ -.

١٥٠ - وبَعدَ وَفاتِها تَزَوَّجَ سَودَةَ بنتَ زَمْعَةَ[٢]، مِن بَني عَامِرٍ من قُرَيْشٍ.

١٥١ - ثمَّ عائشَةَ[٣] بنتَ أبي بَكرٍ الصدّيق، عَقدَ عَلَيهَا ولَم يَبْنِ بها إلَّا بَعدَ نَحْوِ خَمْسِ سِنينَ.

١٥٢ - ثمَّ حَفْصَةَ[٤] بنتَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ.

١٥٣ - ثمَّ زَينَبَ[٥]، بنتَ خُزيمَةَ الهِلاليَّة المُكنَّاة[٦]: أمَّ المَساكينِ.

---

(١) يشرح ابن عاشور هذه الخصوصية: « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ... ﴾ نداءٌ رابع، خوطبَ به النبي ﷺ، في شأنٍ خاصٍّ به، هو بيان ما أُحلَّ له من الزوجات والسراري وما يزيد عليه وما لا يزيد، ممّا بَعضه تقرير لتشريع له سابق وبعضه تشريع له للمستقبل، ومما بَعضه يتساوى فيه النبي - عليه الصلاة والسلام - مع الأمة، وبَعضه خاص به أكرمه اللّه بخصوصيته مما هو توسعة عليه، أو مما رُوعيَ في تخصيصه به علوُّ درجته ». التحرير والتنوير (٢٢ / ٢٧ - ٣٦)، سورة الأحزاب، آية (٥٠).

(٢) سودة بنت زمعة بن قيس القرشية العامرية ﵂، ثانية زَوجات النبي ﷺ، أمها الشُّموس بنت قيس بن زيد الأنصارية، من بني عدي بن النجار. تَزَوَّجت بدايةً من السكران بن عمرو، أخي سُهَيل بن عمرو العامري، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فرارًا بدينها، ولها منه خمسة أولاد. ثم عادَت هي وزوجها إلى مكةَ، ثم ما لبث أن مات زوجها. تزوجها النبي ﷺ في رمضان سنة عشر من البعثة وهي أول امرأة تزوجها الرسول بَعد خديجة.

(٣) عائشة بنت أبي بكر ﵄، أمّ المؤمنين، وُلدَت بعد البعثة بأربع سنين تقريبًا. رَوَت عائشة العديد من الأحاديث عن الرسول وخاصةً ما يتعلق بحياته الخاصة، بلغ عددها (٢٢١٠) منها (٣١٦) في صحيح البخاري ومسلم. تُوفيت سَنة (٦٧٨م).

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵄، إحدى زوجات النبي ﷺ، أمها زينب بنت مظعون. وُلدت بمكةَ قَبل البعثة بخَمس سَنوات. تَزوجها قَبل النبي ﷺ خنيس بن حذافةَ السهمي. أسلمت هي وخنيس، وهاجرت معه إلى المدينة، فلَمّا تُوفي زوجها، تَزوجَها النبي في السنة (٣) للهجرة، وعمرها يُقارب (٢٠) سَنة، وذلك بعد زواجه بالسيدة عائشة. من مآثرها أنَّه جُمع عندها الصحف المكتوب فيها القرآن بعد أن كانت عند أبي بكرٍ ثم عند عمر بن الخطاب، وتوفيت سنة (٤١هـ).

(٥) خامسة أمهات المؤمنين، كانت أرملة عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد في وقعة بدر فَتزوَّجها النبي ﷺ في رمضان سنة (٣هـ). ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت. ورواية أخرى عن ابن الكلبي تقول: فتزوجها في شهر رمضان سنة (٣هـ). فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت في ربيع الثاني سنة (٤هـ). وكانت زينب بنت خزيمة أجودَ نساء النبي وأبَرَّهن باليتامى والمساكين، حتى كانت تُعرَف بأمّ المساكين.

(٦) أي: التي تُدْعَى.

١٥٤ - ثمَّ أمّ سَلَمَة[١]، واسْمُهَا هِندُ بنتُ أبي أميَّةَ المَخزوميَّةُ.

١٥٥ - ثمّ زَينَبَ بنتَ جَحْشٍ[٢] من بَني أَسَدِ بن خُزَيْمَةَ.

١٥٦ - ثمَّ جُوَيْرِيَةَ بنتَ الحارِثِ[٣] من بَني المُصْطَلِق من خُزَاعَةَ.

١٥٧ - ثمّ أمَّ حَبيبَةَ[٤] بنتَ أبي سُفيانَ، واسمُها رَمْلَةُ.

١٥٨ - ثمَّ صَفِيَّةَ بنتَ حُيَيّ[٥]، مِن بَني النَّضيرِ، وهمْ مِن يَهودِ الحِجاز.

---

(١) هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد اللّه ﷺ، قرشيّة مخزومية. كنيتها أم سلمة. يعرف أبوها بزاد الراكب لجوده. تزوجت قبل الإسلام من أبي سلمة عبد اللّه بن عبد الأسد المخزومي، ابن عمة الرسول، وأخوه من الرضاعة، وفي بداية الدعوة أسلما معًا وهاجرا إلى الحبشة وولدت له ابنٌ اسمه: سلمة. عادا إلى مكةَ مَع بقية المهاجرين، وهناكَ تَعرَّضت إلى محنة شديدة حينما عزمت على الهجرة إلى المدينة مع زوجها وابنها سلمة، فَمَنَعها أهلها... ولكنها هاجرت. وبعد وفاة زوجها تزوجها النبي ﷺ. روت عن الرسول (٣٧٨) حديثًا. توفيت سنة (٦٢هـ) ودفنت بالبقيع.

(٢) يقول الشيخ ابن عاشور: « هي زينبُ بنت جَحْش الأسدية وكان اسمها برَّة فلما تزوجها النبي ﷺ سماها زَينب، وأبوها جحش من بني أسد بن خزيمة، وكان أبوها حليفًا لآل عبد شمس بمكة وأمها أُميمة بنت عبد المطلب عمةُ رسول اللّه ﷺ، تزّوجها زيد بن حارثة في الجاهلية ثم طلّقها بالمدينة، وتزوجها النبي ﷺ سنة خمس، وتوفيت سنة عشرين من الهجرة وعمرها ثلاث وخمسون سنة، فتكون مولودة سنة ثلاث وثلاثين قبل الهجرة، أي: سنة عشرين قبل البعثة ». التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٠).

(٣) جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة ﷺ - وجذيمة هو المصطلق من خزاعة - زوج النبي ﷺ، سباها رسول اللّه ﷺ يوم المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق في سنة خمس من الهجرة، وقيل: في سنة ست، وكانت قبله تحت مسافع بن صفوان المصطلقي. وعن ابن إسحاق قال: وجويرية بنت الحارث كان اسمها برة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة، من خزاعة، كانت عند ابن عم لها يقال له: مسافع بن صفوان بن ذي الشفر. وعن زينب بنت أبي سلمة عن جويرية بنت الحارث أن اسمها كان برَّةَ فسماها: جويرية.

(٤) رَمْلَة بنت أبي سفيان ﷺ، مِن بنات عَمّ الرسول، وَلَيس في أزواجه مَن هي أقرب نَسبًا إليه منها. أبوها أبو سفيان، من سادات قريش. وأخوها معاوية بن أبي سفيان، أحد الخلفاء الأمويين، ولمكانة مَنزلة أم حبيبة في دولة أخيها بالشام، قيل لمعاوية: « خال المؤمنين ».

(٥) صَفيَّة بنتُ حُيَيِّ بن أخطب بن سَعيَة من بني النضير ﷺ. أمها برَّة بنت سموأل من بني قريظة، وهي أخت الصحابي رفاعة بن السموأل. تَزَوَّجها قبل إسلامها سَلامة بن مكشوح القرظي، وقيل: سلام بن مشكم، فارس وشاعرٌ. ثمَّ تَزَوَّجها كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل يومَ خيبر، وأُخذت هي مَع الأسرى، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، وخيّرها بين الإسلام والبقاء على دينها قائلًا لها: « اختاري، فإن اخترت الإسلامَ أمسكتك لنفسي(أي: تَزوّجتك)، وإن اخترت اليهودية فَعسى أن أعتقك فَتَلحقي بقومك »، فقالت: يا رسول اللّه، لقد هَويتُ الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولَا أخ، وخيرتني الكفرَ والإسلامَ، فاللّه ورسوله أحب إليّ من العتق وأن أرجع إلى قومي. فأعتقها النبي وتزوّجها، وجعل عتقها صداقها. وأصل هذه القصة ورد في صحيح البخاري.

١٥٩ - ثمَّ مَيمونَةَ بنتَ الحارِث الهلاليَّةَ[١]، وكانَ اسمُها: بَرَّةُ، فَسمَّاها ميمونَة.

١٦٠ - وعَقَدَ علَى أسْمَاء بنتِ النُّعمان بنِ الجَون الكِنْديَّة[٢]، وَزُفَّتْ إليهِ فَرأى مِنها جَفاءً، فَطَلَّقَها سَاعَةَ زَفافِها، فَلم تُعَدَّ في أمَّهاتِ المُؤمِنينَ[٣].

١٦١ - وكانَت مَاريَةُ القِبْطيَّةُ[٤] سُرِّيَّةً لَه أهْداها إلَيْه المُقَوْقِسُ[٥] صاحِبُ مِصرَ، وكان

---

(١) « وَرَدَ أن النسوة اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ أربع هن: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية الملقبة أمّ المساكين، وأم شريك بنت جابر الأسدية أو العامرية، وخولة بنت حكيم بن الأوقص السَلَمية. فأما الأوليان فتزوجهما النبي ﷺ وهما من أمهات المؤمنين والأخريان لم يتزوجهما ». ابن عاشور، التحرير والتنوير.

(٢) أسْماء بنتُ النعمان بن الحارث بن شراحيل الكندية. قال أبو عمر: أجمعوا أن رَسول اللّه تزوجها واختلفوا في قصة فراقها إلى أن قال: قال قتادة: هي أسماء بنت النعمان من بني الحارث، لما أدخلت عليه دعاها فقالت: تعال أنتَ وأبَت أن تجيء. ورَدَّها مع رجل من الأنصار يقال له الساعدي.

(٣) عَطَف (القرآنُ) على حقوق النبي ﷺ، حقوقَ أزواجه على المسلمين لمناسبة جَريان ذكر حق النبي عليه الصلاة والسلام، فجعَل اللّه لهن ما للأمهات من تحريم التزوُّج بهن بقرينة ما تقدم من قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤]. وأما ما عَدا حكمَ التزوّج مَن وجوه البرِّ بهن ومواساتهن فذلك راجعٌ إلى تَعظيم أسباب النبي ﷺ. ولَم يَزل أصحاب النبي والخلفاءُ الراشدون يتوخّونَ حُسن معاملة أزواج النبي ﷺ ويؤثروهنّ بالخير والكرامة والتعظيم. وقال ابن عباس عند حمل جنازة مَيمونَةَ: « هذه زوج نبيكم فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوا ولا تزلزلوا وارفقوا » رواه مسلم. وكذلك ما عدَا حكم الزواج من وجوه المعاملة غير ما يرجع إلى التعظيم. ولهذه النكتة جيء بالتشبيه البليغ للمبالغة في شبههن بالأمهات للمؤمنين مثل الإرث وتزوّج بناتهن، فلا يُحسب أن تركاتهن يَرثها جميع المسلمين، ولا أن بناتهن أخوات للمسلمين في حرمة التزوج بهن... والـمُراد بأزواجه اللائي تَزَوَّجهنّ بنكاح فلا يدخل في ذلك ملك اليمين، وقد قال الصحابة يومَ قريظَةَ حين تَزوَّجَ النبي ﷺ صفية بنت حيَي: أهي إحدى ما ملكت يمينه أم هي إحدى أمهات المؤمنين؟ فقالوا: ننظر، فإذا حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإذا لم يحجبها فهي ما ملكت يمينه، فلما بَنَى بها ضربَ عليها الحجابَ، فعلموا أنها إحدى أمهات المؤمنين، ولذلك لم تكن مارية القبطية إحدى أمهات المؤمنين. ويُشترط في اعتبار هذه الأمومة أن يكون النبي ﷺ بنى بالمرأة، فأما التي طلقها قبل البناء مثل الجَونية وهي أسماء بنت النعمان الكندية فلا تعتبر من أمهات المؤمنين. وذكر ابنُ العربي أنَّ امرأةً كان عقد عليها النبي ﷺ تزوجت في خلافة عمر فهَمَّ عمر برَجمها. فقالت: لـِمَ وما ضرَب عليّ النبي ﷺ حجابًا ولا دُعيت أمَّ المؤمنين؟ فكفَّ عنها. وهذه المرأة هي ابنة الجون الكندية تزوجها الأشعث بن قيس. وهذا هو الأصح وهو مُقتضى مذهب مالك وصححه إمام الحرمين والرافعي من الشافعية. وعن مقاتل: يحرم تزوج كل امرأة عقد عليها النبي ﷺ ولو لم يَبنِ بها. وهو قول الشافعي وصححه في « الروضة ». واللائي طلّقهنُ الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعد البناء بهن فاختلف فيهن على قولين، قيل: تثبت حرمة التزوج بهن حفظًا لحرمة رسول اللّه ﷺ، وقيل: لا يثبت لهن ذلك، والأول أرجح. وقد أكد حكم أمومة أزواج النبي ﷺ للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وبتحريم تزوج إحداهن على المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. التحرير والتنوير (٢١ / ٢٦٨، ٢٦٩).

(٤) مارية بنتُ شَمعون القبطية ﵂، إحدى أمهات المؤمنين. أَنْجبَت للنبي ﷺ ثالثَ أبنائه الذكور إبراهيم، الذي تُوُفيَ وهو طفل صغير. وكلمة (قبط) كان يقصد بها أهل مصر، أهداها للرسول ﷺ الملك المقوقس حاكم مصر سنة سبع للهجرة. وكان أبوها من سادة القبط، كما وَرَدَ على لسان المقوقس في حديثِه لحامل رسالة الرسول إليه.

(٥) البطرك كيرس المعروف باسم المقوقس هو الحاكم البيزنطي لمصر في الفترة السابقة للفتح الإسلامي.

منها إبْراهيمُ(١)، ابنُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَكانَت أمَّ وَلَدٍ لَه، رَضيَ اللَّهُ عَنهُما.

١٦٢ - وأوَّلُ مَولودٍ وُلِدَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، القَاسمُ(٢)، وبِه كُنِّيَ، وُلدَ قبلَ بِعثَته بقليلٍ، وعاشَ سَنتَيْنِ.

١٦٣ - ثمّ وُلِدَتْ زَينَبُ(٣).

١٦٤ - ثمَّ رُقَيَّةُ(٤).

١٦٥ - ثمَّ فَاطِمَةُ(٥).

١٦٦ - ثمّ أمّ كُلثوم(٦).

١٦٧ - ثمّ عَبدُ اللَّه(٧)، ويُلَقَّبُ بالطَّيِّبِ وبالطَّاهِر، وتُوُفِّيَ صغيرًا، وهؤلاءِ كلُّهم مِن زَوجَتِهِ خَديجَةَ، رَضيَ اللَّه عنها وعَنهم.

---

(١) وُلدَ إبراهيم في ذي الحجة سنة (٨ هـ). وفرحَ به النبي كثيرًا. وحلق شعر إبراهيم يوم سابعه، وسماه، وتصدق بزنته وَرِقًا، وأخَذوا شعره فدفنوه. كذا قال الزبير. أخبرنا أبو الفضل المنصور بن أبي الحسن عن عبد اللّه الطبري المخزومي المعروف بالديني بإسناده إلى أبي يعلى أحمد بن علي، حدثنا شيبان وهدبة بن خالد، قالا: حدثنا سليمان ابن المغيرة، أخبرنا ثابت عن أنس قال: قال رسول اللّه: « وُلدَ لي الليلةَ ولَدٌ فَسميته باسم أبي إبراهيم ». توفي وله سنة ونصف.

(٢) قاسِم بنُ مُحمد بن عبد اللّه، أوّل أولاده من زَوجته خديجة. وبِه كُنّي، « أبو القاسم ». وُلدَ له قَبلَ النبوة ومات بعد أن بلغ سِنًّا تُمَكِّنه من المشي. غيرَ أنَّ رضاعته لم تكتمل. ويُقال: إنَّه توفي سنة (٦٠٥م) قَبلَ أن يتم عامه الثاني، ودفن في مقبرة جندول مَولالا في مكة.

(٣) زينب بنت النبي أمها خديجة ﷺ، ولدت قبل البعثة بعشر سنوات. تزوجها أبو العاص بن الربيع، ابن خالتها وأنجبت له عليًّا وأمامةَ، فَمات علي وهو صغير وبقيت أخته.

(٤) رقية بنت النبي ﷺ، أمها خديجة وتُكَنَّى بأم عبد اللّه، لَقبها ذات الهجرتين، وهي الابنة الثانية للنبي بَعدَ زينب، ولدت في مكةَ قبلَ البعثة النبوية بنحو سبعة أعوام.

(٥) فاطمة بنت النبي ﷺ، أمّها خَديجة، وُلدَت في السَّنَة الخامسَة قَبل البعثة النبوية في مكةَ. وهيَ أصغر بَنات النبي. هاجرت إلَى المدينة وهي في الثامنةَ عَشرَةَ من عمرها، تَزَوَّجَها علي بن أبي طالب. فولدت له الحسنَ والحسين، وأم كلثوم وزينب. وهناك خلاف حول وقت وفاتها؛ ولكن ترجح رواية أن الفترة بين وفاتها ووفاة أبيها هي خَمسةٌ وتسعون يومًا؛ أي في (١٣ جمادى الآخرة ١١ هـ).

(٦) أمّ كلثوم بنت النبي ﷺ، وأمها خديجة، وُلِدَت قبلَ البعثة بستِّ سنين. هاجرت أم كلثوم مع أختها فاطمة وزوجة الرسول سودة بنت زمعة ومعهم آل أبي بكر إلى المدينة، فاستقبلهُن النبي ﷺ وأتى بهنّ إلى داره التي أعدّها لأهله بعد بناء المسجد. خطبها عتيبة بن أبي لهب قبل البعثة ولم يتم الزواج، وطلقها تنفيذًا لرغبة أبيه، ولم يدخل بها، ولما توفيت شقيقتها رقية زوّج النبي أم كلثوم لعثمان بن عفان في ربيع الأول سنة (٣ هـ)، وعاشت أم كلثوم عند عثمان ست سنوات ولكنها لم تلد له. توفيت في شهر شعبان سنة تسع من الهجرة.

(٧) عبد اللّه ابن النبي، أمه خديجة بنت خويلد. أصغر أبنائهما قبل زَيْنَب. لُقب بالطاهر والطيب لمولده بعد النبوة، وتوفي صغيرًا بمكةَ.

١٦٨ - وَوُلِدَ لَه إبْراهيمُ مِن سُرِّيَّـتِهِ مَارية، وتُوُفِّيَ وعُمره سَنَةٌ ونِصفٌ.

١٦٩ - ولَم تَترُكْ واحدةٌ من بَناتِه عَقِبًا إلّا فاطمَةَ - رَضيَ اللّه عَنهَا -.

* * *
* *
*

شمائلُـه وأخْلَاقُه ﷺ[١]

١٧٠ - كانَ رَسولُ اللَّه ﷺ رَبْعَةً؛ أيْ: مُتَوَسِّطَ الطُّولِ، وهو إلَى الطُّولِ أقْرَبُ. بَعيدَ ما بَينَ المَنْكِبَينِ، جَليلَ الكَاهِلِ، عَظيمَ رُؤوسِ المَناكب، ضَخْمَ العِظامِ، ورُؤوسِ المَفاصِلِ، لَيسَ بكَثير اللَّحمِ، ولَمَّا أسَنَّ[٢] بَدُنَ؛ متماسكَ اللحمِ، غيرَ قَصيرِ اليَدَيْنِ، ولا الأصابِـعِ، أزْهَرَ اللَّون؛ أيْ: أبْيَضُ مُشْرَبُ البَياضِ بِحُمْرَةٍ.

١٧١ - عَظيمَ الهامَة (أي: الجُمْجُمَة)، أسْوَدَ شَعْرِ الرّأس، لَيسَ شَعْرُه مُلتَويًا ولا مُرتَخيًا، شَعْرُه إلَى شَحْمَةِ الأذُنِ. كانَ يَفْرِقُ شَعْرَهُ. كَثَّ اللِّحيَةِ؛ أي:كَثيرَ شَعْرِها، قَد مَلأتْ أعْلَى صَدْرِه، أسودَ شَعرِها، وكانَ في صُدْغَيْه شَعَرَاتٌ بَيْضاءُ، وتَحْتَ شَفَتِه السُّفْلَى شَعَرَاتٌ بَيْضاءُ، وذلكَ في آخرِ عُمرِه المُبارَك. وكانَ يَقُصُّ شارِبَهُ.

١٧٢ - مُدَوَّرَ الوَجْهِ باستطالةٍ قَليلَةٍ، واسِعَ الجَبينِ، سَهْلَ الخَدَّيْن؛ أي: لا ارْتفاعَ فيهمَا، لِوَجْهِهِ بَريقٌ يَزدادُ إذا سُرَّ، واضحَ الأنْفِ بِدقَّةٍ. يُرى في أنْفِهِ بَعضُ احْدِيدابٍ، تامَّ الأذُنيْن.

١٧٣ - أكْحَلَ العَيَنَيْنِ أدْعَجَهُما؛ أي: شَديدَ سَوادِهِما، قد أُشْرِبَ بَياضُ عَيْنَيْه بِحُمْرَةٍ، أنْجَل؛ أي: طَويل شقِّ العَينَين، طويل الأشْفار، كَثيرَ شَعَرهِمَا، حاجباه دَقيقانِ، مَع تَقَوُّسٍ قَريبٍ من القَرَن، بَينَ حَاجِبَيْه عِرْقٌ يَدُرُّهُ الغَضَبُ، واسعَ الفَم بِحُسنٍ، مُفَلَّجَ الأسنانِ، إذا تَكَلَّمَ رُئِيَ كالنُّورِ يَخْرج من بَينِ ثَنايَاه.

١٧٤ - فِي عُنْقِه ارتفاعٌ، سَواءٌ البَطنُ والصَّدرُ، مَوْصُولُ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ والسُّرَّةِ بِشَعَرٍ يَجري كالخَطِّ. أشعرَ أعالي الصَّدر، لَيسَ في بَطْنِه وصَدْره شَعَرٌ غيرُ ذلك، أشعرَ الذِّرَاعَيْن والمَنكِبَيْن، طويلَ الزَّنْدَينِ، ضَخْمَ العَضُدَيْن، غَليظَ الكَفَّينِ، رَحْبَ الرَّاحةِ.

١٧٥ - بَينَ كَتِفَيْه خَاتَمُ النُّبوءَةِ، وهو بِضْعَةٌ ناتِئَةٌ، مِقدارَ زِرِّ الحَجَلَة (والزِّرُّ: عُقدَةٌ كَبيضَة الحَمام، تُشَدُّ بها شُقَّةَ الحَجَلَة وهي: البَيْت)، أحْمَرَ اللَّونِ، فيه شَعَرَاتٌ، وحَولَه خِيلانٌ كأنَّها الثآليلُ.

---

(١) وَرَدَ هذا الفصلُ بشكلٍ أطولَ وأكثرَ تفصيلًا في مَقالٍ لابن عاشور، صدرَ في المجلة الزيتونيّة، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م) (ص ٤٥٢ - ٤٥٦). عنوانه: الشمائلُ المُحَمَّديَّة.

(٢) أي: كَبُرَ في السنّ.

١٧٦ - شَثْن القَدَمَيْن[١]، ضامِر، وَسَطهُما أمْلسهما، لا نُتوءَ فيهما ولا شُقوقَ، قَليل لَحْم العَقِبِ، ولم يَرِدْ وَصفُ أظْفارِه. وَوَرَدَ في بعض الآثار أنَّ سَبَّابَتَيْ رِجلَيْهِ أطْوَلُ من وَسَطَيْهما.

١٧٧ - وكانَ ﷺ إذَا مَشَى يَتَقَلَّع كَأنَّما يَنزِلُ من مكانٍ مُنْحَدِرٍ سريعًا في مشيَتِه. إذا التَفَتَ الْتَفتَ جميعًا.

١٧٨ - جُلُّ نَظَرِهِ المُلاحَظَةُ؛ أيْ: لا يُوَجِّهُ نَظَرَه إلَى شَيءٍ بِحِدَّةٍ، نَظرُهُ إلَى الأرْضِ أطولُ مِن نَظَرِه إلى فَوق.

١٧٩ - ضَحِكُهُ التبَسُّمُ، وربَّما ضَحِكَ حَتَّى تَبدوَ نَواجِذُهُ.

١٨٠ - وكان كَلامُه تَرتيلًا، بِحَيْثُ لَو شَاءَ أحدٌ أنْ يَكتُبَ كَلامَه لَم يَفُتْهُ.

١٨١ - وكان أكثرُ جُلوسِه فِي المَجلس الاحتِبَاء، وربَّما اتَّكَأَ عَلى وِسَادَةٍ.

١٨٢ - وكَانَ رسولُ اللَّه - عَلَيه الصَّلاة والسّلام - أحْسنَ النَّاسِ خُلقًا، كما قال اللَّه تَعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤][٢]. وقالت عائشةُ - رَضيَ اللَّه عنها -:

---

(١) أي: غليظ القدمين. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (ش، ث، ن).

(٢) يقول الشيخ ابن عاشور: « بعد أنْ آنسَ اللَّـه نفسَ رَسولِه ﷺ، بالوَعدِ عادَ إلى تَسفيه قول الأعداء فَحَقَّقَ أنَّه متلبِّسٌ بِخُلقٍ عَظيمٍ، وذلك ضدُّ الجنون، مُؤكِّدًا ذلك بثلاثة مُؤكدات مثل ما في الجملة قبله. والخُلق: طِباع النفس، وأكثر إطلاقه على طباع الـخَير إذا لم يُتبع بنعتٍ، ... والعظيم: الرفيع القدر وهو مُستعار من ضَخامة الجسم، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة. و(عَلَى) للاستعلاء المجازيّ، الـمُراد به التمكن كقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥]...، وفي حديث عائشة أنها سُئلت عن خُلُق رسول اللَّـه ﷺ فقالت: « كانَ خُلُقُه القرآن »، أي ما تَضَمَّنه القرآن من إيقاع الفضائل والمكارم والنهي عن أضدادها. والـخُلُقُ العَظيم: هو الـخُلق الأكْرَم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشدَّ الكَمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مَكارم الأخلاق في النَّبي ﷺ، فَهو حَسَنٌ مُعاملته الناسَ على اختلاف الأحوال المقتضية لِحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفَعُ من مُطْلَق الخُلُق الحسن. ولهذا قالت عائشة: « كان خلقه القرآن »، ألستَ تقرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١] الآيات العشر. وعن عليّ: الخلُقُ العظيم: هو أدَب القرآن ويَشمل ذلكَ كلَّ ما وصف به القرآن مَحامدَ الأخلاق وما وصف به النبي ﷺ من نحو قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وغير ذلكَ من آيات القرآن. وما أخذَ به من الأدب بطريق الوحي غير القرآن. قال رسول اللَّـه ﷺ: « إنَّما بعثت لأتـمِّمَ مكارمَ الأخلاق »، فَجعلَ أصلَ شَريعتِهِ إكمالَ ما يَحتاجه البشر من مكارم الأخلاق في نفوسهم، ولا شكَّ أنَّ الرسول ﷺ أكْبَر مَظهَرٍ لما فِي شرعه. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية: ١٨]، أمرَه أن يقول: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٣]. فكما جَعلَ اللَّـه رَسولَه ﷺ عَلى خُلقٍ عَظيمٍ جَعلَ شَريعتَه لِحَمْل الناس على التخلُّق بالخلق العظيم بمنتهى الاستطاعة. وبهذا يَزداد وضوحًا معنَى التمكُّن الذي أفادَه حرف الاستعلاء في قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، فَهو متمكن منهُ الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية. واعلم=

« كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنُ »[١].

١٨٣ - وكـانَ أرْجَحَ الناسِ عَقْلًا، وأفْصَحَهم لِسانًا، وأبْلَغَهم مَعنًى، وأجودَهم فِطْنَةً، وأصْفاهُم سَريرَةً، وأحْسَنَهم عفوًا، وأكْثَرَهم صَبْرًا، وأسْخاهُم، وأسْمَحَهم، وأشْجَعهُمْ، شَديدَ الحَياءِ إلَّا في الحَقِّ، كثيرَ الإغْضاء عَنِ الفَلتَاتِ، حَسَنَ المُعاشَرة، رَحيمًا بالنَّاس، رَفيقًا بِهِم، أصْدَقَهم قَولًا، وأوْفَاهُم عَهْدًا، شَديدَ التَّواضُعِ، كثيرَ الاحْتِمَالِ عَلى أذَى المُشرِكينَ، شَديدَ الغِلْظَةِ عَلى الظَّالِمينَ والمُعتَدينَ علَى الحَقِّ، لا يَنْطِقُ بفاحِشَةِ القَولِ، غَيرَ هَيَّابٍ للمُلوكِ والجَبابِرَةِ، ويَتَنازَلُ للضُّعفَاء والمَساكين، ويَمزَحُ ولا يَقولُ إلا حَقًّا[٢].

* * *

= أن جُماعَ الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التديّن، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمُحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسنُ المعاملة والمعاشرة. والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحُكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله ومَن لِنَظَره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسُّمعة. وأما مَظاهرها في رسول اللّـه ﷺ ففي ذلك كله وفي سياسته أمته، وفيما خص به فصاحة كلامه وجوامع كلمه ». التحرير والتنوير (٢٩ / ٦٣، ٦٤).

(١) رقم الحديث (١٢٩) عن سعد بن هشام قَالَ : سَأَلْتُ عائشةَ - رَضِيَ اللّـه عَنْهَا - عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللّـه ﷺ، فَقَالَتْ: « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ». البخاري، باب الردّ على الجهمية.

(٢) أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ: قالوا: يا رسول اللّـه، إنَّكَ تُداعبنا. قال: « **إني لا أقول إلا حَقًّا** »، وقال: حسن.

أسماؤه الشريفـة

١٨٤ - أَسْماءُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ عُنْوانُ ما فِيهِ مِن الفَضائِلِ والمَكارِمِ. فلَا جَرَمَ أنْ كانَ أكْثَرَ الخَلْقِ أسْمَاءً، وإنْ كانَ حَقيقًا بأنْ تُعَدَّ صِفاتُهُ أسْماءً؛ لِأَنَّهَا بَلَغَت فيهِ مُنْتَهى حَقائِقِهَا؛ فَكانَتْ صفاتُهُ دالَّةً علَى ذَاتِهِ.

١٨٥ - وقَـد أحْـصى بَعضُ العُلمَاءِ مِنْهَا ثَلاثمائة اسمٍ، ويَـجْمَـعُ كَثْرَتَها خَمْسَةُ أسْـماءٍ[١].

---

(١) جاء في تفسير الشيخ الطاهر ابن عاشور:

« فتأويله (أيْ: هذا الحديث) أنَّه أطلقَ الأسماءَ على ما يَشمَلُ الاسمَ العَلَمَ والصفة الخاصة به على طريقة التغليب. وقد رُويت له أسماءٌ غيرُها استقصاها أبو بكر ابن العربي في « العارضة »، و« القَبَس ».

فالذي نُوقِن به أنَّ مَحمَلَ قوله: ﴿ اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] يَجري على جميع ما تَحمله جُزْءًا هذه الجملة من المَعاني... ونَحن نجري على أصلنا في حَمل ألفاظِ القرآن على جَميع المعاني التي يَسمح بها الاستعمالُ الفَصيح كما في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير، فنحمل الاسم في قوله: ﴿ اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ علَى ما يَجمع بين هذه الاستعمالات الثلاثة، أي مُسَمَّاهُ أحمد، وذِكْرهُ أحْمدُ، وعَلَمه أحمَد، ولْنَحملْ لَفظَ أَحْمَدَ على ما لا يأباه واحدٌ من استعمالاتِ (اسم) الثلاثةِ إذا قُرن به وهو أن أَحْمد اسم تفضيل يجوز أن يَكون مَسلوبَ المفاضلة معنيًّا به القوةُ فيم هو مشتق منه؛ أي: الحمد وهو الثناءُ، فيكون أحمدُ هنا مستعملًا في قوةِ مفعولية الـحَمد، أي حَمْد الناس إياه، وهذا مثل قولهم: « العَود أحْمَدُ »؛ أي: محمودٌ كثيرًا. فالوصف بـ ﴿ أَحْمَدُ ﴾، بالنسبة للمعنى الأول في اسمٍ أن مسمّى هذا الرسول ونَفسه مَوصوفَةٌ بأقوى ما يحمدُ عَليه مَحمودٌ، فَيشمل ذلك جميعَ صفاتِ الكمال النفسانية والـخُلقية والـخَلقية والنسبية والقومية وغير ذلك مما هو معدودٌ من الكمالات الذاتية والعَرَضيّة. ويصح اعتبار ﴿ أَحْمَدُ ﴾ تفضيلًا حقيقيًّا في كلامِ عيسى عليه السلام؛ أي: مُسَمَّاهُ أحمد منِّي، أي أفضل، أي في رسالته وشريعته...

والوصْفُ بـ ﴿ أَحْمَدُ ﴾ على المعنى الثاني في الاسم أنَّ سُمعتَه وذِكره في جيلِه والأجيال بعده مَوصوف بأنه أشدُّ ذكرٍ محمود وسمعةٍ محمودة. وهذا معنى قوله في الحديث: « **أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة** »، وأنَّ اللَّه يبعثه مقامًا محمودًا. وَوصفُ ﴿ أَحْمَدُ ﴾ بالنسبة إلى المعنى الثالث في الاسم رمزٌ إلى أنه اسمه العَلَم يكون بمعنى: أحمد، فإن لفظ محمَّد اسم مفعول من حَمَّد المضاعف الدالِّ على كثرة حَمد الحامدين إياه كما قالوا: فلان مُمَدَّح، إذا تكرر مدحُه من مادحين كثيرين. فاسم « محمّد » يفيد معنى: المحمود حمدًا كثيرًا ورمز إليه بأحمد. **وهذه الكلمة الجامعة التي أوحى اللَّه بها إلى عيسى عليه السلام أراد اللَّه بها أن تكون شعارًا لجماع صفات الرسول الموعود به ﷺ، صيغت بأقصى صيغة تدل على ذلك إجمالًا بحسب ما تسمح اللغة بجمعه من معانٍ. ووُكل تفصيلها إلى ما يظهر من شمائله قبل بعثته وبعدها ليتوسمها المتوسمون ويتدبر مطاويها الراسخون عند المشاهدة والتجربة.** التحرير والتنوير (٢٨ / ١٧٩، ١٨٠).

فَقد رَوى الإمامُ مالِكٌ[1] - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي المُوَطَّأ[2]، عَن ابنِ شهابٍ، عَن مُحَمَّدِ ابنِ جُبَيْر بن مُطعِم، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: « **لِي خَمْسَةُ أسْماءٍ: أنَا مُحَمَّدٌ، وأنا أَحْمَدُ، وأنَا المَاحِي الذي يَمحُو اللَّهُ بي الكُفرَ، وأنَا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلى قَدَمِي، وأنَا العَاقِبُ** »[3].

* * *
* *
*

(١) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني (٧١١ - ٧٩٥م) محدِّثٌ وفَقيه، من مؤسسي المَذاهب الفقهية الأربعة السنية. وُلد الإمام مالك بالمدينة سنة (٧١١م) ونشأ في بيت علمٍ، حفظ القرآنَ ثم الحديث وتعلم الفقهَ، ولازم فقيه المدينة ابن هرمز سبع سنين، كما أخذ عن كثير من غيره من العلماء مثل نافع والزهري. وبَعدَ أن اكتملت دراسته للآثار والفُتيا، وشهدَ له سبعون شيخًا من أهل العلم، اتخذ له مجلسًا في المسجد النبوي للدرس والإفتاء، وقد عُرف درسُه بالسكينة والوقار، وكان يتحرزُ أن يُخطئ في إفتائه ويُكثرُ من قول « لا أدري »، وكان يقول: « إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه ». اشتَهَرَ بعلمه وقوة حفظه للحديث، واحتياطه فيه. وقد اعتمد الإمام مالك في فتواه على عدة مصادر تشريعية هي: القرآن، والسنة، والإجماع، وعمل أهل المدينة، والقياس، والمصالح المرسلة، والاستحسان، والعرف والعادات. وفي سنة (٧٩٥م) مَرضَ الإمام مالك اثنين وعشرين يومًا ثم مات، ودفن بالبقيع. انظر تفاصيل حياته ومنهجه: الشيخ ابن عاشور، كَشفُ المُغَطَّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ (ص ٣٩٦ - ٤٠١).

(٢) كتابٌ في الحَديث الصحيح، وفيه أيضًا البلاغات والمنقطعاتُ والمَراسيل؛ لأنَّ مالكًا يَرى حُجيَّة المُرسل. ومن المعلوم أنَّ ابن عبد البرِّ وصل هذه البلاغات في كتابه: التمهيد، سوى أربعة أحاديث. اعتنى أهل العلم بالموطأ عناية فائقة لإمامة مؤلفه وشهرتِه، ولأنَّ الإمام مالكًا كان شديد التحرّي في الرواية، منتقيًا للرجال مُنتقدًا لأحوالهم. لذلك جعله أهل الحديث آنذاك مصدرًا حديثيًا معتمدًا عليه في الاحتجاج بأحاديثه. ورغم ذيوع صَحيح البخاري بعده، لَم يَفقد الموطأ مكانته كمصدر من مصادر السنة المشهورة.

(٣) الحديث في الموطأ، كتاب الجامع (٢، ٦٠٣، ٢٨٦١)، شرحه الشيخ ابن عاشور بشكلٍ مستفيض، كتابه: كَشفُ المُغَطَّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ (ص ٣٩٦ - ٤٠١).

خَاتِمَة

١٨٦ - نَسْأَلُ اللَّهَ أنْ يُعيدَ علَى المُسلمينَ مِن بَركاتِ هَذا اليوم، كَما مَنَحَهم في أَصْلِهِ، وأنْ يَكْتُبَنا - في اجْتِماعِنا لَه وتَفَرُّقِنا إثْرَهُ - مَعَ الّذينَ يُظلُّهُمُ اللَّه بِظِلِّهِ[1].

مُحَمَّدٌ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُور

(١) هذا الدعاء المُوجَز قد يَكون دَليلًا على أنّ النصَّ كان في أصْلِهِ مُحاضَرَةً شَفويَّة ألقيت على الملأ بمناسبة المولد النبويّ الشريف.

ملاحق الكتاب

نسب الرسول ﷺ(١)
ومناسبتهُ لعليِّ ذلك المَقام
سِلسلةُ النَّسب النبويِّ - شَرفهُ - طهارتهُ - زَكاؤه

رَسولُ اللَّه ﷺ، هو محمدُ بن عبد اللَّه بن عَبد المطلب بن هاشمِ بن عبد منافِ ابن قُصَيٍّ بن حَكيمٍ (ويُلقبُ بِكِلابٍ) ابن مُرَّةَ بن كَعب بن لُؤَيٍّ بن غالبِ بن فِهرِ بن مالكِ بن النَّضِر بن كنانَةَ بن خزيمةَ بن مُدركَةَ بن إلياس بن مُضرِ بن نزارِ بن مَعَدِّ بن عَدنانَ.

ويَنتَهي نَسبُ عَدنانَ إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيم - عَلَيهمَا السَّلام - باتِّفاقِ علماء الأنساب في الإسلام والجاهليَّة، وبالتَّواتر عندَ العَرب وغَيرهِمْ مِن الأمم السامية، وبنُصوص القُرآنِ والسنَّة، قَال اللَّه تَعالى مُخاطِبًا أهلَ مَكَّةَ: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨]. وقالَ حكايَةً عن إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ .. ﴾(٢) إلى قولِه: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٨، ١٢٩].

وقَد ثَبتَ في السنَّة أنَّ النبيَّ ﷺ انْتَسَبَ (أي: ذَكر آباءَهُ) فَبَلَغَ مَرَّةً إلى كِنانَةَ، ولَمْ يَزِدْ، وبَلَغَ مَرَّةً إلى عَدنانَ ولَم يَزِدْ، وزَادَ مَرَّةً، فَذكرَ عدنانَ بنَ أدَدٍ، ثمَّ أمْسَكَ. ورَوَى عَنهُ ابنُ عباس أنَّه لَمَّا بَلَغَ عَدنانَ قَال: « كَذِبَ النَّسَّابونَ » مَرَّتَيْن أو ثلاثًا. أي: لا تَحقيقَ عندَ العارفينَ بالأنساب بِمَن فَوقَ عَدنانَ أو بِمَن فَوقَ أدَدٍ. قَالَ السُّهيلي: « والأصحُّ أنَّ قولَه: كَذب النسَّابون »، من كَلام عَبد اللَّه بن مَسعودٍ. وأنَّ عمرَ بنَ الخطاب أيضًا قال: « إنَّما نَنتَسب إلى عدنانَ وفَوقَ ذلكَ لا نَدري ما هو ». اهـ.

وأمُّ رَسول اللَّه هي آمِنةُ بنت وَهبِ بن عبد منافِ بن زُهرَةَ بن حكيمٍ. فَزُهرَةُ أخو قُصَيٍّ، وهي تَلتَقي مَع رَسول اللَّه في حكيمٍ.

هَذا العِقدُ النَّفيسُ ما انتَظَمَ في سِمْطَيْهِ إلَّا جَوهَرٌ، لَم يَشِنْهُ وَكْتٌ، ولَمْ تَنْخَرهُ قادِحَةٌ. فَكانت كلُّ فَرائِدِه في الأجْيَال نَيِّرَةً واضِحَةً، وما هو إلَّا نَسبٌ شَريفُ العُنْصُر، وكَفاه بُرهانًا أن يَسمَعَ واعٍ ويَرَى مُبْصر، وأنّ اللَّهَ تَعالى كما قَدَّرَ لمحمد أن يكون أفضلَ رُسله وأنْ يَكونَ مَبعوثًا بما يُوصَل إلَيه مِنْ أقوَمِ سُبُلِه، كَذلكَ قَدَّرَ لَهُ إكْمالَ الفَضائلِ في ذاتِهِ ومَا يَحُفُّ به.

---

(١) صدر هذا بالمجلة الزيتونية، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م)، (ص٤١٦ - ٤٢٤).

(٢) في المجلة: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجَعَلَ أوَّلَ مَظهرٍ لذلكَ أنْ قـدَّرَ له طهارَةَ نَسبهِ حَتَّى لا تُوضَعَ تلكَ الجَوهرةُ الفَذَّة في غَير صَدَفِ أمْثالِها، ولا تُـزَنَّ بنقيصَةٍ تَـتَطَـرَّق إلَيها أو إلى مآلِها، فَإذا نَحْنُ غُصنَا في بَحْر الأنْساب رَوْمَ استخْراجِها، مُلئَت نُفوسُنَا عَجَبًا من صَفائِها وابْتِهاجها، فَمِثْلُنا حينَئِـذٍ كَمثل قَوله :

أو دُرَّةٍ صَـدَفيَّـةٍ غَـوَّاصُـهـا بَـهِـجٌ مَـتَـى يَرَهَـا يُـهِـلّ ويَسـجُـد

شَرف هَذا النَّسب:

إنَّ شَرَفَ العُنصر والنَّسب مَعدودٌ في الفَضائل الذاتيَّةِ، ولكن ليس عَدُّهُ في الفَضائل - من حيث هو - كافٍ في تَحصيل فَضائلِ الذات، إذ قَد يُخَلف للفَرع مَخيلَةُ الأصل، ويَنبت في مَنابِـتِ النَّخيل شَجَرُ الأثْل، وإنَّما يُعَدُّ فَضيلَـةً من حيثُ هو وَسيلَةٌ إلى نَماء الفَضائل في النَّفس المَطبُوعة على الفَضيلَـةِ، وقُدوَةٌ للخَلَف يأتَسون بها آثارَ أسلافِهم في مُرتَقَى الكَمال، فَيَحصُلُ مِن ذلكَ كَمالانِ: كَمالُ الذَّات وكَمال القُدْوَةِ، ومِن حَيثُ هو قَاطِعٌ لألسنَةِ الحَاسدينَ، الذين يَحْسُدونَ أهلَ الكَمال عَلَى كَمالِهِمْ، والمُعانِدينَ لكلِّ مَنْ يَدعوهم إلى خَلع ذَميمِ أعْمالِهِمْ، فإذَا لَم يَجدوا مَغمَزًا فيمَن حَسدوه وعانَدوه، التمسوا لَه ما يَحفُّ به من العوارِض، ولا شَيءَ يَحُفُّ بالمَرء أشدَّ بِه تَعَلُّـقًا من حال آبائِه، فَمن أجل ذَلكَ شَرَّفَ اللَّه قَدرَ نَبيِّهِ، بِأنْ قَدَّرَ لَه في الأَزَل آباءَ، كانوا في مَرْتَـبَةِ السُّؤدَد وأجَلّ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقَال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قُرِئَ في الآيَـتَين بضَمِّ الفَاء، في لَفظ: « أنْـفُسِ » على أنَّـه جَمعُ « نَفْس »، فَيَكونُ مَعناه: مِن نَسَبِهم؛ لأنَّ لَفظَ النَّفس مُتَـعَيِّنٌ في هَذا المَقام لهذا المعنى. ويُفهَم مِنه أنَّ المَقصودَ به نَسبٌ خاصٌّ، وهو النَّسَبُ الرَّفيع، أي: مِن خَير أنسابِهم، بِقَرينَة مَقام المَدْح والمَنِّ.

وقُرِئَ بِفتح الفَاء مِن « أنْفَسِ »، فَفُسّر بأنَّـه اسمُ تَفضيلٍ، مُشتَـقٌّ من النَّفاسة، أيْ: مِن أشْرَفهم، والمُراد شَرف النَّسبِ. رُوِيَ عن عليٍّ بن أبي طالب، يَأثُرُهُ إلَى رَسول اللَّه، أنَّه قال: « مِن أنفَسِكم نَسَبًا وصهرًا ». وفي صحيح البخاريِّ، عَن أبي سفيانَ في حَديث هرقل أنَّه كان من كلامه مَع أبي سفيانَ أنْ قَال لَه: « وَسَألتكَ عَن نَسَبه (يَعني: النبي ﷺ) فَذَكرتَ: أنَّـه فيكم ذو نَسَبٍ، وكَذلكَ الرُّسلُ تُـبْعَث في أنساب قَومها »[1].

إنَّ شَرَف النَّسب يَتَقَوَّم من شرف القوم وشَرَف العشيرة ومِن نَزاهَةِ سلسلة الآباء

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ، سورة آل عمران (٤٢٧٨) بترقيم ديب البغا.

والأمَّهات عَن أن يَلتصقَ بها ما يَثْلَم ذلكَ الشَّرَفَ، ويَعودَ نَقصُهُ بِغَضاضَةٍ في شَرف الخَلَفِ.

فأمَّا شَرَفُ القَوم وشَرَفُ العَشيرة فحاصلٌ في شَرف العَرب من بَين الأمَم، وفي شَرف قريش، وفي شَرف بني هاشم. ولَستُ الآن بِصَدد تَفصيل الكلام فيهما؛ لأنَّ ذلكَ يَطول، وأقتنعُ هنا بما رَواه مُسلمٌ في صَحيحه والترمذيُّ عَن واثلةَ بن الأسقع[1] قال: قَالَ رسول اللَّهِ ﷺ: « **إنَّ اللَّه اصطَفى من وَلَد إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطَفَى من وَلَد إسماعيلَ كنانَةَ، واصطَفَى من كنانَةَ قريشًا، واصطَفَى من قريشٍ بني هاشِمٍ، واصطفَاني من بَني هاشم** »[2].

وأمَّا نَزاهة سلسلة الآباء والأمَّهات: فَنزاهَةُ سلسلة الآباء هي السُّؤْدَد، ونَزاهَة سلسلة الأمهات هي الصّيانَةُ.

فأمَّا سُؤْدَد آبائِهِ ﷺ، فأوَّلهم إبراهيم رسول اللَّه، ثمَّ ابنُه إسماعيل، رَسولٌ ابن رسولٍ، وهو أفضل أولاد إبراهيمَ على الصحيح.

ثم إنَّ جميعَ آباء رَسول اللَّه الذين حُفظت أسماؤهُم إلى عدنانَ كانوا أفضلَ أجيالهم في أقوامهم ومَجمَع مَكارمهم، مَرموقينَ بِعَين الوَقار والتَّعظيم:

فأبوهُ عَبد اللَّه فَضَّلَه اللَّه بِمنقَبَةِ نَذْر عَبدِ المُطَّلب أبيهِ أن يَذبَحَهُ قربانًا للَّهِ، شُكرًا عَلى أن جَعَلَهُ عاشِرَ عَشرَةِ ذُكورٍ من أبنائِهِ، وألهَمَ اللَّه قريشًا فأشاروا بِفدائه بمائةٍ من الإبلِ، فَكان ذلكَ إلهامًا إلهيًّا؛ لِيكونَ آخرَ آباءِ رسول اللَّه في ذُرِّيَّة إبراهيمَ ذبيحًا مُفَدًّى، كما كان أوَّلُهم من تلك الذريَّة ذبيحًا مُفَدًّى. ولذلكَ وُصِفَ رَسول اللَّه: « **بأنَّهُ ابنُ الذَّبيحَيْن** »[3].

وأبوه عَبد المُطَّلِبِ كانَ أفضَلَ قُريش وسيِّدَ أهل البَطحاءِ، ومُظهرَ بئرِ زَمزَم كَما ظَهرَت لإسماعِيلَ.

وأبوه هاشمٌ، واسمه عَمرو، وكانَ سيِّدَ قريش ومُطعمَ الناس في المجاعة. قَال عَبد اللَّه ابنُ جَدعانَ:

عَمرو العلا هَشَمَ الثريد لقومهِ ... قَوم بمكةَ مُسْنِتينَ عِجافِ

---

(١) واثلة بالثاء المثلثة، والأسقع بقاف وهو من بني كنانة، صحابيٌّ خَدم النبي ﷺ ثلاثَ سنين، وتوفي سنة (٨٢هـ).

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٢٢٧٦)، والترمذي في المناقب، باب في فضل النبي ﷺ (٣٦٠٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المُستدرك على الصحيحين (٦٩٥٣).

وأبوه عَبدُ منافٍ، كانَت قريش تُلَقِّبه قَمَرَ البَطحاء.

وأبوه قُصَيّ هو سَيِّدُ قريشٍ ومُعيد مجدهم، وجامِع شَتاتِهم، وهو الذي استَرَدَّ وِلايَةَ الكَعبة من خُزاعَةَ.

ولَم يَحفَظْ لَنا التاريخ ما كان من السيادة لحكيمٍ ومُرَّةَ على قومهما.

وكَعبٌ كان من أعظَم سادَة قريش والعَـرَب قاطبةً، وهو أوَّل من سَمَّى يَومَ العَروبة بالجُمُعَة؛ لأنَّه كان يَجمعُ فيهِ قريشًا ويَخطُبهم. وقَد أرَّخت قريش بعام مَوتِهِ(١).

ولَم يَحفظ لَنا التَّاريخ ممَّا كانَ من مَجد لُؤَيٍّ وغالبٍ وفِهرٍ المُلَقب بقريش لأنَّه كانَ يَقرِشُ عَن خَلَّةِ المُحتَاج، فَيسدُّها بماله.

ومَالك والنَّضرُ طُويَ مَجدُهما في مَنسيِّ التاريخ.

وكِنانَة كَان عظيمَ القَدْرِ، أعَزَّ مَن دُفِعَت إلَيْهِ المَطِيُّ.

وخُزَيمَة لَم يُحظَ التاريخ بذكر مَجده.

ومُدركَة كان في وَجهِهِ نورٌ. فَكانوا يَعلمون به أنه يُؤْذنُ بنَـبِيٍّ، يَخرجُ من نَسلِه.

وإلْياس أوَّلُ مَنْ أهْدَى البُدْنَ إلى الكَعبَة، وهو الذي ظَـفَـرَ بالحَجَرِ الذي قامَ عَلَيهِ إبْراهِيمُ لِبنَاءِ الكَعبَةِ، وهو المُسَمَّى: بمَقام إبراهيمَ. وأبوهُ مُضَر كانَ أفْضَلَ قَومه، وقد رُويَ أنَّ رَسول اللَّه ﷺ قال: « **لا تَسبُّوا مُضَرَ فإنَّه كانَ قَد أسْلَم** »(٢).

وأبوه نِزارٌ، كان في وَجْهِـهِ نورٌ، وكانَ واضعَ الكتابَةِ العَربيَّـة في أحَدِ الأقوال.

وأبوهُ مَعَدٌّ، كان قائدَ قَومِهِ، وكان يُحارب بَني إسرائيلَ، يَدفع غاراتِهِم عَن بِلادِ العَرَبِ.

وأبوه عَدْنَانُ كانَ أشرَفَ العَرب، وكانَ بُخْتَنَصَّرُ لَمَّا غَزا بلادَ العَـرَبِ، وغَـزَا أرشَيلمَ حمَلَ معه عدنانَ، ومَعه النَّبيُّ أرميَا إلى بابِلَ.

وبينَ عدنانَ وإسماعيلَ أربَعونَ أبـًا أو سَبعةٌ وثلاثونَ، أسدَلَتِ العصورُ عَلى مَجدهِمْ ستورَ القِدَم، فَحَجَـبَت عنَّا مَجدًا يَملأُ ذكرُه السمعَ والفَمَ.

وهَـل يُـنبـت الخَـطـيّ إلَّا وشيـجـهُ ... وتَـنْبُــت إلَّا فــي مَنـابـتـها النَّـخـلُ

---

(١) كان موت كعب قبل عام الفيل بخمسمائة وستين سنةً.

(٢) رواه ابن سعد عن عبد اللّه بن خالد مرسلًا، وفي الروض الأنُف للسهيلي أنَّ الزبير بن بكار رَوى في مسنده: « لا تَسبوا مضرَ ولا رَبيعة، فإنهما كانا مؤمنين » وكلا الـحَديثَيْن بين مَرتَـبَـتَي الـحسن والضعف.

طهارَةُ هذا النَّسب:

طهارَة النَّسب هي خُلوصُهُ من الشكوك والأمْشاج، وهذا النَّسب النبويُّ قد كان أباؤُهُ في شَرَف مَحْتِدِهِمْ، وحُسْنِ سُمعَتِهِمْ ورئَاسَتهم لأفضل مكانٍ في بلاد العرب، وفي العَالم أجمَعَ، وهو بَيتُ إبراهيم، وتَسلسلهم من إبراهيمَ، ما كانُوا لِيَجْعَلوا اقترانَهم بالنساء إلَّا عَلى طَريقَة العَقد المُسَمَّى: بالنِّكاح الذي تَتَقَوَّم حقيقَتُهُ مِن وَصْفَيْنِ وهُما: الاختصاصُ والشُّهرَةُ، اللذَيْن هما أوثَق ضَمانٍ لصحَّةِ النَّسَبِ. فَالاخْتصاصُ هو حَقيقَةُ النِّكاح أيْ: أنْ تَختَصَّ المَرأةُ بِرَجلٍ، لا يَقرَبُها غَيرُهُ ما دَامت فِي عِصْمَتِهِ، لَم تَنْفَصلْ عَنْهُ بِطَلاقٍ أو مَوتٍ.

وبذلكَ الاختصاصِ لا يَتَطرَّق الاحتمالُ في الأبوَّة والبُنُوَّةِ. والشُّهرَةُ أن يَخطبَ الرَّجلُ المرأةَ بِواسطة أولِيائِها أو ذَوي قَرابَتِها من رجالِ قَبيلَتِها، فَتَرْضى ويَرضونَ، ويَدفَعُ إليها صَداقًا وتُزَفُّ إلَيه عَلَنًا، بِذلكَ يَسلَم النَّسب من الخَفاء والادِّعاء.

قَال مُحمد بن السائب الكَلبيُّ النَّسَّابَةُ: « كَتَبْتُ للنبيِّ ﷺ خمسمائة أمٍّ، فَما وَجدتُ فيها سِفاحًا ولا شيئًا، ممَّا كانت عَليه الجَاهِلِيَّةُ، غَيرَ النِّكاح ».

فَتَنْزيهُ اللَّه نَسَبَ رَسولِهِ من ذلكَ لَيسَ لِكون تلكَ العُقودِ مُحَرَّمَةً؛ إذ لَم يَكن يَومَئِذٍ شَرع يميز الحلال من الحرام، ولكنْ لِأنَّ ما عَدا النكاحَ يَعتَريهِ الشكُّ في صِحَّة النَّسب المُتَوَلِّد منهُ.

زكَاءُ هذا النَّسَبِ:

أردْت بِزَكاء النَّسبِ سَلَامةَ السَّادَة، آبَاءِ رَسول اللَّه، من وَصْمَة الخِزْي يَومَ عَرْضِ الأمَم وحِسابِها. وهذا فَضيلَةٌ دِينيَّةٌ لَيسَ إلَيها كَبيرُ التِفاتٍ في شَرَفِ الابْنِ؛ لِأنَّ النَّقَائِصَ الجُثمانيَّة إذا اعْتَرَتِ الأصولَ كانَ مِن شَأنِهَا أنْ تَجُرَّ للفَرعِ نَقصًا يَتَطَرَّق خِلقَتَهُ؛ لِأنَّ الفَرْعَ سُلالَةٌ مِن الأَصْلِ، أو يَتَطَرَّقُ عِرضَهُ، أو رَمَق عُيون القَوم إيَّاه، إذا كَانت نَقائصُ الأصول، ممَّا يُذَمُّ بِه الأصل في عُرف البَشَر أو عُرف القَبيلَة، كَعَدَمِ الحَصانَةِ في الأمَّهَاتِ وخِسَّةِ الفِعال في الآبَاءِ، كما أشَرنا إلَيهِ آنِفًا.

وأمَّا الأغلاطُ الاعتقاديَّةُ والعِلْمِيَّةُ فَهي أشيَاءُ تَتَعَلَّقُ بالتَّفكير، وهو حَرَكَةُ النَّفسِ في المَعْقولاتِ، وتِلكَ منَ الانْفِعالاتِ النَّفسيَّةِ المُتَجَدِّدَةِ والمُتَغَيِّرَةِ، ولَيست

من أصلِ الخِلقَة، أَلَا تَـرَى أَنَّها تَقبَلُ الإيجَادَ والاضْمِحْلالَ والزِّيادَةَ والنُّقصانَ، بِحَسَب البيئَةِ والتَّعليم، وحُسن التَّلقي، وصِحَّةِ العُلوم والانْكباب عَلَى التَّمحيص، وبِحَسَبِ أَضْدَادِ تلكَ، فَرُبَّما صَدِئَتْ عُقولٌ نابِهَـةٌ ذَكيَّة، بِسَبب الإعْراضِ عَن استِعْمال ذَكائِها، وَرُبَّما ثَـقُفَتْ عُقُولٌ بطيئَـةٌ بِقوة الكَدِّ والانْكِباب، فَعَلِمْنا مِن ذَلِكَ أَنَّ الأعْراضَ الفكريَّة لا يَنجَـرُّ مَفعولُها من الأَصْلِ إلى فَرْعِهِ، ولا يَـثبُتُ حُكمُها إلَّا لِصاحِبِهَا خَاصَّةً، فالنَّـظَر إلى الحَالَـةِ الاعتقاديَّـةِ في أزمانِ الجاهليَّـة إن كانَ مِن تَـوَقُّع تَطَرق النَّبز للمتَّصِفِ بها، فأَهْلُ الجاهِلِيَّـة كانوا يَعُدُّونَ الذين اعتَقَدوا اعتِقادَهُمْ مِن كُمَّلِ سَادَتِهم، فَلا يُتَوقع مِنْهُم أن يَنْـبِزوا الرَّسولَ ﷺ، بِتَقدير كَون بَعضِ آبائِهِ كانوا يَعتقدونَ اعتقادَ الجاهلية.

وإن كانَ من جانب توقع غَضِّ نَظر المسلمين، فالمسلمون قد تقرَّرَ في قُلوبِهم مِن جَلالة قَدر الرسول ﷺ، وفَضلهِ ما لا يُخالِجُهُمْ مَعَهُ خاطرٌ من خَواطر التنقيص.

وأمَّا من جانب الحقائق، فَـتَنقيصُ المَرء لأَحْوال أُصولِهِ تَنقيصٌ وَهميٌّ؛ إذِ الحقيقة لا تَسمح بأن يوصفَ أحدٌ إلَّا بما فيه. والأمورُ الوَهميَّـةُ إنَّما تَظهر آثارها في العالَم الدنيويِّ.

وأمَّا العالم الأُخْرَويُّ فهو عالَم الحَقائق، فَلا يُنتَقصُ المَرْءُ فيه بالأحوال الإضافيَّـة، المُنْجَـرَّةِ مِن غَيرهِ، ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فَـالزَّكاء الأخـرَويُّ لا يُـؤَثِّـرُ وُجودُهُ ولا عَـدَمُـهُ شـرفًا فـي الـدنيا والآخرة، قَـبْلَ مَجيءِ الشَّريعَـةِ؛ إذ التَّدينُ بدينٍ باطِلٍ أو بالكفر والشِّرْكِ، لا يُنافِي كَرَمَ العُنْصُرِ، ولا شِعَارَ السُّؤددِ، فَكَمْ مِن سَادَةٍ وكِرامٍ، وقَادَةِ أَمَمٍ كانوا في العَرَب وغَيرهـم، بَلغوا من شَرَفِ المَحتد ومُرتَـقَى السُّؤددِ مَبلغًا بَعيدًا ولَم يَـكونوا متقلدينَ دينًا صحيحًا؟.

وكَم من صالِحي قَومٍ وطلَّابِ نَجَاةٍ كانوا ضُعَـفَاءَ، لا يُؤبَهُ بِـهِـمْ. وقَد قال قَومُ شُعَيبٍ له: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١]. وكانَ حَاتم الطائي وهَرم بن سنان وعَبد اللَّه بن جدعانَ من أكبَر سادَة العَرب من المُشركين. وفي الحَديث: « **النَّاسُ مَعادنُ كَمعادن الذهب والفضَّة، خِيارُهم في الجاهليَّـة خيارهم في الإسلام** »[1]. فَلو كانَ آباءُ رَسول اللَّهِ أو بَعضهم عَلى دين العَرب في الجاهليَّـة، كما كانَ آباءُ أفاضِلِ المسلمين من

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٣٩٤) بترقيم ديب البغا.

الصحابة، لَمَا كانَ ذلكَ مُخِلًّا بما يَثبتُ لَهم من كرم العُنصر وشَرَفِ السُّؤدَدِ ولا مُـنْقِصًا من قَدر الرسول ﷺ، ولكنْ عِظَمُ قَدر الـرَّسول، وكَرامَتُه على ربِّه، زَوَتْ لَهُ مِن عِندِ رَبِّـهِ الكَريم جميعَ ما به التَّـفاضُلُ والاعتبارُ، فَضَمَّ إلى كَرَمِ عُنصرِهِ في الدنيا شَرَفَ آبائِـهِ في الآخِرَةِ.

والشَّرَفُ الأُخْرَوِيُّ يَتَـقَوَّمُ بالنَّجاة من العذاب وبِرفْعِ الدرجات في دار الثَّوابِ. ولِعلماء الإسلام في تَحقيق مَـقام آبائِـهِ ﷺ مِن هذا الشَّرف أقوالٌ:

فَـكانَ جَماعة قليلةٌ، نَظَرَت إلى ما يَـقتضي أنَّ هذا الشَّرفَ لا يَنتفع به غيرُ صاحبِهِ، ولَيْسَ هو كالشَّرف في الدنيا يُعَدُّ عَدمه أو الضّعف فيه نَقصًا بينَ أهلها، فمن أجل ذلك لم يَغوصوا بالنظر، واتَّـبَعوا أدلَّـةً ظاهريَّـةً، فَـقالوا: إنَّ آباءَ رَسول اللَّه الذينَ كانوا على دينِ قَومهم غَير ناجينَ يومَ القيامة. وهذا قَول مَن يَرى أنَّ الإيمانَ باللَّه ووَحدانيـتِـهِ واجبٌ بالعَقل لا بالشَّرع. وهو قَول جُمهور الماتُريديَّـة وكافَّة المُعتَزلَةِ. ورَأوا أنَّ شأنَ العَـرَب كلِّهم في تلكَ العصور هو الشركُ، وأنَّ أحاديثَ دَلَّت على عقوبَـة مُشركي العَرب على شِركهم في الآخرة، وأنَّ رَسولَ اللَّه قالَ لأعرابيٍّ سألَه عَن أبيه، قال: « في النَّار »[1].

وأنا أجيب عَن هذا بأنَّا لَو سَلَّمنا أنَّ الإيمان واجبٌ عَلى النَّاس بدلالة العَقل، فَمَنْ أنْـبَأنَـا بأن أبَـوَيْ رَسول اللَّه وآباءَهُ كانوا على دِين قَومِهم؟ ولِمَ لا يَكونونَ مِمَّن رَفَـضَ عبادَةَ الأصنام، وتَوَخَّى الحَنيفيَّة ما استطاعَ، وأنَّهم لم يَكونوا يَتظاهرون بذلك، إذ لا موجبَ للتظاهر به، إذ لَم تَـكن لهم قدرةٌ على تقويم دين قَومهم ولا شريعَةٌ توجب عَلَيْهِم تغييرَ المُنكَر؟ وربَّما كانَ التظاهُر به يُوجِبُ نفورَ قَوْمِهم مِنهم، فَيَضيعُ بذلك كثير من مَساعيهم لخير قومهم وعِمارَة كَعبتهم. ولَيس وجود أحدٍ في أمَّـة تَدينُ بالشرك يقتضي أن يَكون الموجود بينهم هو على مِلَّتهم.

وأمَّا الحَديث الذي رَواهُ مُسلمٌ، عن حَمَّادِ بن سَلمة عن ثابت عن أنَسٍ أنَّ أعرابيًّا سألَ رَسولَ اللَّه عن أبيه، فَقال له: « في النَّار ». فَقال له: وأينَ أبوكَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قَال: « في النَّار ». فَقد أجابَ عَنه العُلماء بوجوهٍ، أحْسَنُها:

أنَّ الـرَّاوي - وهو حَمَّاد بن سَلَـمَةَ - رَواهُ بالمَعنى فَغَـلطَ فيه؛ لأنَّـه قَد رَواه مَعمَر ابن ثابتٍ عَن أنسٍ أنَّـه لَمَّا قال لَه: أينَ أبوكَ يا رسول اللَّه؟ قَال لَه رسول اللَّهِ: « حَيثُما

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن موسى بن إسماعيل (٤٠٩٥) طبعة دار الفكر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

مَرَرْتَ بِقَبرِ مُشرِكٍ، فَبَشِّرْهُ بالنَّار »(١).

قَالوا: ومَعْمَر أثبَتُ من حَمَّادٍ، فإنَّ حَمَّادًا تُكُلِّمَ في حِفظِهِ، ولَه أحاديثُ مُنكَرَة، ولذلكَ لَم يُخْرِجْ لَه البخاريُّ في الصَّحيحِ شَيْئًا.

وكذلكَ رَوى الحديثَ ابنُ ماجَه عَن الزهريِّ، عَن عامرِ بن سعدِ بن أبي وَقَّاصٍ عن أبيهِ بمثلِ ما رَواه مَعْمَرٌ عَن ثابتٍ عَن أنسٍ(٢)، فَيكونُ جَوابُ رَسول اللَّه جَرى عَلى الأسلوب الحكيمِ، عَلى خلاف مُقتَضى الظَّاهر، فَلا عَلاقَةَ لَهُ بالمَسؤول عَنْهُ، فَظَنَّه حمادٌ جاريًا على مُقتَضَى الظَّاهر، ولَم يَرَ لَه وَجهَ اتِّصالٍ بالسُّؤَالِ إلَّا أن يَكونَ عَلى مَعنى إفادة الحُكْم الخاصِّ بِوَجه العموم، فَعَبَّر عَنه بما اقتَضى أنَّه إخبَارٌ بأنَّ المَسؤولَ عَنه في النّارِ.

واعْلَمْ أنَّ الحالَ الذي اقتَضَى إخراجَ جوابِ رَسول اللَّهِ على طريقة الأسلوب الحكيم وعُدولَهُ عن صَريح الجَواب أنَّه رأى في جواب سُؤالِه ما يُوجبُ انكسارَ نَفسه؛ لأنَّ شأنَ الذي يُصيبُه ما يَكره أن يَشتَدَّ عَليه إذا كان غيره ممن يظنه قَد شارَكه في المصيبة سالمًا من تلكَ المُصيبة.

وقيلَ في الجواب: إنَّ السَّائلَ عَنيَ بِقَولِه: أينَ أبوك؟ أبا طالِبٍ فإنَّه الذي يَعرفُهُ الناس، وكان النبيُّ ﷺ يُنسب إلَيه لأنَّه كافِلُهُ، ألاَ تَرَى أنَّ قريشًا قالوا لأبي طالب: « قُل لابنكَ يَرجع عن شتم آبائنا »، وقالوا له حين كَتبوا صَحيفَةَ القَطيعة: « أسْلم إلينَا ابنكَ، ونَحن نُعَوّضكَ عَنه بأحد أبنائنا ».

وذَهبَ جَماعة إلى أنَّ الحديثَ مَنسوخٌ بما دَلَّ عَلى عَدَمِ مُؤاخذة أهل الفَترة وهو بَعيدٌ؛ لأنَّ النسخَ لا يَدخلُ الأخبارَ، والرَّسول على مُقتَضى تلكَ الرواية أخبَرَ بأنَّ المَسؤولَ عَنه في النَّارِ فَكَيفَ يَنسَخ ما أخبَرَ به، فَلا يستقيم هذا الجواب إلَّا بِتَكَلّفٍ.

فأمَّا جُمهورُ عُلماء الأمَّة - ونَحن في زُمرَتهم - فقد أثبَتوا لأبَوَيْ رَسول اللَّه وآبائِه الشَّرَفَ الأخرَويَّ، ولَهم في ذلك ثلاثُ مَراتِبَ:

المَرتَبة الأولى: إنَّهُ شَرَفُ النَّجاة مِن خِزْيِ يَومِ القِيامَةِ، بأن يَكونوا ناجينَ من عَذاب النار، وذلكَ بأنَّهم كَانوا على دينِ قَومهم، أو بَعضه، ولَكنَّهُمْ غَير مُؤاخَذينَ عَلى ذلك؛

---

(١) الطبراني، المعجم الكَبير (١ / ١٤٥) (٣٢٦).

(٢) ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين (١٥٧٣).

لأنَّهم لَم يأتِهِمْ رَسولٌ بِشَرعٍ فيَكفروا به، حتَّى يَحقَّ عَليهم عَذاب الكافرين بالرسل؛ لأنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

والمُراد بالرَّسول هو مَعناه المعروف في اللُّغة، ومَن تأوَّلَه بما يَشمل دَلالةَ العقل فقد خَرَجَ عن مَهيعِ اللُّغَةِ، عَلى أنَّهُ يُصادمه قولُه: نَبعَثَ؛ إذِ العَقل لا يبعثُ.

وممَّا نوقن بِهِ أنَّ آباءَ رسول اللَّه وأمَّهاتِه كانوا كلّهم من أهل الفَترة؛ إذ لَم يَقم في العَرب العدنانية رَسولٌ بَعدَ إسماعيلَ ﷺ، فإنَّ الرسل الذين جاؤوا من بَعده في العرب هم: هودٌ وصالحٌ أُرْسِلَا إلى عادٍ وثَمودَ من العرب القحطانيينَ، وشُعيبٌ أُرسلَ لأهل الرَّسِّ وهم بَقيَّة من ثَمود، وخالد بن سنان العَبسي[1] أُرسلَ إلَى عَبْس خاصَّةً من العدنانيين، وقيل: هو نَبيٌّ ولَيسَ برسول.

فَمن كان يُعَدُّ من آباء رَسول اللَّه ﷺ بَعدَ الذين أدرَكوا إسماعيلَ فَهم أهل فَترَةٍ.

وقَد قَال جمهور علماء السنة والأئمَّةُ الثلاثةُ، مالكٌ والشَّافعيُّ وأحمد والأشاعرةُ كلُّهم وأهل بخارى من الماتريديّة: إنَّ أهلَ الفَترة غيرُ مُؤاخذينَ على الجهل باللَّهِ، وبِوحدانيته لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ورَدُّوا أو تأوَّلوا جميعَ الآثار الدالَّة على خلاف هذا الأصل.

وقَال المَالكية: إنَّها أخبار آحادٍ، لا تُعارضُ قَواطِعَ الاعتقادِ، وإذَا بَطل استحقاقُ العذَاب لم يَتَحقَّق الوعيد في شأنهم، فَقيلَ: إنَّهم غير مُعَذَّبين ولا مُثابينَ وهو ظاهر كَلام المُحَدِّثينَ، ثمَّ يَقع امتحانُهم فَيَدخلونَ الجَنَّةَ، وقيل: يَدخلون الجَنَّةَ دونَ امتحانٍ، وهو مَنسوبٌ لأهلِ الأصول من الأشاعرَةِ وللشافِعي في الأمّ.

---

(١) قال تعالى: ﴿ ... وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦]، وعلق الشيخ الطاهر ابن عاشور في تفسيره على هذه الآية بقوله: « ويتعلق « لتنذر قومًا » بما دلّ عليه مصدر « رحمة » على الوجوه المتقدمة. واللام للتعليل. والقوم: قريش والعرب، فهم المخاطبون ابتداء بالدين وكلهم لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ، وأما إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلة قريش موجودة يومئذٍ ولا قبائل العرب العدنانية، وأما القحطانية فلم يرسل إليهم إبراهيم؛ لأن اشتقاق نسب قريش كان من عدنان، وعدنان بينه وبين إسماعيل قرون كثيرة ». قال رسول اللّه ﷺ: « **أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد علات، وليس بيني وبينه نبي** »، رواه مسلم رقم (٢٣٦٥)، قال ابن كثير في البداية والنهاية: « وكل واحد من خالد ابن سنان وحنظلة بن صفوان كان في زمن الفترة وكان صالحًا ولم يكن نبيًّا ». (١٧/ ٨٥) طبعة دار هجر (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).

المرتبة الثانية: إنَّ شَرَفَهم الأخرويَّ شَرفُ الثواب على الإيمان باللَّه الواحد، عَلى حُكم مَا ثَبتَ لمن خَلعَ الشِّركَ من أهل الفَترة، مِثل أميَّـة بن أبي الصلت وزَيد بن عَمرو بن نُفَيل، فإذا كانوا كذلكَ ثَـبَـتَت لَهُم النَّجاةُ والثَّوابُ على قَول جَميع علماء الإسلام. وبهذا قال الإمام فَخرُ الدِّين الرَّازي وجَماعة من العلماء منهم جلال الدين السيوطي والقَسطلاني وهو قَولُ الشيعةِ، وأنا أستَروحُ لهذا دليلًا من قَوله تَعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٩]، فأثبَتَ أنَّ كلمةَ التوحيد بقيت في عَقب إبراهيمَ أي: لَم تَنقطع فَلم تَزَل يَحفظها حافظ من عقبه. وقَوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: رَجاءَ أن يَرجعَ مَن لا يَعلمها إلَى مَن يَعلمها فَلا يَنقطع ذلك من عَقِب إبراهيم.

والإشارَة والضَّمير عائدان إلى العَرَب بقرينة السياق وبِقرينة قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣٠، ٣١]. وهذه كلّها مَقالَة العَرب، وآبَـاء العَرب يَشمل جميعَ آباء جَميعهم ما عَدا آباء رسول اللَّه ﷺ؛ لأنَّـه غَير داخلٍ في الإشارَة. ومَعنى تَمتيعهم وآبائِهم تَمتيعُهم بكَفِّ العَذاب عنهم في الدنيا وفي الآخرَة عَـمَّن أشرَكوا في مدَّة الفَترة حتَّى جاءَهم مُحمد، فَحقَّت يَومئذٍ مُؤَاخَـذَتُهم، فَـيُؤخَذ من عَرض هذا الكلام وفَحواه أنَّ آباءَ محمدٍ ﷺ من العَقِب الذين بَـقيت فيهم كلمة التوحيد، فَكانوا مؤمنينَ في مُدَّة الفترة، ولَم يَكونوا مُمَـتَّعينَ، ولا يُقال: لَعلَّ الذين بَقيت فيهم كلمةُ التوحيد هم بَنو إسرائيل؛ لأنَّا نقول: هَذا القول يُنافي سياقَ تَوبيخِ العرب والتعريضِ بهم والتعليل.

وهَذا الدليل أحسن وأقْرَب من احتجاج بَعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، على أحَدِ تَفسيرَيْن وهو تَفسيرٌ بَعيدٌ. ولا حاجَةَ إلى بَيان ذلك فراجعه. ويَعضد هذا المسلكَ في هذه المَرتبة ما وَرَدَ من الآثار المُتظافِـرَةِ التي يُقَـوِّي بَعضُها بعضًا بأنَّ عَبدَ المُطَّلب وهاشمًا وعبدَ منافٍ وقُصَيًّا وكعبًا و كنانَـةَ وخزيمَة ومُدركة وإلياس ومُضَرَ وعَدنان كانوا مؤمنينَ على دِين إبراهيمَ، وأنَّ عَبدَ المُطَّلب وقُصيًّا حَرَّما الخَمرَ عَلى أنفسهما وأوصى قصيٌّ أبناءَه بترك شُربها، وترك عبادة ما سوى اللَّه تعالى، فهؤلاء ثَـبَتَ فيهم آثارٌ رَواها السهيلي وغيرُه.

والمَسكوت عنهم من سلسلة الآباء لا يُظن بهم إلا أنَّهم كانوا على دين إبراهيمَ،

لا سيّما مَن تجاوز عدنانَ، فإنَّ قربَهم إلى إسماعيل وإبراهيمَ يُـقَوّي الظن بإيمانهم بدين أبَـوَيْهِم.

المرتبة الثالثة: أن يَكون شَرفُهم في الآخرَة بنَـيْلِ فَضيلة صالحي المسلمين من اتباع هذا الدين المُحَمَّديِّ. وهَذه المَرتَـبَـةُ لَم يَدُلَّ عَليها دليلٌ من صِحاح الآثار، وإنَّما رُويَ فيها حديثٌ عَن عائشةَ - رَضيَ اللَّه عنها - خَاصٌّ بأنَّ اللَّـهَ أحْيَـا لرسول اللَّه أبَـوَيْـهِ حتَّى آمَنا به، رَواه الخَطيب البغداديُّ والسُّهَيليُّ، وابنُ عساكرَ والقرطبيّ، وابن شهيد وابن المُنير والطَّـبَري وابن كَثير واتَّـفَق مُعظَمُهم على أنَّ سَنَـدَه ضَعيف، فيه مَجاهيل. ومال بَعضهم إلى تَصحيحِهِ وَوَقعَ للبعض في هذا المَقام تَخليط وخروجٌ عن دَائرة مَجاري البَحث.

ونَحن على ما عاهَدْنا عَلَيه من تَركِ التَّـكلف وصَونِ العلم عن التَّحْريفِ - ويقينُنا بأنَّ اللَّهَ أغنى أهلَ هذا الدين بِصَحيحهِ عَن الضَّعيف - نَقول الحقَّ: إنَّ هَذا الحديثَ ضعيفٌ وإنَّ نَوالَ أبَـوَيْ رَسولِ اللَّه فَضيلةَ الإيمان لا تَـكون رَهنًا على حَالة إحياء أبَـوَيْه الأقرَبينَ، بِحَيث إذا صَحَّ الحديثُ حَقَّتْ، وإذا ضَعف بَطلت، فإنَّا إذا جَزَمْنا بأنَّهم كانوا عَلى بَقيّـةٍ من مِلَّةِ إبراهيمَ كان ذلكَ مُحَصِّلًا لاستحقاقهما الثوابَ بِفضل اللَّه تعالى وثَبتت لهم فضيلة، قَلّ أنْ شَارَكهم فيها مُشاركٌ.

وإذا انفتَحَ بابُ الفَضلِ لم يَبقَ إلَّا رَفع الدَّرَجاتِ، فَلِلَّهِ الاختيار في إكرامهم بأحسنَ ما يكرم به صالحَ المؤمنين، فإذا كانَ اللَّه قد أكرَمَ مَن نَصرَ رَسولَ اللَّه، وأيَّـدَه وهم أهل بَدرٍ فَقال: « **اعمَلوا ما شئتم فَقد غَفرْتُ لَـكُم** »[1]، أفلا يُكرم مَن كانَ سببًا في ظهور رَسولِهِ - وهُم آباؤه وأمَّهاتُـهُ - فإنَّ كلَّ الأسباب الخاصَّة بالرَّسول مَظاهِرُ لِعنايَـة اللَّه تَعالى به، وكلُّها من عند اللَّه: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] ، ولَقد قَال تَعالى لرسوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ٥] .

* * *
* *
*

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب فضل مَن شَهِدَ بدرًا (٣٧٦٢) بترقيم ديب البغا.

الإسْراءُ[١]

قَد وَردَ إليَّ كتابٌ من العالِم الفاضِل الشيخ حافِظ سليمان، من عُلماء حَلَبَ الشهباء، مُـفعَم بدلائل الفَضل، وحُسنِ الظَنِّ، وضارِب مِن مَكارم الأخلاق الإسلاميَّـة بِعَطَن، يَستزيد منِّي أن أبسطَ القولَ في بَحث إسرَاء رَسول اللَّه ﷺ، الذي هو من المَباحثِ التي أنكرها مُحمَّد البَعس.

وإجابَـةً لِرغبته العلميَّـة، وحِرصًا عَلى التحلِّي بِفَضل خِدمتهِ السنَّـة النبوية، أقولُ:

يَتَعلَّق القول بإسراءِ رَسول اللَّه ﷺ بأربعةِ مَباحِثَ:

أحَدها: هل هو ثابِتٌ؟ وهَل يَجبُ الإيمان به؟.

الثاني: هَل هو إسراءٌ في المَنام أو في اليَـقَـظَة؟.

الثالث: هل كان بالـرُّوح فَـقَط أو بها وبِالجَسَد؟.

الرَّابـع: هَل هو إسراءٌ إلَى المَسجد الأقْصى ثمَّ إلَى السَّماء، أو هوَ إسرَاءٌ إلَى المَسجد الأقصى فَقَط ؟

فأمَّا المَبحثُ الأول..

فَـقَد انعَقَدَ الإجماعُ عَلى ثُبوتِ إسراءٍ للـنَّبيِّ ﷺ، منَ المَسجد الحَرام إلَى المَسجد الأقْصى، عَلى وَجهِ الإجْمالِ. وقَد ثَـبَتَ ذلكَ بالقرآنِ، وبِأحاديثَ صحيحَةٍ منَ السنَّـة. وقَد ذَكَـرَ أئمةُ عِلم الكَلام أنَّـه ثابِتٌ بالإجماع؛ أي: ثُبوتُـهُ عَلى وَجْهِ الإجْمال. ولذلكَ فَالإيمان به على الإجمال واجبٌ، وإنكارُ مُجْمَلِـهِ بَعدَ العِلم بهِ، أو الوُقوفُ عَلَيه، إلْحَادٌ في الدِّين؛ لِثُبوتِـهِ عَلى الإجمال في القرآن. إلَّا أنَّـهُ لَيسَ مِن المَعلومِ بِالضَّرورةِ. فَإنكارُه يَلزم منهُ الكفرُ، ولَيسَ بِكُفرٍ صَحيحٍ.

وَوَقَـعَ الخلافُ في تَـفصيل هذا المُجمَلِ عَلى أنْحاءٍ.

أمَّا المَبْحَثانِ الثاني والثالث..

فالخِلاف في أنه هَل هو إسراءٌ بالجَسد والرُّوحِ أم بالروح فَـقَط؟.

---

(١) صدر هذا المقال: بعنوان: «الإسراء»، بِمَجلَّة الهداية، يوليو (١٩٧٥م) (ص ١١٠ - ١١٢) ولكن لا ندري - في الوقت الراهن - تاريخ تَـحريرِه.

ذَهَبَتْ عائشةُ ومُعاويةُ - رَضي اللَّه عَنهُما - ومحمَّدُ بنُ إسحاق والحَسَن البَصريُّ في روايةٍ عنهُ، إلى أنَّ الإسراءَ كانَ رُؤيَا مَنام، رَآهَا رَسولُ اللَّه، فَهو إسراءٌ بروحِهِ الشَّريفة، ومُكاشَفَةٌ صَادِقَةٌ من الكُشوفَاتِ الغَيبيَّـةِ. وأنَّ ما رَآه رسولُ اللَّه واقعٌ لأنَّ رؤيَا الأنبياء وَحيٌ.

وحُجَّتهم في ذلك ما رُويَ عَن رسول اللَّه ﷺ مِن رِواياتٍ فيها ذكرُ وقوعِ ذلكَ مَنامًا، أو بَينَ النَّوم واليَقَظَة، وفي بَعْضِها: « **فَاسْتَيقَظْتُ وأنَـا بِالمَسجدِ الحَرام...** »[1]، ونَظير ذلكَ مَرويٌّ في صَحيح البخاريِّ بِرواياتٍ مُتَعَـدِّدَةٍ.

وتَأوَّلوا الإسراءَ المَعنيَّ في قَوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وذَهَبَ جمهورُ السَّلف، ومِنهم عُمَرُ وجابر وأنس وأبو هريرةَ وابنُ مَسعودٍ وحُذيفَةُ ومالكُ بنُ صَعصَعَةَ وأبو حَبَّـةَ البَـدريُّ وابنُ عبَّـاسٍ مِن الصَّحابَـةِ - رَضِيَ اللَّه عنهم - والضَّحاك وسَعيدُ بن جُبير وسَعيد بنُ المُسَيّب وابنُ شهابٍ والحَسَنُ البَصريُّ في أصَحِّ الرِّوايَـتَـيْن عنهُ، من التَّـابعينَ، ومَن وافَـقَهم من المُسلمينَ من الفُـقَهاء والمُحَدِّثينَ والمُفَسِّرينَ والمُتَكلِّمين، إلَى أنَّـه إسراءٌ بالجَسَد مَع الرُّوحِ.

وحُجَّـتُهم في ذلكَ:

- ظاهِر الآية: إذِ الإسراءُ هو السَّيرُ بالسائر ليلًا، ولا تُسَمَّى رُؤْيَـةُ الـبَشَر في المَنامِ إسْرَاءً.
- والأحاديثُ الظَّاهرة في أنَّـه كانَ يَـقَـظَةً.

وقَد اختارَ المُحَقِّـقونَ هذا القولَ، واحتَجُّوا لَه بظواهِر آيَةِ الإسراء، فإنَّ فِعْلَ: ﴿أَسْرَىٰ﴾ ظاهرٌ في أنَّـه حَقيقَـةٌ لا مَجازٌ، ولا يُعدَل عَن الحقيقة إلَى المَجاز إلَّا عندَ الاستحالَةِ، ولَيسَ في الإسراءِ بِجَسد رَسول اللَّهِ استحالةٌ.

واحتَجُّوا أيضًا بأنَّ فِعلَ: ﴿ أَسْرَىٰ ﴾ تَعَلَّـقَ بقوله: ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾، الدَّال عَلى ذاتِ الرَّسول، التي هِي جَسَدُهُ ورُوحُهُ، وذلكَ ظاهرٌ في أنَّ الإسراءَ تَعَـلَّـقَ بهما. ولَوْ كانَ مَنامًا لَقالَ سُبحانَه : « الذي أسْرَى بروح عَبده ».

ولأنَّـه رُويَ في صحيح الأخبار أنَّ كفَّارَ قريشٍ كَـذَّبوا رَسولَ اللَّه في خَبَر الإسراء،

---

(١) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص ٢٣٠).

وارتَدَّ لذلكَ بَعض ضُعفَاءِ المُسلمينَ، وسَألتـهُ قُريشٌ عَن عيرٍ لَهـمْ سائِـرَةٍ في طريق الشَّامِ، وسَألوهُ عَن بَعض مَعابِدِ بَيتِ المَقْدِسِ. وكانَ رَسولُ اللَّهِ لَم يَهتَمَّ بتـثبيت أوصافها حين رَآها، فَـرَفَـعَ اللَّه إليه بَيتَ المَقْدس حتَّى جَعلَ يُخبرهم عمَّا سألوه، ولَو عَلموا أنَّـه رؤيَا مَنامٍ لما أنْـكروا.

ولِأنَّ في بَعض رواياتِ حَديثِ الإسراء مِن رِوايَـة الشَّيْخَين عَن أنَسٍ أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: « **فأخَذَ جِبريلُ بِيَدي، فَـعَـرَجَ بي إلى السَّماء** »[1]، فَذِكْـرُ: الـيَـد، ظاهرٌ في أنَّـه إسراءٌ بِالجَسَدِ، مَعَ الأحاديث الصَّحيحَة الوارِدَة الظاهِرَةِ في كَونِـهِ وَقَعَ يَـقَـظَةً، وأظْهَـرُها حَديثُ مُسلم عَن ثابتٍ عَن أنَسٍ وحُذيفَة ومالك بن صَعصعة، (قالَ عياض: جَرَد ثابت هذا الحديثَ عن أنَسٍ، وقَد خَلطَ فيه غيرهُ، لا سيَّما شريكُ ابن أبي نَمر)، فَقد ذَكر في أوَّلِه شَقَّ الصَّدر.

ومِن العلماء مَن عَضَّدَ هذه الأدلةَ بآيَـةِ سورة النجم وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥] ومِن جِهَة قَولُهُ: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٥] .

وعِندي أنَّـه دَليلٌ ضَعيفٌ إذ لا يَقضي أكثرَ مِن ثُبوتِ رُؤيَـةِ مُحَمَّدٍ جبريلَ - عَليهما السَّلام- في مَوضِعٍ قُربَ الجَنَّـة، وقَد يُكشَفُ لَه ذلكَ بدونِ إسراءٍ.

وَأجابوا عمَّا وَقَـعَ في بَعض الرِّوايات الصَّحيحَة مِن ذِكر أنَّـهُ أتاه المَلَكُ وهو نائمٌ، أو بَينَ النَّائِم واليَقظان - إذا سَلِمَت من احتمال أن تَـكونَ وَقعت مِن زياداتِ شَريكِ ابن أبي نَمِرٍ - بِأنَّـه يَحتمل أن يَكونَ أوَّلَ وُصولِ المَلَك إلَيْه، كَان وهو نائمٌ، ثُمَّ كانَ الإسراءُ بَعْدَ الـيَـقظَـةِ. وبِصِحَّة أن يَكونَ أسْرى بِجسدِهِ الشَّريف وهو نائمٌ وقَلبه يَـقظانُ، لِحكمَةِ أن لا يَشغَلَـهُ شاغِلٌ مِنَ الحَواسِّ عَن مُشاهدات آياتِ الرُّبوبيَّـة. أو عُـبِّـرَ بِالـنَّوم عَن هَـيْـئَـةِ النَّائم من الاضطلاع.

وعَمَّا استَدلَّ به القائلونَ بأنَّـهُ إسراءٌ بالرُّوح خَاصَّةً مِن قَولِه تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ، بأنْ لا دَليلَ على أنَّ الآيَـةَ نَـزَلَت في شأنِ خَـبَر الإسراء، وإن كَانَ قَد قَالَ به بَعضُ السَّلف، كما رَواهُ البُخاريُّ عَن ابن عَـبَّـاسٍ، بل هي رُؤيَا أُريهَا رَسولُ اللَّهِ، في صُلح الحُدَيْبِيَـة أو قُـبَيلَ وَقعَـة بَـدرٍ.

---

(١) ورد الحديث أيضًا في البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٦٧٤).

وعَلى القَول بِأنَّـها في شأن الإسراء، فإنَّ القائلَ به فَسَّر الرُّؤيا بأنَّـها رُؤيَـةُ عَـيْنٍ، أُريهَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ، كَما في صَحيح الـبُخاريِّ عَن ابن عـبَّاسٍ، بناءً عَلى أنه يُـقال: لِرؤيَـة العَين رؤيا بالألف عوضًا عن الـتَّاء، كَما قالَ الـرَّاعي يَصفُ صائِدًا:

وكَـبَّـرَ لـلـرُّؤيَـا وَهَـشّ فُـؤادُهُ ... وبَـشَّـرَ نَـفسًـا كـانَ قَـبْـلُ يَـلومُـها

وكَما قال أبو الطَّيب:

مَضى الليلُ والفَضلُ الذي لَكَ لا يَمْضي ... وَرُؤيَاكَ أحْلى في العُيون مِن الغَمْضِ

وأمَّا المَبحَثُ الرابعُ ..

فَاعْلَمْ أنَّ الذينَ قَالوا هو إسراءٌ بالرُّوح، لَم يَختلفوا في أنْ يَكونَ إلَى المَسْجِدِ الأقْصى، ثمَّ إلَى السَّماء، لأنَّ ذلكَ سَواءٌ.

وأمَّا الذينَ قَالوا إنَّه إسراءٌ بالجَسَدِ، فَمنهم مَن قال: هو إلَى المَسجدِ الأقْصى وإلَى السَّماءِ، تَمَسُّكًا بظاهرِ الأحادِيثِ التي حُدِّثَت عن الإسراء إلَيها في نَسَقٍ واحدٍ.

وذَهَـبَت طائفةٌ إلى أنَّ الإسراءَ من المَسجد الحَرام إلى المَسجِدِ الأقْصَى كان يَـقظَـةً، وأمَّا الإسراءُ مِن المَسجِدِ الأقصى إلى السَّماء فَهو بالـرُّوحِ، واحتَجُّوا بأنَّ اللَّـهَ تَعالى لَمَّا ذَكرَ الإسراءَ في كتابِهِ جعل نهايَـتَـهُ وغايَـتَـهُ إلَى المَسجد الأقصى، ولَو كانَ الإسراءُ إلى السَّموات بِجَسدِ رَسولِ اللَّه ﷺ، لَذَكَـرَهُ اللَّهُ؛ لأنَّـه يَـكونُ أبْـلَغَ في الكَرامة، ويَكون العَجَبُ المُفاد بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١] أوقعَ إذْ كَانَ الإسراءُ إلى السماء بالجَسَدِ.

وقَد تَـبَـيَّنَ أنَّ الإسراءَ إلى السَّماء ثَـبتَ عَلى وَجْهِ الإجمال بالأحاديثِ الصَّحيحَةِ، ولذلكَ قال التفتازاني في المَقاصد: إنَّ مُنكِرَه مُبتَدِعٌ؛ أي: مُنكرُ مُجْمَلِـهِ بَعد العلم بتلك الأحاديثِ وبِصِحَّتها وبِكَثرتِها.

وأمَّا مُنكرُ كَونِـهِ يَـقَـظَـةً، فَليسَ بِمُبْـتَدِعٍ؛ لِأنَّـه قَد قالَ به كثيرٌ من السَّلف، وكذلكَ مَن أنْكره عَن جَهلٍ بالأحاديث المُثْـبَـتَةِ.

وذَهَـبَت طائفةٌ مِنَ المُتَـأخِّرينَ إلَى أنَّ الإسراءَ كان مَـرَّتَـيْن: مَـرَّةً في الـنَّوم ومَـرَّةً في اليَـقَظَة، ذَكره السُّهيليُّ عَن نُسخة أبي بكر ابن العَربيِّ. ومِمَّن قالَ به النَّوويُّ وأبو سَعدٍ وأبو نَصر ابن القُشَيريِّ.

وأمَّا الإسراءُ مِن السَّماوات إلى الجنَّـة وإلَى العَرش، فَقد وَرَدَت فيه أخبارُ آحادٍ، غَيرُ مشهورةٍ، والقَول الفَصلُ في هَذا كلِّه أنَّ الإيمانَ بِوقوع المُعجزاتِ مِن لَوازم عَقيدة الإسلام.

والمُعجزاتُ خَوارقُ عَاداتٍ، وخَوارِق العَادات إذا جَوَّزْنَاهَا وآمَـنَّا بها، فَهي غَيرُ مُنحَصِرَةِ المِقدار في الاستغرابِ والاستبعادِ. فَلا تكونُ شدَّة مُخالَفة المُعجزة للنُّـظُم العاديَّـةِ موجِبًا لإنكارِهَا، ولَكنَّـنَا نُؤمِن بالمعجزات على الإجْمالِ، ونَعتَـقِدُ تَفاصيلَها بِحَسَب مَا تَقوم عَلَيْها مِن الأدلَّة مِن صَحيح الآثارِ، لا نَـتَجاوَزُ ذلكَ إلَى الأخبار الضَّعيفَةِ، والقِصَص الواهيَـة، إذ نَحنُ مَأمورونَ بخلافِ ذلكَ. وإنَّ مُعجزاتِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وفَضائِلَه غيرُ مُتناهيةٍ، فَلا نَستعظمُ منها ما هو من العَظائِم فإنَّها :

تـأتـي عـلـى قَـدرِ الـكـرام الـمَـكـارِمُ

وقَد ثَـبَتَ الإسراءُ عَلى الجُملة بِنَصِّ القرآن، وبِصحاحِ الآثارِ. وهيَ كلُّها ظاهرةٌ في أنَّـه إسرَاءٌ حَقيقَـةً بالجَسَدِ، كما تَـقَدَّم، وظواهرها مُـتعاضِدَةٌ، تَقضي بأنَّـه إسراءٌ بالجسدِ؛ لأنَّ كثرةَ الظَّواهِر تُوجبُ غَلَبَـة الظنِّ بإرادة ذلكَ الظاهرِ، بَل ربَّما بَلغَت مَبلغَ القَطْعِ.

أمَّـا كَيفيَّـة رَفع الجَسدِ الشَّريف إلى السَّمواتِ، فَتِلكَ كَيفيَّـةٌ قَـدَّرَهَا وعَلِمَها خالقُ السَّموات والأرض وما بَينَهنَّ.

وأنا قَد لاحَ لي مِن آيَة الإسراءِ أدلَّـةٌ لَم يَذكرها المتقدِّمونَ، أحْبَبتُ أنْ أعضُدَ بها:

الأوَّل: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، إيماءٌ إلى أنَّ الإسراءَ كانَ على كَيفيَّـةٍ (لا)[1] تُمكِنُ مُشاهَدتها، فَلذلكَ قَدَّرَ اللَّـهُ أن تَبدأَ لَـيْـلًا، لِئَـلَّا يُـفْـتَـنَ الـنَّاس بمُشاهَدَةِ عُروجِ جَسدِ رَسول اللَّه إلى السَّماء؛ لأنَّ ذلكَ مَشهَدٌ تَـقصر قُواهُمْ عن إدْراكِـهِ ... ولَـولَا هَذه النكـتَـة لَم تَظـهَر حِكمَة في جَعله ﴿ لَيْلًا ﴾، ولا في الـتَّـصريح بأنَّـهُ وَقَعَ ليلًا مَع الاستِغناء عنه بقوله: ﴿ أَسْرَىٰ ﴾.

الثاني: أنَّ الإتيانَ بِحَرْفَي الابْـتِداء والانتِهاء في قَولِهِ: ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء: ١] ظاهرٌ في أنَّـهُ تَـنَـقُّلٌ حَقيقيٌّ؛ إذ لَم يُعرَف في كلام العَربِ تَحديد

---

(١) إضافة من عندنا حتى يستقيم المعنى.

المَرائي الـنَّومية بِمَبدأ وغايَـةٍ في المكانِ، ولَو كانَ المَقصودُ الرُّؤيا النَّوميَّـة، لَقالَ: سُبحانَ الذي أبْدى لِعَبده - في المَسجِدِ الحَرام - المَسجدَ الأقصى.

الدليل الثالث: أنَّـه قال: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، وهَذه الجملة واقعةٌ عَقِبَ الخَبَر بالإسراء مَوقع التعليل للخَـبَر، وبِقَصدِ إظهار إمكانية لِقَول الشيخ عَبد القَاهِرِ في دَلائِلِ الإعجاز: « إذا جَاءَ حَرف إنَّ، المَوضوع للتوكيد عَقبَ كلام، وكانَ داخِلًا عَلى خَبرٍ لا شَكَّ فيه، أفادَ مُجَرَّدَ الاهتمام بالخَبر، وأفادَ من التعليل والرَّبط شيئًا عَجيبًا، وأغنى غناءَ فَاءِ التعليل »، ومَـثَّـلَ له بقولِ بَشَّارٍ:

بَـكِّـرَا صَـاحِـبَـيَّ قَـبـلَ الـهَـجـير إنَّ ذاكَ الـنَّـجـاحَ في الـتَّـبكيـر

فَـكَـأنَّ اللَّـهَ تَعالى يقول : « فَهو السَّميعُ البَصيرُ ».

فإن كانَ الضَّميرُ عائدًا إلى « عَبد »، كما هو ظاهرُ اتِّساقِ الضَّمائر، كانَ المُرادُ بالسَّميع والبصير قويَّ السَّمع والبَصَر، وذلكَ إيماءٌ إلى أنَّـه حَيث سَمعَ ما سَمِـعَ ورَأى مَا رَأى، فَقد ثَـبَّت لَه قوةَ السَّمع والـبَصر، إذ لا يُطيقُ رؤية ذلكَ غيرُهُ، ولَو كانَت المَرئـيَّات والمَسموعاتُ حُلميَّـةً لَما كان في حصولها دلالَـةً عَلى قُوة السمع والبَـصَرِ.

وإن كانَ الضَّمير عائدًا إلَى الاسم المَوصول الصادِقِ على اللَّهِ تَعالَى، كانَ المُرادُ مِن ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ المُسمِعَ المُبَصِّرَ (بصيغة التفعيل) كَقول عَمرو بن مَعدِ يكرِب:

أَمِـن رَيـحـانَـة الـدَّاعـي السميـعُ

أي: المُسمِـعُ. فَتكونَ الجملة دَالَّـةً عَلى تعليل إمكان سماعٍ ورؤية ما سمعه ورَآه رَسول اللَّهِ في الإسْراءِ، بأنَّ ذلكَ بِتَـكوين اللَّهِ، خَالِق السَّمع والبَـصَرِ لِرَسوله حتى رأى ما رأى، فَيكونَ تَأكيدًا لمعنى التنزيه المستفاد من قوله: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، ولَو كانَت المَسموعات والمَرئـيَّـاتُ حُلميَّـةً لَما كانَ فِي حُصولِها دلالَـةً عَلى عَظيم قَدْرِ اللَّهِ تَعالى.

* * *
* *
*

المقصد العظيم من الهجرة[١]

إنَّ في كلِّ شَأنٍ من شؤونِ رَسول اللَّه ﷺ، خاصِّها وعامِّها، دلائلَ على أنَّـه بمحلِّ العنايَة مِن رَبِّهِ تَعالى، تُحقِّق مَعنى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] أي: بِمَحلِّ العِنايَـة منَّا (إذ حَقيقة العَينِ يَستحيل إثباتها للَّه تعالى)، فَـتَـعَـيَّن بِحُكم استعمال اللغة أن تكون « العَينُ » في الآية مُرادًا منها لازمُ لازمِ حقيقتِها وهو الاعتناء اللَّازمُ لمعنى: المشايَعَـة، والمُشايَعَةُ من لَوازمِ النَّظر المُراد من العَين كما قال النابغة يُخاطبُ النعمانَ بنَ المُنذر:

رأيتـكَ تَرعانـي بعَيـنٍ بَصيـرةٍ ... وتَبعـث حراسًا علـي وناظِـرا

ومِن أعظم الشؤون التي عَرضَت للرَّسول ﷺ في رِسالَتِهِ شأنُ خروجهِ من وَطَنِـهِ في ذات اللَّه تعالى، وكانَ في ذلك الشأن من المقاصد الإلهيَّـة العظيمة ما لا يحيط به غير علَّامُ الغيوب، فَلَا جَـرَمَ أن نَعُدَّ منها ما بَلغَ إليه العلمُ، وأُلْهِمَهُ الفَهمُ في هذا الوقت القصير، وعَسى أن يكونَ في قليلِه تَنبيهٌ كثيرٌ، يَـفتَحُ فَهمَ الناقد الـبَصير.

الهجرة شَنشَنَـةٌ من أحوال الرُّسل، فَقد هاجَرَ إبراهيمُ ولوطُ وهود وصالح وموسى ويونسُ، ولكلٍّ وِجهَةٌ، وكلٌّ عَلى هَيئَـةٍ، وتلك الشنشنةُ هي التي أنبأت وَرَقَـةَ بنَ نَوفل بأنَّ محمدًا - عليه الصلاة والسلام - سَيسلكُ به ربُّهُ مَسلكَ رسلهِ: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [الإسراء: ٧٧]. كانَ وَرَقَـة بن نَوفل القرشيّ المُتنَصِّر في الجاهليَّـة قد تَـوَسَّم من بعثة النبي ﷺ، أن يَخرُجَ أو يُخرَجَ من وطنهِ. فَفي صحيح البخاري: أنَّ رسول اللَّه ﷺ لمَّا ذهب إليه بإشارة خديجةَ - رَضي اللَّه عنها - وقَصَّ عليه رؤية المَلَكِ، وَنزولَ الوَحْي عليه في غار حراء، قال له وَرَقَةُ: « هَذا هو الناموس الذي أنزلَ على موسى، يا لَيتَني أكونُ حَيًّا إذْ يُخرجكَ قومُكَ ». قَال رسول اللَّه ﷺ: « **أوَمُخرجِيَّ هُم**؟ ». قال وَرَقَة : نَعم، لَم يأتِ أحَدٌ بمثل ما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدركْنِي يومُكَ أنْصُرْكَ نَصرًا مُـؤَزَّرًا[٢].

كانَ خروجُ رسول اللَّه ﷺ من مَكَّـةَ نَبذًا منه لأهل الشركِ، وسُخْطًا عَليهم، وتَنزيهًا

(١) صدر هذا المقال بعنوان: المقصد العظيم من الهجرة، المجلة الزيتونية، عدد (٣)، سنة (١٣٥٨هـ / مارس ١٩٣١م)، (ص٩٣ - ٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في التعبير، باب أول ما بدئ به رسول اللَّـه ﷺ من الوحي الرؤيا (٦٥٨١) بترقيم ديب البغا.

للدِّينِ عن البقاء بَينَ أظْهُرِهم، وإعلانًا لِسائر النَّاس بأنَّ أمرَ هذا الدين لَيسَ بالأمر الهَيِّنِ، فإنَّ الدعوَةَ بالفعل مع القولِ أشدُّ نفوذًا إلَى النفوس من مُجرَّد القَول، بِحَيْثُ صارَت الدَّعوة الإسلامية حَدَثًا مُشاهَدًا ومُـتَحَدَّثًا به بعد أن كانَت مَسموعَةً لا غيرَ، ولذلكَ سُمِّيَ هذا الخروج هجرَةً، مُشتَـقَّـةً من الهَجْرِ، وهو قَطعُ المُعاشَرَة. ولَقَد كانت بإذن اللَّه لَه بذلكَ، حينَ تَـهَيَّـأتِ الأسبابُ التي أرادها اللَّه تعالى، كَما أنبأ بِهِ حديثُ الهِجرة في الصحيح: أنَّ رسولَ اللَّه قالَ لأبي بَكرٍ: « إنَّ اللَّـهَ أذِنَ لي في الهِجْرَةِ »[1].

ولَم يَكن ذلك الخروج فِرارًا وخشيَـةً من المشركين؛ لأنَّ اللَّهَ الذي عَصَمَه منهم ثلاثَ عَشرَةَ سنَـةً وهُم يؤذونَـهُ بِالقَول ولا يُقْدِمونَ على إلْحاق الضَّررِ بهِ؛ قادرٌ عَلى إكْمال عِصمَتِـهِ مِنهم وخَاصَّةً بَعدَ أن كَـثُـرَ أتْباعُه واعتَـزُّوا بأقويائهم مثلَ: عُمرَ بن الخطاب، وحَمزَة بن عَبْد المُطَّلِبِ.

وقَد عَلم رَسولُ اللَّهِ أنَّـه إذا خَرجَ من بَين قَومه، يَعُدُّونَ خروجَهُ غَلَـبَـةً مَعنويَّـةً عَلَيهم، فَيُحاولونَ مَنعَهُ، فلذلكَ رأى أنَّ كتمانَ أمره أعْونُ على مُراد اللَّهِ مِن خُروجه، ورَأى الاختفَاءَ بَعد الخروج ثلاثَ ليالٍ بغار ثورٍ أقطعُ لطماعيَّـة المُشركين في اللَّحاق به، وأعْجَزُ لَهم في طَلَبِـهِ، ولذلكَ كان يَسير الليلَ ويَستريحُ النَّهار، وتلكَ أيضًا عادَةُ العربِ في سَيْرها في وقتِ الحَرِّ، وقَد كانتِ الهجرَةُ في زَمَن الحَرِّ.

الهِجرَةُ: مُفارَقة الوَطن على نِية عدم الرجوع إليه، وأسبابُها تارَةً تَكون للطمع في نَفعٍ يَحصل للمُهاجِر في المَوطِنِ الذي يَنتَـقل إليه، وتارَةً من كَراهية الإقامة في الوَطن لِعداءٍ بَينَ المُهاجِرِ وقَومِهِ أو لأذًى لَحِقَهُ منهم، وتَارَةً لِنشر دَعوةٍ أو إظهارِ فَضيلَةٍ، أو استنصارٍ عَلى عَدُوٍّ أو غَير ذلكَ، فَهي أخَصُّ من السَّفر ومِن التَّـغَـرُّبِ؛ لأنَّ في السَّفر والتَّـغَـرُّبِ أمَـلَ العَودِ إلى الوَطَنِ.

وأيًّـا مَا كانت غايَـتُها ومَنفعتُها فإنَّها شديدة المَضاضَة على النَّـفس؛ لأنَّ في مُفارَقَة الوَطَن مُفارَقةً لأعْلَق البقاع بالقلب ممَّا شبَّ فيه المَرء وأَلِفَهُ، ومُفارَقَـة قَرابَـتِـهِ وجِيرانِـهِ وأحِبَّـته، وقد قال أبو الطـيِّب وأجادَ:

لَـولا مُـفارَقـةُ الأحبـاب مـا وَجَـدَت   لَهــا الـمَنـايـا إلى أرواحـنـا سُـبُـلَا[2]

(١) فضائل الصحابة (١ / ٣٨٨) ح (٥٨٨).

(٢) لَـها: اسم جَمْعٍ لَـهـاة، بفتح اللام. وهيَ الـحَلْق. والـمَنايا: جمع مَنِيَّـة وهي المَوت، وقَد جمَعها باعتبار مُتَـعَلِّقاتها، =

وسَمَّاها القرآنُ في قَولِهِ تعالى: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١]. قال المفسِّرونَ: أرادَ إخراجَ المُؤمنين من بِلادهم مَكَّـةَ.

ثمَّ إنَّ أسمى غايـةٍ يُفارقُ المَرء لأجلها وطنَه، وأقوى سَببٍ يَحدثُ عنه الشِّقاقُ بَينَ المَرء وذَويهِ هو الذبُّ عن الاعتقاد، إذا بَلغَ عنادُ المُخالفينَ فيه إلى حَدِّ تَحجير إظهارِه، والمُضايَـقة فيه، ومُحاوَلَـةِ الإرغام على تَركه والتَّظاهرِ بما يُخالفه، وإنَّ المَرءَ لَيضجرُ لَو أغمِضَت عيناهُ أو سدَّت أذناهُ، وما هما إلَّا بَعض مَظاهر إدراكه، فَـكيفَ به إذا سُدَّ عَليه قلبُـهُ وعَقله ورَأيهُ.

وإنَّ أسمى العقائد وأقدَس الآراء عقيدةُ الدِّين لِـتَعلُّقها بأشرف المَوجودات ولِتَجَرُّدها عَن الغايات الماديَّـة والمَنافعِ العاجلة التي تلائم هناءَ المَرءِ في عَيشهِ و مسالمة دَهماء قومه إيَّاه، فالاعتقاد الدينيُّ اعتقادٌ مَحبوبٌ لأجْل كَونهِ حَـقًّا بَحتًا، ولأجْلِ كَونِـهِ يُرضي خالقَ الخلْقِ.

وقد كانت الهجرة في اللَّه للتمكُّن من تبليغ شرائعهِ، وكانَ الأذَى في اللَّه لأجلِ ذلكَ سُنَّـةً من سُنَنِ المُرسلين، فَما من رسولٍ إلَّا وقَد أوذيَ في اللَّه، وكذلكَ كثيرٌ من أصحابِ الرُّسلِ، أوذوا وهاجَروا مَعهم وبِدونهم.

ولَمَّا بَعثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ واتَّبَعه من اتَّـبَـعَهُ من قريش وتَـكاثَروا وحاوَلوا إظهارَ دينهم بينَ مُشركي أهل مكةَ، لم يَرضَ المشركونَ بذلكَ، وكَشَّروا للمسلمين عن أنياب العُدوان، وأخذوا يؤذونَ المُسلمينَ بصنوفٍ من الأَذَى كَانَت تَزداد يومًا فيومًا، بمقدارِ رُسوخِ المُسلمينَ في الاستمساك بدينهم، وكانَ المُسلمونَ صابرينَ على أذَى المُشركين حتى بَلَـغَ الصبرُ غايَـتَـهُ.

أذنَ رَسول اللَّه ﷺ في سَنةٍ خَمسٍ لطائفةٍ من المؤمنينَ المُسْتَضْعَفينَ والمَقصودينَ بِخاصَّةِ الأذى بالخروج من مَكَّـةَ، ولَم يَخرج رسول اللَّهِ حينئذٍ؛ لأنَّـهُ في مَـنَعَـةٍ بِعمِّهِ أبي طالبٍ، فقال لأصحابه: لَو خَرَجْتُم إلَى أرضِ الحَبَشَةِ، فإنَّ بها مَلِكًا لا يُظْـلَـمُ عندَه أحَدٌ، حَتَّى يَجعلَ اللَّه لَكم فَرَجًا ممَّا أنتم فيه.

فَخَـرَجَ من المسلمين يومَئذٍ ثلاثَـةٌ وثمانونَ رَجُلًا وتسعَ عَشرَةَ امرَأةً، فَتلكَ الهجرَةُ الأولى.

= وهي نفوس الأحياء، وأثبتَ للمَنايَا حُلوقًا لأنَّـه قَدَّر تَشبهها بسباعٍ تَبتَلع الأرواحَ عَلى طريقة الاستعارة الـمَـكنِيَّة.

ثم لَمَّا أسلمَ الأوس والخَزرَجُ أذنَ اللَّه لرسولِـهِ وللمؤمنين كلِّهم بالهجرة من مكةَ إلى المدينة، دارِ الإسلام.

وقَد قيلَ: إنَّ ذلكَ كانَ باقتراحٍ من عُمَـرَ بنِ الخَطَّـابِ ﷺ، ورَجَعَ مُهاجِرَةُ الحَبشة إلى المَدينة، فكانَ حكمُ الهجرة من مَكَّـةَ واجبًا على كلِّ مُسلم. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢]. ودامَ ذلكَ الحُكم إلى فَتح مَكَّـةَ.

كَمْ مِن حكمَـةٍ للَّهِ تعالى فيما اشتَمَلَ عَليه حادثُ الهجرة من الأحوال؟ وكَم من نِعمةٍ أسْداها لِعَـبْدِه ورَسولِـهِ في تلك الهجرة، دلَّ عَلى أنَّـه بِمَحَلِّ عِنايَـتِـهِ وأنَّـه مُتَـمِّمٌ نورَهُ ولو كَرِهَ الكافرونَ. قال تَعالى: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

الحِكمة الأولى:

صَرفُـهُ ألبابَ قريشٍ وحُذَّاقَـهُم عَن أنْ يُـفكِّروا في قَطع دابرِ أمرِ الإسلام، قبلَ أن يَـكثرَ أتْباعُهُ، ويُنتَـدَبَ له أنصارُهُ، وتَشتيتُـهُ رأيَهم في صَدِّهِ عَن الخُروج حتَّى مَكَّنه اللَّه منهُ، وفي ذلكَ اليَأسِ تَهيئةٌ لَهم نَحوَ الدُّخول في الإسْلامِ.

الحِكمة الثانية:

أنْ هَيَّـأَ لَه أن تكونَ هِجرتُه إلى يثربَ، ولَم يكن ذلكَ في بالِـهِ أوَّلَ وَهلـةٍ، فَفي الصحيح عن أبي موسى الأشعريِّ عَن رسول اللَّهِ ﷺ أنَّـه قال: « **رَأيتُ في المَنام أنِّـي أهاجرُ إلى أرْضٍ بها نَخْلٌ، فَـذَهَب وَهْلي إلى أنَّـها اليَمامَة أو هَجَر، فإذا هي مَدينَـةُ يَثربَ** »[١]، فَكانَ من تَيسير اللَّهِ أن ساقَ إلَيـهِ النَّـفَـرَ السِّتَّـةَ الأولين من الأوس الذين أسلَموا من أهْل يَـثربَ، فإنَّ مَوقعَ المَدينة كانَ وَسَطًا من أرْض العَربِ، فَكانَ بلوغُ دَعوة الإسلام إلى بلاد العَـرَب بانتشار شعاعيٍّ، وهَذا أيْسَر عمومًا ممَّا لو كانت دارُ الهِجرة اليمامة أو هَجَرَ في الطَّرف الشرقيِّ الشَّماليِّ من بلاد العَرب.

الحِكمَة الثالثة:

إنَّ أهلَ يَـثربَ كانوا أقـربَ العَـرَبِ لِقَبولِ شَريعَـةِ الإسْلام، فَإنَّهم وإن كانوا قَبلَ الإسلام مُشركينَ، يَعبدونَ مَناةَ وغَيرَهَا إلَّا أنَّـهم لِشِدَّة مُخالَطَتِهم لليَهودِ - وهم أهل

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢٥) بترقيم ديب البغا. ومسلم في الرؤيا باب رؤيا النبي ﷺ (٢٢٧٢).

كتابٍ - كانَت آذانُهم قد اعتادت مَعالي التَّوحيدِ، فَكانت نُفوسُهم مرتَاضَةً إلى ذلكَ.

الحِكمة الرابعة:

إنَّ اللَّهَ جَعلَ للمسلمين من أهميَّـة مَوقع المدينة من بلاد العَـرَب سلطانًا على أعْدائِـهِمْ من قريش، أهل مَكَّـةَ، فإنَّ قريشًا كانوا تُجَّارًا، وكانَت لَهم رحلةٌ في الشِّتَاء إلى اليَمن للتِّجارَة، وأخرى في الصَّيفِ إلى الشَّام، سَنَّ لَهم ذلكَ هاشمُ بنُ عَبد منافٍ، جَدّ النَّبي ﷺ، وذلكَ هو المُسَمَّى بالإيلاف(١)، وكانَ مُرورُهم إلى الشَّام عَلى طَريقِ المَدينة من بطنِ عالِجٍ، فَلَـمَّا صارَت المدينةُ دارَ إسلامٍ، وثَـبَـتَت العَداوة بَينَ أهلها وبَينَ قريشٍ، صارَت قريشٌ تَرهَبُ المرورَ عَلى المَدينَـةِ، فانْـقَطَـعَت تِجارَتُهم إلى الشَّام، وهي أهَمُّ تِجارَتِـهم، وفي ذلكَ المَعنى قال حَسَّان بنُ ثابتٍ مُهَـدِّدًا لقريش:

دَعـوا فَـلَـجَـات الشام قـد حالَ دونَها ... جِـلادٌ كَـأفـواهِ الـمَـخـاضِ الأوارِكِ(٢)

بأيـدي رجـالٍ هاجَـروا نَـحو رَبِّـهِم ... وأنْـصـارُهُ حَـقًّـا وأيْـدي المـلائِـك

إذا سَلَـكَت للـغَوْر من بَـطْن عَـالِـجٍ ... فَـقـولا لها: لَـيسَ الطـريق هـنـالِـك

الحِكمة الخامِسة:

انتقالُ الإسلام من طورٍ إلى طَورٍ أكمَلَ منهُ، هو الذي كانَ مُقَـدِّمَـةَ كَمالِهِ المُعلَن علَيهِ يَومَ حَجَّةِ الوَداعِ بقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣].

مَضت مُدَّة إقامَة رَسول اللَّه ﷺ بمكَّـةَ والإسلام حينئذٍ في طورٍ كان فيه مُقتَصرًا على إصلاحِ العَـقيدة، وتَهذيبِ نُفوسِ أتْباعِهِ، وتَطهير أخلاقهم في خُوَيْصَتِـهِمْ ومُجتَـمَعِهِم، ودَعوَةَ المشركينَ إلى الإيمان باللَّه، ورُسله، وما جاؤوا به، وتَشهير فَظائِع أهل الشِّرك، وضَلالهم وسخافَة رَأيهم، وذلكَ طورٌ ابتَدَأ اللَّهُ به الإسلامَ لِـينشَأ مَنشَأ سائر الكائنات من طفولة إلى شَبابٍ إلى كُهولَةٍ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾، ولِـتَهيئة قلوب المسلمين إلى تلقِّي الشرائع وانتِظام الجَماعة، فَـلَمَّا هاجَرَ رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة تَطَـوَّر الإسلام

---

(١) إيلافُ مَصدرُ آلفَ بمعنى ألف الشيءَ، وقَد أشارَ إليه قوله تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش: ١]. وكانَ ذلكَ من خصائص قريشٍ، قال مُساور بن هندٍ العَبسيّ يَهجو بَني أسَدٍ ويُكَذِّبُهم في دَعواهم أنَّهم من نسل أسَدِ بن عَبد العُزَّى من قريش:

زَعـمْـتُـم أنَّ إخـوتَـكـم قـريـشٌ ... لَـهـم إلْـفٌ ولَـيـسَ لَـكـم إلافُ

أولـئـكَ أومـنـوا جـوعًـا وخَـوفًـا ... وقـد جـاعـت بـنـو أسَـدٍ وخـافـوا

(٢) الأوَارِكُ التي تأكل الآراك، فيَجرَحُ لها أفواهَها فَيسيل منها الدَّم.

إلى طَورِهِ الأَشَدّ فَصار دينًا وجامِعَـةً، وشَريعَـةً وحُكومَـةً.

الحكمة السادسة:

استقلالُ الإسلام وأمْنـه، وإعلانُ العِبادَة فَشُرِعَ الأذانُ، وأقيمَت الجُمُعَة ونَحو ذلكَ.

الحِكمة السابعة:

تنظيمُ الجماعةِ في الإسلام، مِن أوّلِ الهجرة، بابْـتِناء المَساجِدِ وإقامَـةِ الأئمَّة، والقَضاء، ومَشروعيَّـةِ المواساة بينَ المسلمين بالزَّكاة والصَّدقات، وتَنظيم قوانينِ العائلة من شرع تَصحيح عقود الزواج، وحقوق الزَّوْجَين والقرابة والمُصاهَـرَة إلخ. وبِالاستخلاف في تَدبير الأمور وإقامَـة الأحكام في مَغيب الرَّسول أو في البُعد عَنه. وابْـتِداءُ التَّشريع العام في أحكام المعاملات والجِنايَات، فَفي الصَّحيحِ عَن عائشةَ - رَضيَ اللَّه عنها - قالت: إنَّما نَـزَلَ أوّل ما نَـزَلَ من القرآنِ سورَةٌ مِن المُفَصَّلِ، بَينَ ذكرِ الجَنَّـةِ والنَّار حتَّى إذا ثابَ الناس إلَى الإسلام نَـزَلَ الحَلالُ والحَرامُ[1].

الحكمة الثامنَةُ:

تَنظيم الدِّفاع عن الدين والأمَّـةِ بالتَّهيؤ لمقاومة المُشركينَ من أهل مَكَّـةَ وأحلافهم، إذَا نَوَوْا ذلكَ، وهُم بِوَشَكِ أن يَنْووهُ، إذْ هُم مِن قَبْـلُ قَد نَوَوْهُ.

الحكمَة التَّاسِعَة:

إيجادُ مالٍ للمُسلمينَ لإقامة مَـصالِحهم، وعُـدَّةً لِنَوائِـبِـهِمْ مُجتَمِعًا من الزَّكاة والأَوْقافِ ثمَّ مِن المَغانِمِ والأنْـفَال.

الحكمة العاشِرَة:

مُخاطَـبَـة ملوكِ الأرضِ، ورؤساء الأمَمِ بالـدَّعـوَة إلى الدُّخـول في ديـن الإسـلام، والاستظـلال بالـرَّايَـةِ الإسلاميَّـةِ.

* * *
* *
*

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤٧٠٧) بترقيم ديب البغا.

الرسول ﷺ والإرشاد (١)[١]

إنَّ الكلامَ على الرسول من ناحية الإرشاد هو حقًّا كلامٌ على الرسول من أخَصِّ نَواحي صفاتِهِ بوصف الرسالة، أو بعبارةٍ أوجَـزَ هو كلام على الرسول كلِّهِ، ولذلك نجد القرآنَ حَصرَ الرسول في صفاتٍ مَرجعها إلى الرشاد حَصرًا إضافيًّا مثل قوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٣]، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود: ١٢]، ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فكأنَّـه لا صفات لَه غير الصفات الراجعة إلى الإرشادِ.

ومما يَزيد ذلك بيانًا وتَوجيهًا أنَّ جميعَ ما خصَّ اللَّهُ به رسوله مُحَمَّدًا ﷺ، من جَلائِلِ الصِّفات والخِلال إنَّما خَصَّه به لِـيُهَـيِّـئَـه به إلى قَبول صفةِ الرِّسالة العُظمى، العامّـة، الخاتِمَة.

فَمن ذا الذي يَطمع في أن يَتَكَـنَّهَ كنهَ إرشاد الرَّسول باستيعاب وَهو إنَّما كانَ إرشادُهُ تَلقينًا من عَلَّامِ الغُيوبِ، المُحيط عِلمُهُ بكلِّ شَيءٍ. فَحسب الباحث الثَّـقِف أن يلمَّ إلمامَةً بما يصل إلى نفسه من تَصاريفِ ذلكَ الإرشادِ.

ولَيسَ بنا أن نَشرَحَ هنا عمومَ شَريعتِـهِ لسائرِ الخَلق وبقائها على مَـمَرِّ العُصور، وإتْيانِها على جميع ما سَبـقَها من الشرائع بالتأييد لما لـم تَقتَض الحكمة نَسخَهُ، والإبطال لما اقتضته.

فَـقَد بَـيَّنَ اللَّه تعالى ذلك في آياتٍ كَثيرة أجْمَعُها عِندي قوله في سورة المائدة: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، فالكتاب الأول هو القرآنُ و« ال » فيه للعَهد، والكِتاب الثاني هو أحد الكتب السابقة والتعريف فيه للجنس، والضمير المجرور بـ: « على » عائدٌ عَلى الكتاب المُقَرَّر، والمُؤَيِّد لما سبقه من الكتب الإلهية، ومعنى المهيمن: الحاكم والرقيب الـمُتصرِّف، وذلك إشارة إلى إبطال أحكام كثيرة من الشرائع السالفة.

وإنَّ مَن يُجيد النَّظرَ في مَعنى هَذيْن الوَصفَيْن يَجدهما قَد جَمَعَهما معنًى وهو كمال

---

(١) وردَ هذا المقال بِمجلة الهداية، أكتوبر (١٩٧٣م) (ص ٢٩ - ٣٤).

الإرشاد، فإنَّ ما قـرَّره الإسلام من الأحكام قد دلَّ بتقريره على أنَّـه حُكْمٌ بَلغَ غاية الهدى والإرشاد. وإنَّ ما أبطله الإسلام من الأحكام قد دلَّ بإبطاله على انتهاء المَصلحة الخاصة في تشريعه، وتَعقيبها بمصلحةٍ أخرى: عامة، كلِّيـةٍ، باقيـة.

فَهذه لَمحة من الـبَحث رأينا بها أنَّ مجيءَ الرسول ﷺ، إنَّما كان لأجل الإرشاد بأكمل مَعانيه، ولكنْ لَيسَ بنا أن نطرقَ بابَ البحث عن هذا الإرشاد الأكبر التشريعي، فإنَّ ذلكَ بَحرٌ لا ساحلَ لَه، وإنما الغَـرَض من موضوعنا هذا هو الإرشادُ الخَاصُّ، أعني الإرشادَ إلى مَكارم الأخلاق، وآداب المُعاشَرَة، وأصول انتظام الجماعة مع البَحث بوجه العُموم أقوى وأكثر إرشادًا عن مكانة الإرشاد وبواعثه ومُهَـيِّئاتِه وَصِفاته ومُميزاتِـهِ.

قُوَّة إرشاد الرسول وسَعتُه:

لا نشكُّ في أنَّ الإرشادَ إلى الخَير ينشأُ عن الشُّعور بالنافع وضدِّه، فَـيَكون المرشد أقوى إرشادًا وأكثره، بمقدار قوة شعوره بالمَنافع، وفي هذا المِضمار تَسابَـقت جهودُ المُرْشِدينَ على أقْدار قُوى أفْهَامِهم وقَرائِحِهم، إلى الإلمام بأحوال مَن حَولَهم مِن الأمُمِ أو المُريدينَ، ولَيسَ يَخلو أحَدٌ ولَو أُعْطيَ من قوَّةِ المُلاحَظات والشُّعور، ومِن جَودَة التفكير والنُّصْح مِن أن تَخفى عنه أمورٌ كَثيرَةٌ، مِن بَواطِنِ وسَرَائِر قَصُرَ عَن بلوغ غَورها، ومن ظواهر لم يُلتَفتْ إلَيها، أو حُجِبَ عَن إدْراكها أو عُوجِلَ عن إتقان استفادتها.

وقَد أقامَ اللَّهُ تَعالى الرُّسلَ لإرشاد الأمَم، وأطْلَعَهـم عَلى ما شـاء من طُـرقِ الإرشاد وموجِباتِهِ. وأمَرَهُمْ بما شاء إظهارَه من ذلك في أولئك الأقوام وتلك العُصور. وأما الرَّسول الأعظم الذي بَعثَه اللَّه إلى الناس كافَّةً، وجعل شريعته باقيةً إلى انْقراض العَالَم فَهو أوسع المُرشدينَ إرشادًا، وأقْواهم فيه؛ لأنَّـه الذي وَهَبه اللَّه نَفسًا يَقظى وفَهمًا نَـيِّـرًا، وأيَّـدَه بالعصمة من الخطل، وعَضَدَه بالوَحي والتنبيه إلى دخائل الأقوام والأمم، فَهو أقوى المُرشدينَ شعورًا بمسارب الضلال إلى النفوس. وهو لِـعِصمَتِـهِ من الرِّضا بإقرارها، أبْلَغ النَّاس مَقدرَةً في تقصِّي آثارِها واقتلاع أدوائها؛ لأنَّ كمالَ النفس ويَـقظَـةَ العَقل يُشعِرَانِ صاحِبَهما بما يجب لذلكَ، وأنَّ الفِطرَةَ على حبِّ الكَمال للناس والغيرَة على الحقِّ تَدفعان النفسَ إلى مُعالَجَةِ النقائص بِقَدر الاستطاعة.

تهيؤ نفس الرسول لذلك الإرشاد:

قَال اللَّهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فأفاد بذلك أنَّـه هَيَّـأ - لِقبول أشرف الأوصاف في المَخلوقات، أعني: صفةَ الرسالة عن اللَّه - أشرَفَ النُّفوس لِتظهر الملاءَمَةُ بَينَ الحالِّ والمَحَلِّ، والمَحْويِّ والحاوي. فَالرسـول - وإن كانَ مُلقَّنًا من

اللَّه تعالى، ناطقًا مِن وَحي لا عن رأي - فَهو مع ذلك محتاجٌ إلى نَفسٍ كبيرة، وهمَّةٍ عَظيمة؛ لأنَّ تلقي التلقين الإلهي ليسَ بالأمر الهين، ولأنه يجب أن يكون الرسول عالمًا بدقائق ما أوحِيَ إليه، وما يتضمنه من الحكمة؛ كي لا يَكون بَعضُ المُبَلَّغ إليهم أعلم به من المُبَلِّغ. ولأنَّ الرسول يُرشد فيما لَم يوحَ إليه فيه بشيء باجتهاده، لا سيما فيما يَرجع إلى التربية، وتقويم النفوس، ولَيسَ من مراجع التشريع.

وإذا كانت الرسالات متفاوتةَ السَّعة فلا جرَمَ أنَّ أعظم الرسالات وأوسعها أحوجُ إلى أكمل نفسٍ قابلة للاضطلاع بأمرها، ناهضةٍ بأعبائها، ولأجل ذلك فُطِرَ أفضلُ الرُّسل وأكمل المرشدين على صفات وخِلالٍ تُهَيِّئ نَفسَهُ الشريفة للشعور بحال كل ما يحفّ بها من الأحوال، ولإظهار آثار ذلك الشعور في استدعاء الرشد ومُطاردة الضَّلال.

إنَّ خصال الكمال البشرية نوعان: جِبِلِّيٌّ وكَسبيٌّ. فأمَّا الجِبِليُّ فَهو ما يخلق في المرء من صفات محمودَةٍ في الخلق والجبلَّة؛ لأنَّـها توصل إلى كمال نفسيٍّ أو إلى تَمامِهِ، وإلى تأثير فعله.

فالأول: مثل سلامة الحواس وطلاقة اللسان ونباهة العقل.

والثاني: مثل قوة البَدَن ورباطة الجأش وشرف النسب.

والثالث: مِثلُ جَمال الصورة ومَهابَتها وعزَّةِ القَبيلَة.

وأما الكسبي: فَهو ما ترتاض عليه النفس من التخلُّق بالفضائل التي استعدت لها بما جُبِلَتْ عليه من وسائل قبول تلك الفضائل ونمائها وذلك جميع الآداب البشريَّة؛ كالنَّزاهة والتقوى والمعرفَة والحِلْم والصَّبر والعَدل والشجاعة والتواضع وحبِّ الإصلاح وحُسن المعاشرة والجود والغَيْرَة على الحقِّ. وطريق الارتياض إلى ذلك بالتعليم الإلهيِّ أو البشريِّ، وفي الحديث النبوي: « **أدَّبَني رَبِّي فأحسنَ تأديبي** »[1]، وقال اللَّه: ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٣]، وبمراقبة النفس في أحوالها وخطراتِها، وفي الحديث: « **إنَّـه لَيُغان عَلى قَلبي فَأستغفرُ اللَّهَ كُلَّ يوم مائة مرة** »[2]، ولكلِّ هاته الفضائل الجبليَّـة والكَسبيَّـة أثرٌ جَليلٌ في صدور الإرشاد إلى نفوس مُريديه وسامعيه. وقَد آتى اللَّـهُ رَسولَه من هذه الفضائل بِنوعَيها أقصى ما تَقْبَلُه النَّفس البشريَّة المُطهرة، حتى قالت عائشة - رضي اللَّه عنها -: « كانَ خُلُقُه القرآن »، ثمَّ هيَّأ لَه قَبْلُ

---

(١) مختصر المقاصد، الزرقاني (٤١).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٢٧٠٢).

مِن مُكَمِّلات الفَضائلِ التي هي من أحوال غَيره ممَّا له تَعَلُّقٌ به، أفضلَ ما تُهَيِّئُه العناية الإلهية لمُعْتَنَى به من الخَلق، فَأنشأه من أشْرَف الأنساب، وأعَزِّ القَبائل، وأفضل البيئاتِ وفي أفْضَل البِقَاع، وأبْعدها عن العَوامِل التي تكسب الأقوام مساوئَ الأخلاق مِن: مَذَلَّة، وكَذب، وخِداع، فكانت نشأته في بلد لم تَقهره الجبابرة، ولم تَغْزُهُ القَبائل، ولم تُهنْهُ المُنافسون، وحَسبك أن يَقولَ المُفتَخر في فخره على الناس كلِّهم:

فَأمَّا النـاسُ مـا حـاشـا قـريشًـا ... فـإنَّـا نَـحـن أفضَـلُهـم فِـعـالا

فَكَمُلَت للرسول ﷺ الفضائلُ العَارضة الحافَّة، كَما زُوِيَتْ له الفَضائل الذاتيَّة، والنفسانيَّة، ولا مِريَةَ في أنَّ لذلكَ كلِّهِ أثرًا قويًّا في الإرشاد، وقد قال قوم شعيبٍ لَه : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

كما أنَّ الثِّقة بسلامة الضمير وبحَقِّيَّة النُّصح وبعزَّة الصِّدق، كلُّ ذلكَ يَدفع إلى التصريح بالإرشاد البَيِّن الواضح. وإنَّ التَّقوى والنزاهَةَ لا يتركان في النفس شيئًا من الإرشاد مكتومًا.

والرَّسول أقوى المُرشدينَ في ذلك، أمَّا فيما أُمِرَ بتبليغه فظاهرٌ، وأما فيما ليس من التبليغ فَلأنَّه لا يقرُّ أحدًا على باطلٍ، فَكانَ تَغيير المنكر بالنسبة إليه منحصرًا في التغيير بالفِعل، أو بِالقول دونَ التَّغيير بالقَلبِ؛ لأنَّ ذلكَ أضْعَف الإيمان، كما رُويَ في صحيح مُسلمٍ.

وقَد كان للرسول ﷺ مِن حُسن السُّمعَة من جرَّاءِ هذه الكمالات ما عُرفَ به في عَصر الجاهليَّة قَبلَ بِعثَتِهِ، فكانوا يَعُدُّونَهُ وهو فَتًى أكملَ من ساداتِهم فَلُقِّبَ بَينَهم بالأمين، وحَكَّموه في أهمِّ شَيءٍ لَديهم، كادوا أن يَقتَتِلوا للتنافس فيه، وهو وضعُ الحَجَر الأسود في مَوضِعِه حينَ جَدَّدَت قريشٌ بناءَ الكعبة في حدود سنة (١٨) قبلَ الهِجرَة، فَحَكَمَ بأنْ يوضَعَ الحَجر في ثوبٍ وتُمسكَ جميع عُرفاء بُطونِهم بأطراف ذلكَ الثَّوب حتَّى يكونَ شَرَفُ رَفعِه ثابتًا لِجَميعهم، ثم أخذه بيده المباركة فَوضَعَه في مَوضعِهِ المَعروف، وما نازعه أحَدٌ منهم في أن تَوَلَّى وَضعَهُ بيده دونهم، وقد قال النضر بن الحارث لقريش: قد كانَ محمد فيكم غلامًا حَدَثًا، أرْضاكُم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانةً، حتَّى إذا رَأيتم الشيبَ في صُدْغَيْه قُلتم: ساحرٌ، وقلتم: شاعرٌ، وقلتم: مَجنونٌ، واللَّه ما هو بأولئكم. وقَد عَصَمه اللَّه تعالى من متابعة أمور الجاهلية التي كانوا يَعُدُّونَها محاسنَ وما كانت يومئذٍ محرَّمَةً مثل: الغَرام واللَّهو والخَمر والمَيسر، وما كانوا يعدونها قبلَ

الإسلام إلَّا مفاخرَ، وقد مُلِئت أشعار شعرائهم من التفاخر بمزاولَتِها، وذلك **لحكمتَيْن**:

أولاهما: أنَّها نَقائص في ذاتها.

والثانية: أنَّ اللَّهَ عَلِمَ أنَّ مُعظَم العرب سَيَتْبَع الإسلامَ ورسولَه، ويَعلمون أنَّما كانوا عليه إنما هو نقائصُ فَعصمَ اللَّه رسولَهُ من أن تَقَعَ عليه أبصارهُم، بِغَير الإجلال، في الماضي والحال، ولِبَسط هذا مواقعُ غَير ما نحن بِصَدَدِهِ.

ثمَّ إنَّ الإرشادَ يَتَوَقَّف تمامُ نفوذه في نفوس سامعيه على السلامة من كلِّ مُنَفِّر يُنَفِّر عن تلقِّيه. وقد عَلمنا ما فُطِرَت عَليه نَفس رَسول اللَّه ﷺ من الأخلاق الجليلَة. وثَمَّة أشياء هي تكملة للسلامة من المُنَفِّرات وهي حُسن السمت والسخاء. فأمَّا حُسن السَّمت فهو مَحاسنُ الخِلقَة، وجَلالُها، وقَد اتَّفَقت صفاتُ الواصفينَ لشمائله بالتفصيل والإجمال، والتَّصريح والكناية والتشبيه، على أنَّه أحسنُ الناسِ خَلقًا، مَن رَآهُ بَديهَةً هابَه، ومن خالطه معرفةً أَحَبَّهُ، يقول ناعِتُه: لَم أر قبله ولا بَعدَه مِثلَهُ.

وأمَّا الجود والسَّخاء، فإنَّ للجود في البَشَر كلِّهم تأثيرًا عَلى نفوسهم ولا سيَّمَا العَرب، فإنَّهم أشهر الأمم بِتَفَشِّي الجود بَينَهم، وهم أطْوَعُ النَّاس للجودِ، ومُنتَهى الجود عندهم التفضُّلُ مَع الحاجَة إلى المُتَفَضَّل بجميع ما عند الجَواد، قالَ:

لَيس العَطاء من الفضول سَماحَةً ... حتى تَجودَ وما لَديكَ قَليلُ

وأحاديثُ جودِهِ ﷺ مشهورة.

وقد حفَّ اللَّه تعالى صفات رسولِه بِهَذَيْن الوَصفَيْن ليكونَ كماله تامًّا، وإرشادُه بالغًا أغوارَ النفس. **ذلكَ أنَّ المتلقين للإرشاد مَراتِبُ ثَلاثٌ**:

الأولى: مَرتبة خاصَّةِ العُقلاء الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحسنه. وهؤلاء لا يَحول بينهم وبينَ الاهتداء بهدى المُرشِد شيءٌ، فَهم ينتفعون بالإرشاد بمقدار ما يبلغ إلى أسماعهم، وتَعيهِ قلوبُهم مثل أبي بكرٍ الصديق ﷺ، إذ صَدَّقَ النبي ﷺ، حينما بَلَغته الدعوةُ.

المَرتبة الثانية: عُقَلاء قد حَفَّ بهم من عوارض أحوالهم وأزمانهم ما يُقاعسهم عن قَبول الإرشاد، إمَّا لِحُب شهرَةٍ، أو تَعلُّق بمألوف أو غَير ذلكَ. وهؤلاء يَكرهون سماع الإرشاد ويُلقون في سبيل المُرشِد شوكَ اعتراضهم، ويَخشون أن تَعتَلق بذلكَ الإرشاد نفوس أتباعِهم، فَهم يصرفون أسماعَهم وأتْباعَهم عَنه مثلَ: عبد اللَّه بن أُبيٍّ ابن سَلول، قَبل أن يَتظاهرَ بالإسلام، فإنَّ النبي ﷺ مَرَّ به ومَعَ ابنِ أُبَيٍّ رجالٌ، فَنزَلَ فَسَلَّم عليه، ودعا

إلى اللَّه وتلا القرآنَ، وعَبد اللَّه بن أبيٍّ لا يتكلَّم، فلمَّا فَرَغَ النبي ﷺ من ذلك قال له عبد اللَّه: « لا أحسنَ ممَّا تَقول أيها الرجل، إن كان حقًّا فاجْلِس في بيتك، فَمن جاءكَ فَحَدِّثْهُ، ومَن لَم يَأتكَ فلا تَفتِنْه به ولا تَفتنَّا به في مجلسنا ». فهؤلاء إذا أعيتهم الحيلُ من الغَضِّ في كمالات المُرشد، قَد يَتَذَرَّعونَ إلى الطعن فيه ببعض العوارض التي لا تغضُّ من حقيقة المرشد، ولكنها قد تخيل إلى العامة نقائص؛ لأنَّ أذهانَ العامَّة بعيدة عن إدراك الفرق بين صفات النفس وعوارض الحياةِ.

المَرتبة الثالثة: دَهماء العامَّة، وهم الذين لا يبلغ الإرشاد إلى مَداخل نفوسهم إلَّا بمشقة. فلذلكَ يُهرعون إلى التشغيب على المُرشِدِ بِسفاسفَ يَعُدُّونَها مهماتٍ، وقد قال قومُ فرعون لموسى وهارون: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، فَجَعلوا عبوديَّةَ بني إسرائيلَ طعنًا في رسالة رَجُلَينِ منهم. وقالت بنو إسرائيل مُجيبينَ نَبيَّهم صَمْويلَ إذ أخبرهم أن اللَّهَ بَعثَ لهم طالوتَ ملكًا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال قوم شعيب: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١].

وقال قيس بن عاصم التميمي يَذكر اتِّباعَهم لسجاحَ بنت المنذر المُتَنَبِّئة ويعبِّر عَن تَحَسُّرٍ:

أضحت نَبِيَّتُنا أنثى نُطيف بها ... وأصبحت أنبياءُ النَّاس ذُكرانًا

فَأهل هاتين المَرتَبَتَيْن بحاجةٍ إلى صفاتٍ في المُرشِدِ تُعين على استنزال طائر نُفوسهم إلى السكينة في تلقِّي الإرشاد، حتَّى يأخذَ قَرارَهُ من نفوسِهم على قَدر تَفاوُت قابليَّتِهم، من أجل ذلكَ استوفى اللَّهُ لرسوله، وهو أكمل المُرشدين، جميعَ صفاتِ الكَمال، وبَرَّأهُ من جميع النقائص، وكَمَّلَ له صفاتٍ لَيست هي المشروطة في تبليغ الدعوة والإرشاد، إذ قد يوجدُ بَعضها في غير المرشدين، وفي دعاة الضلالة، ولكنها تأييد تمهيديٌّ ليبلغَ الإرشادُ إلى نفوس فريقَيْنِ، فإذا ظهر الحق عَقِبَها كان ظهوره كالفَجر الصادق عقب ظهور ذنَبِ السَّرحان.

أسلوب إرشاده، وشكله، ونفوذه:

لَقد وَصفَ القرآنُ أسلوبَ إرْشادِ الرَّسول ﷺ، بقوله تَعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. وبِقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهاتَان الآيَتانِ تَختصَّان بإرشاد الرسول بما زادَ على ما أُنزِلَ عَليه من القرآن كما هو ظاهرٌ.

وقد وَجدنا الناسَ تُجاهَ الإرشاد الرَّسولي ثلاثَةَ أصنافٍ:

– **صنف هم** طلَّابُ حَقٍّ، ورغَّابُ رَشَدٍ، وهذا الصنف هم الذين أُعِدَّت لهم الحكمةُ، والموعظة الحَسَنَةُ، بحسب اختلاف مَراتِبِهم في تأثير الحكمة فيهم أو تأثيرِ المَوعظة الحَسَنَة على نُفوسهم، أو بحسب اختلاف أحوال الواحد منهم.

– **الصِّنفُ الثاني**: مُنازعٌ مَرجوٌّ، مثل أهل الرَّأي من المُشركين، ومثل أهل الكتاب؛ لأنَّهم على أثارَةٍ من علم، وهذا الصنف هو الذي أُعِدَّت له المُجادَلة بالتي هي أحسن؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى قال في آية أخرى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال في شأن المُشركين: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨]، فَوصف حِجَاجَهم للرسول بأنه جدلٌ.

– **الصنف الثالث**: جاهِلٌ مُكابرٌ، وهذا الصنف هو الذي أمرَ بالإعراض عنه بعد إبلاغه الدعوة بقوله تعالى: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨] ، وقولُه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ [القصص: ٥٦].

فأمَّا أسلوب الحكمة فهو أسلوب جامعٌ لِشُعَبٍ كَثيرة؛ لأنَّ الحكمَةَ تَقتضي أن يكون الإرشاد مناسبًا لحال المرشدين وقابليَّتهم، ومن هذه الشُّعَب ما تَقَدَّم لنا بيانُهُ من كمال إرشاد الرسول. ومن أجَلِّ مظاهر أسلوب الحكمة ما تَضمنته جوامعُ كلامِهِ ﷺ الكثيرَة.

وتَدخل في قسم الحُجَج القَواطِع.

وأمَّا أسلوب الموعظة الحَسنة فهو أسلوبُ التَّرغيبِ والتَّرهيب وهو أجلى مَظاهر الخَطابَة؛ إذ المَوعظَةُ هي التذكير بما يُلَيِّنُ القلبَ للانْفعال بما يأمره الواعظ، وَوَصَفَهُ اللَّهُ تعالى بالحَسَنَة وصفًا أهملَ المُفَسِّرونَ الغَوصَ على مقصده، فالحَسنَة إمَّا بِمعنى المُناسَبَة لحال المَوعوظ في لينٍ أو شِدَّةٍ، فَحُسنُها باعتبارِ حُصول فائِدَتها. وإمَّا أن تَكونَ بمعنى الملاءمَة لِطباع الناس وهي التي أُخِذَ فيها بِجانب اللين بقدر الإمكان، وهذا الاحتمال أظْهَرُ؛ لأنَّه أوفَق بقوله بَعد: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهَذا الحُسنُ تَنبثق منه أفانين كثيرةٌ في الإرشاد مَرجِعها إلى تَوَخِّي الحالات التي تكون نفوس السامعين فيها أعلقَ بالإرشاد، فَمن ذلك الإرشاد عند ظهور رقَّة النفوس وخوفها، كما خَطبَ النبي ﷺ في صلاة العيد فَأَمَرَ الناس بالصَّدَقة فَقال:

« **يا مَعشَرَ النِّساء، تَصدَّقْنَ** »[١]، « **رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ يَومَ القيامة** »[٢]، فَجَعَلَ النساء يُلقينَ الفَتَخَ والخواتيمَ والأسخبَة في ثوب بلالٍ. ومِن الموعظة الحسنة الإرشاد بطريق التمثيل والتشبيه للتحسين أو للتقبيح مثل الحديث: « **أيُّكم مَالُ وارثِهِ أحبُّ إلَيه من مالِه؟** » قالوا: يا رسول اللَّه، ما منَّا مِن أحَدٍ إلَّا مَالُه أحبُّ إليه من مال وارثه. قال: « **فإنَّ مَالَه ما قَدَّمَ، ومالُ وارثِهِ ما أخَّرَ** »[٣].

وانظرْ هل تَجد في إيقاظ النفوس إلى مكارم الأخلاق والحرصِ عَلى الاتسام بِمَيْسَم زَكاءِ الفطرة أبْلَغ وأوْجَز من التشبيه في قوله ﷺ: « **النَّاسُ مَعادِن كَمعادن الذَّهب والفضَّة، خِيارُهم في الجاهليَّة خِيارُهم في الإسلام، إذا فَقِهوا** »[٤].

وأما أسلوبُ المُجادَلَة بالتي هي أحْسَنُ، فَهو مُخْتَصٌّ بإرشاد المتردد المُعارِض، ومَعنى ﴿ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾: بالمُجادَلَة التي هي أحسن، فَحُذفَ المَوصوفُ بدلالة: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم ﴾ [النحل: ١٢٥]، وتأنيب الصِّفة عَلَيهِ، والتَّفضيل في قوله: ﴿ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] تَفضيلٌ عَلى حُسْن المَوعظة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، عَلَّمَ اللَّهُ رَسولَهُ أنَّ مقامَ المُجادَلَةِ أحْوَج إلى الإحسان من مَقام المَوعظةِ لِمَا أنَّها مَوعِظَةٌ لِمُعارِضٍ خَصْمٍ، ويُفَسَّر الحُسْنُ المُفَضَّل هنا بأحد الوَجهَيْن اللَّذَيْن فَسَّرنا بهما المَوعظَةَ الحَسَنَةَ. وقد جادَل رَسول اللَّه ﷺ رُؤَسَاءَ قُرَيشٍ حينَ كانَ بمكةَ. اجْتَمَعوا عندَ ظَهر الكعبة وقالوا: ابْعَثوا إلى مُحَمَّدٍ فَكلِّموهُ حتى تُعذَروا إلَيه، فَبَعثوا إليه، فَجاءَ ﷺ مُسرعًا، فَقالوا: يَا محمد، إنَّا واللَّه ما نَعلمُ رجلًا مِن العَرب أدخَلَ على قَومِهِ ما أدخلتَ على قومِكَ، لقد عِبتَ الدِّينَ، وشتمتَ الآلهةَ، وسَفَّهتَ الأحلامَ، وفرّقتَ الجَماعةَ، فإن كنتَ إنَّما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالًا، جَمعنا لكَ من أموالنَا حتَّى تَكونَ أكثرنَا مالًا، وإن كنتَ إنَّما تَطلبُ به الشَّرَفَ فينَا فَنَحن نُسَوِّدُكَ عَلينَا، وإن كنتَ تُريد به مُلكًا مَلَّكناكَ عَلَينَا، وإن كان هذا الذي يَأتيكَ رَئيًّا[٥] تَراه قَدَ غَلَبَ عليكَ، بَذلنا أموالَنا في طلب

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٢٩٨) بترقيم ديب البغا.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب الفقر والزهد والقناعة (٦٩١).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له (٦٠٧٧).

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب قول اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومسلم في البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨).

(٥) كانوا يُسمونَ التابع من الجنِّ الذي يَظهر لأحدٍ ويَلزَمه ولا يُفارقه: رئيًّا، بمعنى مرئيٍّ، وكانوا يزعمون أنَّ لكلِّ فَحل من الشعراء رئيًّا، وكان الأعشى يَزعم أن رئيه يُسمى: مسحَلًا، فقال: =

الطبِّ لَكَ. فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ما بي ما تقولونَ، ما جئتُ بما جئت به أطلُبُ أموالَكم، ولا المُلكَ عَلَيكُمْ، ولكنَّ اللَّـهَ بَعثني إليكم رسولًا، وأنزلَ عَليَّ كتابًا، وأمَـرَني أن أكون لكم بَشيرًا ونَذيرًا، فَـبَلَّغتكم رسالاتِ رَبِّي ونَصحتُ لَـكم، فَإن تَقبَلوا منِّي ما جئتكم به فهو حَظكم في الدنيا والآخرة، وإن تَرُدُّوهُ عَليَّ، أصبِر لأمرِ اللَّهِ، حتَّى يَحكمَ اللَّهُ بَيْني وبَينَـكُمْ »[1]. ثم اقترحوا عليه أشياءَ تَضَمَّنها قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

[و] مِنَ المُجادلة الحسنة مجادلتُـهُ أهلَ نَجرانَ لَمَّا وَفدوا عليه في ستينَ رَجلًا، منهم أربعةَ عشرَ من أشرافهم، ورؤساؤهم ثلاثةٌ إليهم مَرجِعُ أمْرهم؛ وهم العاقِبُ أي: الأمير، واسمُه: عَبد المسيح، والسيد دونه واسمه: الأيْهَم، والأسقُف عالِمُهم، واسمه: أبو حارثَـةَ، فَناظروا رسول اللَّه ﷺ في شأنِ عيسى، فَناظَـرَهم رسول اللَّه بما تَضَمَّنه أول سورة آل عمرانَ، إلى نحو ثمانينَ آيةً منها إلى قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦١]. ومُجادَلات أهلِ الكِتابِ كَثيرةٌ في القرآنِ.

وأما الإعراض عن المُكابرينَ فإنما يكون في إرشاد الدَّعوة بعد التبليغ؛ لأنَّ اللَّـهَ تَعالى أمَـرَهُ بالإعراض بعد أن أمَـرَه بالتبليغ؛ إذ قال: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

وأمَّا في الإرشاد إلى حُسنِ الأخلاق، وفِعلِ الخَيْراتِ فَقد كان رسول اللَّه ﷺ يُرشد بعضًا، ويُعرِضُ عَن بَعضٍ بحسب ما يرجوه من القَبول والتأثُّر. وقَد جَمعَ بينَ الإعراض والإرشاد في كتابِهِ إلى مُسيلمَةَ بن حَبيبٍ الحَنفيِّ، المُلَقَّب بالكَذَّاب، فَإنَّ مسيلمَةَ كَتب إلى رسول اللَّه ﷺ: « إنَّ لي نَصفَ الأرض، ولكَ نِصفُها، ولكنَّ قريشًا قَومٌ يَعتَدون ». فَـكتب

= .... إذا مِـنـحَـلٌ سـدَّى لـيَ القـول أنطـق

وهذا الزعم هو الذي عناه المعريُّ بقوله:

وقـد كـان أربـابُ الـفـصاحة كـلما رأوا حـسـنًا عـدُّوه مـن صَـنـعـة الـجنِّ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية (١ / ٢٩٦) طبعة دار الجيل.

إليه رسول اللَّه ﷺ: « **إنَّ الأرضَ لِلَّه يورثها مَن يَشاء من عِبادِهِ والعاقِبَـةُ للمتَّـقينَ** »[١].

وأما شَكلُ الإرشاد فقد استوعبَ الإشارةَ إليه قولُهُ تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فَعِزَّة عَنَتِ النَّاس عَلَيهِ ممَّا يَبعثه إلى تَعجيل الإرشاد إليهم، وإكثاره منه في كلِّ مُشاهَدة تَقصيرٍ أو تَوقُّـعِه. وقد وَرَدَ في صفة مَجلسهِ ﷺ أنَّه مَجلس حياءٍ وعلمٍ.

وأما صِفَةُ الحِرص فهي باعثةٌ على تَـوَخِّي إيعاء السَّامِعين كلامَهُ. قالت عائشة: كان رسول اللَّه ﷺ يُحَدِّثُ الحَديثَ، لَو عَدَّه العادُّ أحْصَاهُ، وكانَ إذا تَـكَلَّمَ بالكلام في الدِّين والإرشاد أعادَ الكلامَ ثلاثًا. ورَوى داودُ عن جابر بن عَبد اللَّه قال: كان في كلام رسول اللَّه تَرتيلٌ؛ أي: تَبعيدٌ بَينَ الجُمَل في النُّطق لِـيَعِيَها السامعون. وقد وَرَدَ أنَّـه لو شاءَ أن يَـكتبَ أحدٌ كلامَه لاستطاع ذلكَ. ومِن مَعنى الحِرْصِ عَلى بلوغ الإرشاد ما جاء في الحديث الصحيح: « **نَضَّرَ اللَّهُ امرأً سَمِعَ مَـقالَتِـي فَوعاها فأدَّاها كَما سَمعها، فَـرُبَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَن هو أفْقَه منه، وربَّ حامِلِ فقهٍ إلى مَن لَيس بفقيهٍ** »[٢]، وفي رواية: « **فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامعٍ** »[٣].

وأما نفوذُ الإرشاد في نفوس المُرشَدينَ، فذلكَ تابعٌ لتفاوت استعدادهم. وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠]، ودونَ ما تَضَمَّنته هذه الآيةُ مراتبُ متكاثرة ترجع إلى ثلاث رُتَبٍ.

ولم أرَ كلامًا أفصحَ وأجمَعَ لهذه الرُّتَب الثلاث من الحديث الذي رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **مَثَلُ ما بعثني اللَّه بِهِ من الهُدى والعِلم كَمَثَل الغَيثِ الكثير أصاب أرضًا، فَـكانَ منها نـقِيَّـةٌ، قَبلت الماءَ، فَأَنْـبَـتَت الكَلأَ والعشب الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ، أمسكت الماءَ، فَـنَفَعَ اللَّه بها الناس، فَشربوا، وسَقَوا، وزَرَعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قيعان**[٤] **لا تمسكُ ماءً ولا تنبت كَلأً، فذلكَ مِثلُ مَن فَقُهَ في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به فَعَلِمَ وَعَلَّم، ومثلُ من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى اللَّه الذي أُرسلتُ به** »[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢ / ٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود في العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠) طبعة دار الفكر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٣) أخرجه البخاري، في العلم، باب قول النبي ﷺ: رب مبلغ أوعى من سامع (٦٧) بترقيم ديب البغا.

(٤) النقيَّة الطيبة من الأرض. والكلأ مَهموز الآخر من دون مَدٍّ هو المَرعى الغليظ، والعُشبُ بضَمِّ العَين، وضم الشين: المَرعى الرطب الخفيف، فإذا هاج فهو حَشيشٌ، والأجادِبُ بالدَّال المُهملَة، جَمع جدب بفتح الجيم والدال، وهي الأرض التي تقرُّ فيها المياه ولا تنبت شيئًا، والقيعان بكسر القاف جمع قاع، وهو الأرض المستوية التي لا تمسك الماءَ.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من علم وعَلَّم (٧٩).

الرسول ﷺ والإرشاد (٢) (١)

صِفَة إرشاد الرَّسول:

ظَهرَ في العالم منذ النشأة مُرشدونَ كثيرونَ. منهم الأنبياء والرُّسل الذين كان إرشادُهم عن وَحيٍ إلهيٍّ، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

ومنهم مُرشدون عن رأي وحكمةٍ، ونظرٍ وتجربة، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وأولئك هم حُكَماء الأمم ومُرشدوهم، مثل: لقمان وسقراطَ وأفلاطون.

ومِنهم مرشدون خلعوا ضلالات أقوامِهم وتَطلَّبوا الحق، فَبلغوا إلى صبابة منه، لم تَروَ بها نفوسهم، بَله أن يَشْفُوا غلةَ غيرِهم، وهؤلاء مثل مَن ظهرَ في العرب من طلاب الحقيقة، مثل: زَيدِ بن عمرو بن نُفَيلٍ، وأمية بن أبي الصَّلت، ووَرَقَةَ بنِ نَوفل، وقس بن ساعدة.

أَمَّا إرشاد الرسول ﷺ فَهو أشرَفُ مِن إرشاد أولئك كلِّهم، لامتيازِهِ بِوَصفين، هما: العُمومُ والكَمال.

أما عُمومُ إرشادِهِ، فَهو أثَـرٌ لعموم رِسالَتِـهِ، فَما من أحَدٍ بَعد بِعثَـتِـهِ إلَّا وهو مَدعُوٌّ بِدَعوة الإسلام، وكلُّهم بِمَعرضِ تَلَقّي الإرشاد الديني والأخلاقيِّ من صاحب الدعوة العامة.

ولذلك كان النبي ﷺ لا يَدَّخر عن أحدٍ إرشادًا مدة حياتهِ الـمُباركَة، ثمَّ تركَ مِن بعده الإرشادَ ما حواه القرآن وصحيحُ الآثار.

تَصَدَّى الرسول للإرشاد العام بنفسه، فَأرشدَ أهله، وأهلَ بلاده، وقَومه، وجميعَ العَرب: الـمُضرية والقحطانيَّـة. وأرشَدَ الأمَمَ: من الفرس والروم والحبشة والقِبط. وكانَ العالمُ يَومئذٍ هو مجموع هذه الأمم، ومَن يَندرج تَحتَها من الأمم الصغيرة التابعة لها، عَدا الصينَ والهندَ والمَغول، فَقد كانت أممًا في عزلة عن العالمِ، فلا طَمعَ في مخاطبتها.

وأمَّا كمالُ الإرشاد النبوي، فَمَعناه أنَّ الرَّسول ﷺ تولَّى الإرشادَ بجميع الطرق والكيفيات التي هي مَظَـنَّة التأثير في نفوس الـمُرشَدِينَ.

---

(١) ورد هذا المقال بعنوان الرسول والإرشاد، مجلة الهداية، إبريل (١٩٧٥م) (ص ٢٧ - ٣٠). (ويُرجح أنه كُتب سنة ١٩٣٣م).

فأرشَدَ بالقول وبالفعل، وبالتصريح والتَّعريض، وباللفظ والكتابة والإشارة، وفي حالتَي الحُضور والسفر، وفي حالتَي الصحَّة والمَرض. كلُّ ذلكَ بنفسه.

وأرشدَ بالوسائط: بتوجيه المعلمين، والقُضاة والمُبَلِّغين وبإقامة المُسَمِّعين.

* **الإرشادُ بالقَول** هو أهمُّ طرق الإرشاد. وفيه تَظهرُ صفاتُ الرَّسول ومُمَيِّزاتُه.

وهو أيضًا أبقى طرق الإرشاد، فإنَّ فيه:

- الإرشادُ بالقرآن، وهو أنْفَذ كلام في الإرشاد؛ لأنَّه فاقَ أفضلَ كلام العَرب، وكان أدخلَ في نفوسهم من كلِّ كلام بليغ حكيم، لما تَفَرَّد به القرآن من غايةِ حُسن التأليف في نسج الكلام، والتئام الكَلم، والفَصاحَةِ وَوُجوه الوَعظ والبَلاغَة، حتَّى بلغَ الحَدَّ الذي أعجزَ فصحاءَ العَرب وبُلغاءَهم عن مُعارَضَته، مَع تحديه إيَّاهم بمعارضته في مُدة غَلوائهم في الكفر به، وعنادهم في قَبول دعوة الإسلام، ودَعاهم إلى الإتيان بسورةٍ مثله، وأنذَرَهم مَع ذلكَ بأنهم غير فاعلين، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فأعرضوا عن ذلك عجزًا، مع ما عرفوا به من القدرة الفائقة، وهم فرسان البلاغة، وقالَة الأمم، وخُطباء العالم، قد مَلكوا قياد المعاني، وبَرعوا في بَداهَة التعبير.

ثمّ إنَّ اللّه خصَّه بما يأخذ سامعيه من الروعة والمهابة لسماعه، والجَلالَة التي تَغشى النفس عند قراءته، وأنَّه لا يَملُّه قارئه ولا سامعهُ، وأنَّه لا تَنفد معانيه بتكرار التدبر.

- وإنَّ من الإرشاد بالقول عَدا القرآن إرشادًا عظيمًا، وهو أقوال الرسول في خطبه، ونَصائحه ومَواعظه، ومُحادثاته، ومُجادلاته، في حال الرضا والغَضب، ومع الأصحاب ومَع الأعداء. وهي مع اختلاف أساليبها وكَثرة أعاجيبها، قَد اشتركت:

في جَزالة المعاني ووفرتها، وفي فَصاحة الألفاظ وإيجازها، وقَد آتاه اللّه تعالى من الفصاحة والبلاغة ما هو قَريبٌ من بلاغة وفصاحة القرآن، وقد قال ﷺ: « **أنا أفْصَح مَن نَطَقَ بالضَّادِ** »[١]، وفي رواية: « **أفْصَحُ العَرَب، بَيدَ أنِّي من قريشٍ، واستُرضعت في بَني سعدٍ** »[٢].

وكانت لغة أهل الحجاز وتِهامَةَ أفصح لغات العرب، وقريش كانوا أفصحَ أهلِ

---

(١) السخاوي، المقاصد الحسنة (ص ٩٥)، وقال: معناه صحيح، ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير. اهـ.

(٢) شرح السنة للبغوي (٤ / ٢٠٢). وفيه « ونشأت في بني سعد ».

الحجاز، وهم أهل تِهامة على الحقيقةِ. لِما أنّهم كانوا يَسمعون لهجاتِ العَرَبِ كلِّهم في مواسم الحجِّ، فكانوا يَتَخَيَّرون أحسن ما يسمعونه، تَراكيبَ ولهجاتٍ، وتَفَنُّنًا في أساليب أداء المعاني.

أما بنو سعد أظآرُ الرسول ﷺ فَهم بنو سعد بن بكر من هوازنَ، قومُ مرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب عبد اللّه بن الحارث. وكانوا من أفصح قبائل العربِ، وكانوا يَنزلونَ بالحجاز بين يثرب وعَسَفَانَ. ولغة بَني سَعدٍ بن بكرٍ هي إحدى اللغات التي نزل بها القرآن، والتي قيلَ إنَّها المُرادُ بالأحرف في الحديث: « **أنزلَ القرآنُ على سبعة أحرفٍ** »[1]، على أظهر تأويلات ذلك الحديث. وقَد قال ﷺ: « **أوتيتُ جوامعَ الكلم، واخْتُصِرَ لي الكلامُ اختصارًا** »[2]. وليسَ هذا المقام مقام الإتيان بشيء منها، فعلى المَشوق إلَيها أن يَتَطلَّبها من مظانها.

* **وأمَّا الإرشاد بالكتابة**، فَقد كتَبَ رَسولُ اللّه ﷺ إلى هرقل وكسرى ونَجاشيِّ الحَبشة ومُقَوقس مصرَ. وكَتبَ من ملوك العرب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين وإلى جَيفَرَ وعبد ابنَي الجلندي، مَلِكَيْ عُمانَ. وإلى هَوذة بن علي ملك اليمامة. وإلَى الحارث بن شمَّرَ الغساني ملك الشام.

وكانَ يُرفق كُتُبَه برسل يبلّغونها إلى من أرسل بها إليه. فأرسل كتابَ هرقلَ مَع دحيةَ الكلبي، وَوَجَّهه إلى هرقل حين حُلُوله ببيت المقدس، سَنَةَ ستٍّ من الهجرة.

وأرسلَ إلى كسرى عبد اللّه بن حذافة السهميِّ. وإلى النجاشيِّ أرسلَ عمرو بن أمية الضمريّ. وإلى المُقَوقسِ صاحب القبط، أرسلَ حاطبَ بن أبي بَلتَعَةَ.

والعلاءَ بن الحضرمي إلى ملك البحرين. وعَمرَو بن العاص إلى ملكي عمان. وعَليَّ ابن عمرو العامري إلى ملك اليمامة. وشجاعَ بن وهب إلى ملك الشام.

هذا وقدَ كَتبَ رسول اللّه ﷺ إلى غَير هؤلاء كتبًا، في الإرشاد إلى أحكامٍ وإلى نُظُمٍ مُبَيَّنة، مثلَ كتابه إلى عمرو بن حزم الخزرجيّ، حينَ بَعَثَه إلى بني الحارث بن كعبٍ، سنةَ عَشر من الهجرة، بَيَّنَ له فيه الفرائضَ والسننَ، والصدقات والدِّيات. وكتابه إلى أكيدَرَ، صاحب دُومَة الجندل[3].

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٧٠٦)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (٨١٨).

(٢) أخرجه الحافظ العسكريُّ في الأمثال عَن جعفر بن محمد عن أبيه ﷺ، مُرسلًا.

(٣) دومة الجندل (بضم الدال) أرضٌ ذات ماء ونَخيل بين الشام والمدينة، قرب تبوك، وقرب جبلي طي =

ومِن تَـمام الإرشاد بالكتابة كتابَـتُهُ إلى بَعض قبائل العرب بلغتهم. فَكَـتَبَ إلى ذي المِشعار مَالك بن نمط الهمذاني، وإلى طَهفة بن زهير النهدي، وإلَى وائل بن حِجْر الكندي، وإلى الأشعث بن قيس الكندي، بلغات اليمن. وكَتَبَ إلى قطن بن حارثة الغليمي الكلبي كتابًا، بلغة قومه من كلبٍ.

* **وأما الإرشاد بالإشارة**، فحيـنَ تَـكون الإشارة أوضحَ وأجمعَ، كإشارته في قوله ﷺ: « **الفتنة من هَهُنَا** » - وأشارَ إلى المَشرق - « ... **حيث يَطلع قَرنُ الشيطان** »[١].

وفي الموطأ والبخاريّ أنَّ الرسول ﷺ كان يُسأل يومَ حجَّة الوَداع عن الفعل من أفعال الحج، يُقَدَّم أو يُؤَخَّر، فَيشير بيده للسائل؛ أي: لا حَرَجَ[٢].

وفي حديث الفِطر: « **إذا أقبلَ الليل من ههنا** ... - وأشارَ إلى المَشرق - ... **أدبر النهار من ههنا** ... - وأشار إلى المغرب - ... **فقد أفطرَ الصائم** »[٣].

وفي الحديث الصحيح: « **التقوى هَهُنا** »[٤] ويُشير إلى صدره. وقال في خطبة الوداع: « **وإنَّ دماءَ الجاهلية مَوضوعَةٌ تَحت قدمي هذه** »[٥].

وفي حديث معاذ بن جبل ﷺ: ثم قال رسول اللّـه ﷺ « ...**ألا أخبركَ بمَلاك ذلك كله** ...» الإشارة إلى العمل الذي يبعد عن النار، قلت: بَلى يا رسول اللّـه، فأَخَذَ بلسانه وقالَ: « **كفَّ عليكَ هذا** »[٦].

* **وأمَّا الإرشادُ بالفعل**، فَـنَحو صَلاتِـهِ عَلى الـمِنبَرِ لِـيَـراهُ الناس. وبيانه للحَجِّ بالفِعل. وقَولُه: « **صَلُّوا كَما رَأيتُموني أصلي** »[٧].

وفي الصَّحيح أنَّه جاءت رسولَ اللّـه ﷺ، امرأةٌ من خَثعمَ في حَجَّة الوداع، وكان الفَضل

= وأُكَيدر - بضم الهمزة و فتح الكاف - صاحبها نصراني من نصارى العرب، وهو الكندي. كان له حصن في دومة مبنى من جندل، فلذلك قيل لها دومة الجندل. أسلم سَنَة (٩هـ)، و كتب له الرسول كتابًا في الصلح لقومه.

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق (٦٦٨) بترقيم ديب البغا. ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان (٢٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب الذبح قبل الحلق (١٦٣٥) بترقيم ديب البغا.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، باب متى يحل فطر الصائم (١٨٥٣) بترقيم ديب البغا.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم (٢٥٦٤).

(٥) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٦) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب حرمة الصلاة (٢٦١٦)

(٧) أخرجه البخاري في الأذان، باب الأذان للمسافر (٦٠٥) بترقيم ديب البغا.

ابن عَبَّاسٍ رديفَ رَسولِ اللّـه ﷺ، وكانَ الفَضل رَجلًا وَضيئًا، فَجعلَ رَسول اللّـهِ يَصرفُ وَجهَ الفَضل بيده دفعًا للفتنة بينهما.

* **وأرشَدَ بالتصريح** وهو الكثيرُ.

* **وأرشَدَ بالتعريض**، حَيث لا يَكونُ للتصريح فائدةٌ زائدةٌ، كقوله: « **ما بَال أقوامٍ يَشترطون شروطًا ليست في كتاب اللّـه؟** »[١] وقوله: « **لَقد هَممتُ أن آمُرَ بِحَطبٍ فيحطب، ثمَّ أختَلف إلى رجالٍ فأحرقَ عَليهم بيوتَهم. والذي نَفسي بيدهِ، لَو يَعلم أحدهم أنّـه يَجد عرقًا**[٢] **سَمينًا أو مِرمَاتَين حَسنَـتَين، لَشهد العشاءَ مَع الـجَماعَةِ** »[٣].

* **والإرشادُ في الـحَضَر والسَّفر بَـيِّـنٌ**:

وقَد سافَرَ رسول اللّـه ﷺ لأجل الإرشاد، مثلَ سَفَره لِعَرض نَفسه على القبائل، ومَا الهجرة النبويَّة إلَّا أكبَرُ سَفر لأجل الإرشاد.

* **وإرشادٌ بواسطة الرُّسل**، فَبَعَثَ رسلًا مَع كُتُبه إلى الـمُلوك وكُبَراءِ العَرَب كما تَـقَدَّمَ آنفًا.

وأرسلَ مُصعبَ بنَ عميرٍ العَبدري إلى أهل المَدينَة ليقرئهم القرآنَ، ويُرشِدَهم إلَى الإسلام والدِّين، فَكانَ مُصعب يُسَمَّى بينَ أهل المدينة بالـمُـقْرئ.

وأرسلَ مُعاذَ بنَ جَبلٍ إلى اليَمن قاضيًا ومعلمًا. وأرسلَ أبا عبيدةَ بن الجَـرَّاح إلى أهل نَجرانَ لِـيُرشدَهم في فَصلِ أشياء بينهم. وعَن حُذيفَة بن اليمان قال رَسولُ اللّـه ﷺ: « **لَقد هَممتُ أن أبعثَ قومًا في الناس مُعلِّمينَ، يُعلمونَهم السنةَ، كما بَعثَ عيسى ابن مريمَ الحواريينَ في بني إسرائيلَ** »[٤]، ذَكَرَه ابنُ عساكرَ في التاريخ.

وأرسلَ عَليًّا إلى اليَمن، وأوْصاه أنْ لَا يَدَعَ تـمثالًا إلَّا طَمَسَهُ، ولا قَبرًا مُسَنَّـمًـا إلَّا سَوَّاهُ[٥]. رَواهُ مسلم.

وأرسلَ عَمرو بنَ حَزم الـخَزرَجيَّ إلى بَني الحارث بن كعبٍ؛ لِـيُعَلِّمَهم القرآنَ، ويُفَـقِّـهَهم

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب اللّـه (٢٥٨٤) بترقيم ديب البغا. ومسلم في العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤).

(٢) العَرْقُ (بفتحِ وسكون الراء) العظم عليه بقية اللحم. يقالُ: تعرّق العظمُ إذا نهش أو أكل ما عليه من اللحمِ. والمِرماةُ (بِكسر الميم) ما بينَ ظلفَي الشاة من اللحم.

(٣) أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة (٦١٨) بترقيم ديب البغا.

(٤) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤ / ٦٩) طبعة دار الفكر، بيروت.

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز، باب جعل القطيفة على القبر (٩٦٩). وفيه: « **ولا قبرًا مشرفًا** ».

في الدِّين، وذلكَ سَنَـةَ عَشرٍ من الهِجرةِ.

ومِن لَواحِقِ الإرسالِ للإرشاد: إقامَـةُ الـمُسْمِعِ بالإرشاد. فَقد وَرَدَ في صحيح الآثار، أنَّ رَسولَ اللَّـهِ ﷺ لـمَّا خَطبَ يومَ الحجِّ الأكبَر خُطبَـتَهُ الجامعةَ في حَجَّة الوَداع، أقامَ رَبيعَةَ ابنَ أميَّـةَ بن خَلَفٍ يَصرُخ في النَّاس بِقَول رسول اللَّـه ... يَـقول رسول اللَّـه: أيُّها الناس كَذا وكذا، فَيقول ربيعة: إنَّ رسولَ اللَّـه يقول كذا وكذا.

ومن هذا أيضًا إرساله عليًّا ﷺ مع أبي بكرٍ ﷺ في حَجَّة أبي بكر، سَنَـةَ تسعٍ، وعليٌّ ينادي في الناس بسورة براءَة، ثم ينادي: أنْ لا يَـحُجَّ بعدَ العام مشركٌ، ولا يَطوفَ بالبَيت عريانٌ[1].

وأرشَد رَسولُ اللَّـه ﷺ في حال صِحَّته، وهو أكثر ما جاء من إرشاده، وأرشَدَ في حال المَـرَض، فَلم يَدع من أوقات حياته الـمُبارَكَـةِ وقتًا إلَّا أرشَدَ فيه.

فَفي الصَّحيح، أنَّه قال في مَرضه: « **لَعَنَ اللَّـهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخذوا قبورَ أنْبيائهم مساجدَ** »[2]، يُـحَذِّر ممَّا صَنَعوا. وذَكَرَتْ أمُّ حبيبَـةَ - رضَي اللَّـه عنها - في نِسوَةٍ في بيت رسول اللَّـه، كنيسةً رَأتها في بِلاد الحَـبَشة، فَذَكَرْنَ حُسنَها وصورًا فيها. فَقال رسول اللَّـه ﷺ: « **أولئكَ قومٌ إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصَّالحُ جَعلوا لَـهُ صورَةً، ثمَّ عَبَدوا تلكَ الصورَةَ، أولئكَ شرارُ الـخَلق عندَ اللَّـه يومَ القيامة** »[3].

وعَن أنسِ بن مالكٍ، ورَواه صاحبُ الجامِع الكبير، كانَ آخرُ ما أوصى به النبي ﷺ أن قالَ: « **الصَّلاة ومَا مَلَـكت أيْمانُـكم** »، حتَّى جَعَلَ يُغرغِر بها في صَدْرِه، وما يكاد يَفيضُ بها لسانُهُ[4].

وكَذلكَ أمْرُه ﷺ في مَبدأ مَـرَضِه بأن يأمروا أبا بَـكرٍ ليصليَ بالناس[5].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك (١٥٤٣) بترقيم ديب البغا.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر - رضي اللَّـه عنهما - (١٣٢٤) بترقيم ديب البغا، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في أبواب المساجد، باب الصلاة في البيعة (٤٢٤) بترقيم ديب البغا، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (٥٢٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢١٦٩) بترقيم مؤسسة الرسالة وتحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (٦٤٦) بترقيم ديب البغا، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس (٤٢٠).

الرسول ﷺ والإرشاد (٣) [١]

هَذه الحَلقَة هي الثالثة والأخيرة من مقال كان أعَدَّهُ منذ حَوالَيْ أربَعينَ عامًا شيخُ علماءِ تونسَ، العَلامَة المَرحوم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

لقد وَجدنا في هذا المَقال الجَليل كَنزًا من المعارف الإسلاميَّة، وذَخيرَةً من السيرة النبوية الشذيَّة، انتَخَبنا منهَا لِقُرَّائنَا الأكارم في أول عَدَدٍ أصْدَرناه من « الهِدايَـة » بِضعَ صَفَحاتٍ، وعُدنا إلَيها فَـنشرنا منها في فُرصَةٍ ثانية صَفحاتٍ أخرى، ثمَّ عَزَّ علينا أن نَضِنَّ بما بَقي من صَفحاتها على القُرَّاء، خُصوصًا وهو يَتَماشى مع مُناسَبَـة صدور عَدَدِنا هذا، بِمناسبةِ المَولِـدِ النَّـبَويِّ الشَّريف، صَلَّى اللَّهُ عَلى صاحِبِهِ وسَلَّمَ تَسليمًا كثيرًا، فآثَرنَا نَشرَها، مُنهينَ بها مَقال الشيخ، رَحِمَهُ اللَّه ونَفَعَ بِهِ.

خواصُّ الإرشاد النبويّ:

بُلوغُ الإرشادِ النَّـبَويِّ غايَةَ الكمال والعُموم، وما تَفَـرَّعَ عَن ذلكَ، يُعَدُّ من خَواصِّه لَا مَحالَـةَ. ولكنَّ الغَرَضَ من بَحثِنَا هنا عن خَواصِّ أوْصافِه التي لا يُدانيهِ غَيْـرُهُ في أصلِهَا، بَلْه نِـهايَـتها وتلكَ هي: العِصْمَةُ من الخَطَـأ فيهِ، وتَناوُلُهُ لما سَيَـقَعُ في الزَّمانِ المُستَقْبل.

فَالعِصمَةُ عَن الخَطأ مِن تَوابِـعِ صِفَة الرِّسالَة. ولَمَّا كانَ الإرشادُ كلُّهُ دائرًا بَينَ تَبليغِ الشَّريعَةِ وبَينَ ما يُكملُ ذلكَ مِن تَهذيبِ النُّفوسِ وإصْلاحِهَا، وهَذا النَّوعُ لَهُ مَزيدُ اتِّصالٍ بالإرشاد التشريعيِّ؛ لأنَّ تَطهيرَ النُّفوس أوَّلُ عَونٍ عَلى قَبولِ الإرْشاد التَّشريعيِّ، وعَلى دَوامِ العَمل بِهِ، وكانَ مُكمِّلًا لَه، لَزِمَ أن يَثْـبُتَ له من السَّدادِ ما ثَبَتَ لأصلِهِ، لِئَلَّا يَعودَ عَلى أصْلِه بالنَّـقص أو بالنَـقض.

فَعَلَى الأصل الثابتِ في الشريعةِ، وهو أصْلُ عِصمَتِهِ ﷺ مِنَ الخَطأ في التبليغ، وهو أصْلٌ قَد أجْمَعَ عَلَـيْه عُلماءُ الأمَّـةِ قاطبةً، نَبني أصْلَـنَا الذي نُقَـرِّرُه هنا، وهو عِصمَتُـهُ ﷺ مِنَ الخَطأ في الإرشاد، غَيرِ الـرَّاجِع إلى التبليغ والتشريعِ؛ لأنَّـه - حَيثُ كانَ الغَرَضُ مِنهُ إصلاح النُّفوس - وَجَبَ أن تَـثبُتَ لَه العِصمَةُ فِيـهِ من الخَطَـأ؛ إذِ الخَطَـأُ في إصلاحِ النُّفوس يَؤُولُ إلَى فَسادِهَا فَـتَـتَباعَدَ عَن الحَقِّ، وذلكَ يَبتَعِدُ بها عن العَمَل بالحَقّ، المنافي

(١) صدر هذا المقال بعنوان: الرسول ﷺ والإرشاد، في مجلة الهداية، مارس (١٩٧٧م) (ص ١٢ - ١٥).

لِمَوقف المُشَرِّع. وقَد رَوى أبو داودَ عَن عَبدِ اللَّه بنِ عمرو قال: قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أكتُبُ كلَّ ما أسْمَعُ عَنكَ؟ قَالَ: « **نَعَم** ». قلتُ: في الرِّضا والغَضَبِ؟ قالَ: « **نعم، فإني لا أقولُ في ذلك كلِّهِ إلّا حقًّا** »(١).

وتَناوُلُ الإرشاد النَّبَويِّ لِما سَيَقَعُ في المُستَقبَل هو مِن تَوابِعِ صِفَة النبوَّة؛ إذ هُو لَا يكونُ إلّا عَن وَحْيٍ، وهَذا النَّوع هو أقلُّ أنواع الإرشادِ.

وحِكمَةُ تَقليله التأدُّبُ مَع عَلَّامِ الغُيوب بقولِهِ تَعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقالَ تَعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فإذا أُوْحِيَ إلَيه بِغَيْبٍ لِـيَعْلَمَهُ، اقتَصرَ على عِلمه، وإذا أذِنَ له في إبلاغه أبْلَغه بِمقدارِ الحَاجَة والتَّحذير. وَهَذَا الإرشادُ مِنهُ يَعُمُّ الأمَّـةَ كلَّها. ومِنهُ مَا يَخْتَـصُّ بِـبَعْضِهَا.

فَمِنَ الأوَّل قولُه في خُطبَة حَجَّة الوَداع: « **أيُّـها النَّاسُ، اسمَعوا مني أبَـيِّنْ لَـكم، فإني لَا أدري لَعَلِّي لا أَلْقاكُم بَعدَ عَامي هَذا** »(٢)، قَصْدًا لِحَثِّهِمْ عَلى تَلَـقِّي الدِّين والهُدَى، ما دامُوا مَعَهُ.

وقولُه: « **وَيْلٌ للعَرب من شَرٍّ قَد اقترَبَ، فُـتِحَ اليَومَ مِن رَدْم يَأْجوجَ ومَأجوجَ هَكَذَا** »(٣)، وعَقَدَ تِسعينَ، يُنَـبِّه العَـرَب لِخطَر فِتنَة المَغول، واللَّهُ أعْلَمُ. ولذلكَ شَواهِدُ كَثيرَةٌ لا نُطيلُ باستِقصائِها مِن كُـتُبِ السنَّـة.

ومِن الثاني، ما خَصَّ به بَعضَ أصْحابِـهِ من البَشَر، فَفي الصحيح عن حُذَيفَـةَ قال: كانَ النَّاسُ يَسألونَ رَسولَ اللَّهِ عَن الخير، وكُنتُ أسألُه عَن الشَّرِّ مَخافَـةَ أنْ يُدرِكَني، فَقلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّا كُنَّا في جاهليَّـةٍ وَشَرٍّ، فَجاءَنا اللَّهُ بِهَذا الخَير، فَـهَلْ بَعدَ هَذا الخيرِ مِن شَرٍّ؟ قال: « **نَعَم** ». قلتُ: وهَل بَعدَ ذلكَ الشَّرِّ مِن خَيرٍ؟ قال: « **نَعَم وفيهِ دَخَنٌ** ». قلتُ: ومَا دَخَنُهُ؟ قالَ: « **قَومٌ يَهدونَ بِغَيرِ هَدْيِي، تَعرفُ مِنهم وتُنْكِرُ** ». قلتُ: فَهل بَعد ذلكَ الخَير من شَرٍّ؟ قالَ: « **نَعَمْ، دُعاةٌ على أَبْوابِ جَهَنَّمَ، مَن أجابَهم إلَيها قَذَفوهُ فيها** ». قُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، صِفْهُم لَنا، قَالَ: « **هُم مِن جِلْدَتِـنَا ويَتَـكَلَّمونَ بِألسنَتِنا** ». قلتُ: فَما تَأمُـرُني إنْ أدرَكَني ذَلكَ؟

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في المسند (٧٠٢٠) بترقيم مؤسسة الرسالة وتحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي، ح (١٢١٨).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠).

قَالَ: « **تَلزَمُ جَماعَةَ المُسلمينَ وإمامَهُمْ** ». قلتُ: فَإن لَم يَكن لَهم جَماعَةٌ؟ قَالَ: « **فاعتَزِل تلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، ولَو أنْ تَعَضَّ بِأصل شَجَرَةٍ حتَّى يُدْرِكَكَ المَوتُ وأنتَ عَلى ذَلكَ** »[1].

ولَمَّا سأَلَ عُمرُ بن الخَطَّاب أهْلَ مَجلِسِهِ: أيُّكُم يَحفَظ قَولَ رَسولِ اللَّه في الفِتنَـة التي تَموج مَوْجَ البَحرِ؟ قَال لَه حُذَيفَةُ: أنا يا أميرَ المُؤمنينَ، فقالَ لَهُ : إنَّكَ عَلَيْـهِ - أي: عَلى رَسول اللَّهِ ﷺ - لَجَريءٌ.

وقالَ لَه حذيفةُ: إنَّ بَـيْنَـكَ وبَينَـهَا بابًا مُغْلَقًا. قالَ عُمَر: يُكْسَرُ أم يُفتَحُ؟ قَال: يُكْسَرُ. قالَ عُمَر: إذن لا يُغلَقُ أبَـدًا. فَلَمَّا رَوى حُذَيفَةُ هَذا بَعدَ قَـتْلِ عُمَرَ، سَألوه عن الباب فقالَ: هو عُمَرُ، فَقال لَه: أكانَ عُمَرُ يَعلم البَابَ؟ قالَ: نَعَم، كَما يَعلم أن دونَ غَدٍ لَيْـلـة، وذلكَ أنّـي حَدَّثتُه حديثًا لَيسَ بِالأغاليطِ.

لَمحة من تاريخ الإرشاد النبوي:

يَبتَدئُ تَاريخُ الإرشادِ النَّبَويِّ بابـتِداءِ الـبَعثَة الـنَّبويَّة، إذ لَم يَكن رَسول اللَّهِ ﷺ واعظًا ولا خَطيبًا. قَال تَعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقَد كانَت البعثَـةُ في رَمضانَ سَنَـة ستمائة وَعَشْرٍ من مَولِـدِ المَسيحِ، وهي سَنةُ ثلاثَ عَشرَةَ قَبلَ الهِجرة. فَدَعا وأرشَدَ خَديجَةَ - رَضيَ اللَّهُ عنها - ثم دَعا النَّاسَ، فآمَنَ أبو بَكرٍ، وعَليٌّ، وسَعدُ بن أبي وَقَّاص. فَـكان جملةُ مَن تَلقَّوْا فِي مُدَّةِ شَهرٍ: نَيفًا وخَمسينَ، بَينَ رِجالٍ ونِساءٍ.

وكانَت الدَّعوةُ والإرْشادُ في سرٍّ وخَفاءٍ، ثمَّ أمَـرَ اللَّـهُ رَسولَهُ بإعلان دَعوتِـهِ فَأنْـزَلَ عَليهِ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤]، وذلكَ بَعدَ ثلاثِ سنينَ من البعثَـةِ، فَجهَـرَ رَسولُ اللَّـهِ ﷺ بقراءَة القُرآنِ. وأوَّلُ مَن جَهَرَ بالقرآن بَعدَ رَسولِ اللَّه: عَبدُ اللَّهِ بنُ مَسعودٍ، فَأظهَرتْ قُـرَيشُ مُناوأةَ دَعوةِ الإسلام. وكانَ أبو طالبٍ يَذودُ قُـرَيشًا عن أذَى الرَّسولِ والمُسلمينَ. ولَحِقَ أذَى قُـرَيشٍ المُستَضعفينَ من المُؤمِنينَ، فَأذِنَ النَّبي ﷺ لَهم بالهِجرةِ إلى الحَبَـشَةِ، سَنَـةَ خَمسٍ قَبلَ الهجرةِ.

ثمَّ ابتدأَ الإسلامُ يَفشو، فَلَمَّا رَأتْ قُرَيشُ ذلكَ، وَرَأوا تَعَـرُّضَ أبي طالبٍ لَهم في

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣) بترقيم ديب البغا.

أن يَنالوا رَسولَ اللَّـهِ بِسوءٍ ائتَمروا بَينَهم، وتَعاقَدوا على قَطيعَةِ بَني هاشمٍ وبَني المُطَّلب، وكَتَبوا في ذلك كِتابًا وعَلَّقوهُ في بَطْنِ الكَعبة وهو المُسَمَّى : بِصحيفَة القَطيعَةِ.

وماتَ أبو طالبٍ سنةَ ثلاثٍ قبلَ الهجرةِ، فَعَـرَضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ نَفسَهُ عَلى بَعض قبائلِ العَرَبِ، لِيَنصروهُ من قُريش، حتَّى يُبلِّغَ أمرَ اللَّـهِ، فَابتَدَأ بِثقيفٍ في بَلدِهِم الطَّائف، فَلَم يَجد عندهم خيرًا، ثُمَّ عَرَضَ نَفسَهُ على كندةَ وكَلبٍ وبَني حَنيفَـةَ وبني عامرٍ، حينَ يَلقاهم في مَوسمِ الحَجِّ، فَكُلُّـهُمْ هابوا قُريشًا.

وعَرَضَ نَفسَهُ على نَفَرٍ من سادةِ العَربِ مِثل: الأخنَس بنِ شريقٍ الثقفيِّ، وسُهَيل ابن عَمرٍو العامريِّ، والمُطعم بن عَديٍّ من أهل مَكةَ، وسُويدِ بن الصَّامت من أهْل يَثربَ، إلى أنْ قَـيَّـضَ اللَّـهُ لِنُصْرَةِ الرَّسولِ أهلَ المَدينةِ، يَثربَ، حينَ لقيَ رَسولُ اللَّـهِ ﷺ في مَوسم سَنَـةِ ثَلاثٍ قبلَ الهِجرة، ستَّـةَ رجالٍ مِن الخَزرَجِ، والأوْس، فَدعاهم وأرْشَدَهُم، فَقَبلوا وَوَعَدوا بإبلاغ قَومِهم.

وفي العامِ القابِل، أيْ: عَامَ اثنَـيْن قَبلَ الهجرة، وفي مَوسم الحَجِّ، قَدِمَ اثنَا عَشَرَ رَجلًا، مِن الخَزرَج والأوْسِ وَأحلافِـهِم. فَـلَقوا الرَّسولَ بالعَقبَة، وبايَعوهُ عَلى الإسْلامِ، وأرْسَل مَعهم مُصعَبَ بنَ عُمَيرٍ العَبدَريَّ، القُرَشِيَّ، لِـيُقرِئَهم القرآنَ، ويُفَـقِّهَهم في الدِّينِ، فَكانَ مُصعَبٌ يُلقَّبُ في المَدينَةِ بالمُقْرِئ. وكانَ ذلكَ مَبدَأُ بَثِّ الإرشادِ في الأماكنِ النَّائيَـةِ عَن المُرشِدِ الأكبرِ.

وَتُسمَّى هذه البيعةُ « بَيعَةَ العَقَبَـةِ الأولَى ». ثمَّ كانَتِ « بَيعَةُ العَقَبَـة الثانية » في العام المُوالي، عام واحدٍ قبلَ الهِجرَةِ، في موسم الحَجِّ. وجُملَة مَن شَهدَ هذهِ البَيعَةَ الثانيةَ ثلاثَـةٌ وسبعونَ رجلًا وامْرأتانِ.

وأذِنَ اللَّـهُ لِـرَسولِـهِ والمُؤمنينَ بالهِجرَةِ إلى المَدينَةِ. وبِالهجرةِ أصبَـحَ الإرشادُ خالِصًا مِن تَنكيـدِ الأعْداءِ، إلَّا مَا بقيَ مِن مَكر المُنافقينَ واليَهودِ بالمَدينَـةِ.

وأقيمَ للإرشادِ مَسجِدُ قُباء، ومَسجدُ بني سالِمٍ، ثمَّ مَسجدُ رَسول اللَّهِ ﷺ. وزادَ في الإرْشادِ طريق الخَطابَـةِ.

وأذِنَ اللَّهُ لِرسولِهِ في الدِّفاع عَن الدّين، لِـيَدفعَ عَنه تَهديدَ الأعداء من أهل مَكَّةَ وأحلافِهم، فَقالَ تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩]. إلى قَولِه: ﴿ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

فَبَثَّ رَسولُ اللَّهِ ﷺ السَّرايا في الجِهاتِ المُجاوِرَةِ، وقَمَعَ حدَّةَ قُريشٍ بِيَومِ بَدرٍ.

وصارَ الإسلامُ يَنمي يَومًا فَيومًا، والأمْنُ يَـتَّسع مَكانًا بَعدَ مَكانٍ، والإرشاد يَشيعُ تَبعًا لذلكَ النَّماء والاتِّساعِ، حتَّى فُتِحت مَكَّـةُ في رَمضانَ سَنَـةَ ثَمانٍ من الهِجرَةِ، وخطبَ رَسولُ اللَّه ﷺ، فأرشَدَ في المَسجد الحَرامِ، فَعادَ الإرشادُ صادرًا مِن مَنبَعِـهِ الأوَّل.

وتَسامَعت العربُ بِفَتح مَكَّـةَ وانْهزام قُريشٍ، وكانوا في نَظَرِ العَرب أعظَمَ من أن يُهزَمُوا، فَعظُمَ أمرُ الإسلام في أنْفُسِهم، فَانشرَحَت صدورٌ كانت في حَرجِ التَّردُّدِ في أمْرِ اتِّباعِ الإسلام، وسُقِطَ في أيْدي قَومٍ أعماهم التعصُّبُ والمُكابَـرَة، فَانثالَت قبائلُ العَـرَب بَعدَ الفَتح ﴿ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ [النصر: ٢]، ويَنقَلبُ ماءُ ضَمائِرهم عَذبًا، وكانَ أجاجًا.

وبَعثَ رَسولُ اللَّه ﷺ خيرَةَ أصحابِهِ إلَى جِهاتِ العَـرَبِ مُعَلِّمينَ ومُرشِدينَ، فَبعَثَ عليًّا إلى اليَمَنِ، ومُعاذَ بنَ جَبَلٍ، وبَعثَ أبا عُبيدَةَ إلى أهل نَجرانَ، وغَيرَ هؤلاءِ مِمَّن مَضَى ذِكرُهُمْ، فَعَمَّ الإرشادُ بلادَ العَرَبِ، وتَـهَذَّبَت أخلاقُهم، وعَلموا أنَّـهم كانوا في عَمايَـةٍ، فَأصْبَحوا في استِنَارَةٍ.

ولَقد أعْجِبَ أبو ذُؤَيبٍ الهُذَليُّ إذْ عَبَّـرَ عَن حالِ تَغييرِ أخلاقِهم بالإسلام في مَعرِضِ الغَـزَلِ:

فَـلَيسَ كَـعهـد الـدَّارِ يـا أمَّ مـالـكٍ ... ولَـكن أحَـاطَت بالـرِّقابِ السَّلاسِـلُ

وعـادَ الفَـتى كَالـكَهْل لَـيسَ بقائـلٍ ... سَـرَى العَدلُ قَـولًا فَاستَراحَ العَوَاذِلُ

ثُمَّ جَاءَت وُفودُ العَـرَبِ مُطيعينَ مُستَرشِدينَ، وحَصَلَ مِن لِقاء عُظمَائِهم ومُحاوراتِهم بَينَـهُم، بِمَحْضَرِ الرَّسول ﷺ، وأصحابِـهِ الأوَّلينَ، رشدٌ كَثيرٌ، وعِلمٌ غَزيرٌ، وتَوافقٌ وتَقارُبٌ، عَقِبَ ما كانَ مِن تَنافرٍ وتَباعُدٍ.

وتَهَـيَّـأَ الرَّسولُ - عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - إلى أكبَرِ إرشادٍ، بأنْ يَحضُرَ بنفسِهِ في مَوسم الحَجِّ، فَجَهَّزَ قبلَ ذلكَ بعامٍ، أبا بَكرٍ ﷺ لِيَحُجَّ بالنَّاس سَنَـةَ تسعٍ، وأرادَ أنْ يُطَـهِّـرَ ذلك المَوسمَ من بَـقايَا المُشركينَ، ويُنَـزِّهَ المسجدَ الحَرامَ مِن آثارِهم، فَأمَـرَ عَليًّا أنْ يُناديَ مَع أبي بَـكرٍ: أن لا يَحُجَّ بعدَ العام مُشركٌ، ولَا يَطوفَ بالبيتِ عُريانٌ. ونَـزَلَ قَولَه تَعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٧]، وأعلَمَ النَّاسَ بِأنَّـهُ قادِمٌ في الحَجِّ في العام القابلِ.

وحَضَرَ الرَّسولُ ﷺ بنَفسه إلَى الحَجِّ سَنَـةَ عَشرٍ، فَخَـرَجَ من المدينَـةِ في شَهر ذي القَعْدَةِ، وتَوارَدت رُكْبانُ العَرَبِ مِن كلِّ حَدْبٍ، فَـكانَ جُملَـةُ مَن حَضَرَ مَعهُ تلكَ الحَجَّةَ نَحوَ الثمانينَ ألْفًا، وقيلَ: أكثرُ. وقيل: أقلُّ. وبثَّ فيهم إرشادًا عظيمًا، وأجمَعُهُ ما تَضمَّنتهُ خطبَـةُ حَجَّةِ الوداعِ التي هي أطولُ خُطبِـهِ. ونَزلَ قولُهُ تَعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وَرَجعَ الرسولُ ﷺ إلى المَدينَـة، فَبقيَ يَـنصَحُ الأمَّـةَ، ويُرشِدُ إلى الخَيرِ.

وأحسبُ أنَّ آخرَ إرشادٍ حُفِظَ عَنه ﷺ ما رُويَ في الصَّحيح عَن العِرباض بنِ ساريَـةَ، فقال: وَعظَـنَا رَسولُ اللَّه مَوعظةً وَجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَت مِنها العُيونُ، فَقلنَـا: يَا رَسولَ اللَّـهِ، كأنَّـها مَوعظة مُوَدِّعٍ فأوصنا. قال: « **أوصيكم بتقوى اللَّه ﷻ والسمعِ والطَّاعَةِ، فإنَّهُ مَن يَعشْ فَسَيرى اختلافًا كثيرًا، فَعَليكم بِسُنَّـتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدين، عَضُّوا عَليها بالنَّـواجذ. وإيَّاكُم ومُحدَثات الأمورِ، فَإنَّ كلَّ بدعَةٍ ضَلالة** »[(١)].

وفي روايةٍ عن أنسِ بن مالكٍ أنَّ آخرَ ما أوصى به رسولُ اللَّـهِ ﷺ، الصلاةُ والعَبيدُ. وذلكَ تَمامُ الإرشاد. وقَد قال ﷺ: « **تَركتُ فِيكُم ما إنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَن تَضِلُّوا: كتابَ اللَّـهِ وسُنَّتي** »[(٢)]، وفي بَـقائهما دوامُ الإرشاد للعصور والأجْيالِ.

والحمد للَّه الذي هدانا لهذا، وما كنَّا لنهتديَ لَولا أن هَدانا اللَّـهُ.

* * *
* *
*

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٠٦٧) طبعة دار الفكر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠ / ١١٤) (٢٠٨٣٤).

وفودُ العرَبِ في الحَضرة النبَويَّة (١)[١]

إنَّ أحسنَ طريقةٍ تُدَوَّنُ بها السيرة النبويَّة أن يُصاغَ تَحريرها على أسلوبِ الجَمع بيـنَ ذِكرِ الحوادث واستِخلاصِ ما فيه دلالَـةٌ على الأخلاق النبويَّة المحمديَّة الكاملةِ، فَتبـرُزَ السِّيـرَة بذلك كأنَّها سَبيكَـةٌ ذهبيَّـةٌ مُرَصَّعَـةٌ بِمختَلف الجواهِرِ النفيسةِ؛ إذْ لَيس بكافٍ في تعرُّف فَضائل النبي ﷺ أنْ يُلَـقِّنها المسلمون بطريقة التقرير والحكاية، فَيُـقال: كانَ ﷺ بحال كذا وبحالِ كذا، بل الأفْضَل أن يُمزَجَ ذلكَ بشواهِدِهِ ودلائلهِ، حتَّى يكتسبَ الـمُطَّلع عليها خبرَةً تُشبه الخَبرَةَ الحاصلة عن المعاينة.

ولا شَكَّ أنَّ العلمَ بشمائل الرسول مـمَّـا يَلتحقُ بالعقائد. فلذلكَ، فَـنَحن كَما طُولِبنا بأن نَعرفَ صفات اللّـه بأدلَّتها، كذلكَ يكونُ عِلمنا بشمائل الرسول بدلائلها. ولقد كنت أنْصَح لمن يَرتادون دروسي في مناسباتٍ فأقول لهم: إنَّ الاطلاعَ على الحديث والسِّيَـر مـمَّـا يَزيد العالِـمَ به يقينًا بِعَظَمة هذا الرسول الكريم، والاطلاع على الأوفر فالأوفر من كمالاتِـهِ يَـفوق ما يكتسبه المتلقي لِـجُـمَلِ صفاته بطريقة الجمع والسردِ، وتَحصل من ذلكَ غايَـةٌ شريفة وهيَ زيادَة تَـمَـكُّن حبِّ النبيِّ في نفس المؤمن.

فَإذا كانَ الصَّحابَـة قد فازوا بمشاهدة الأنوار النبويَّة التي اخترقت قلوبَهم في مُتَجَدِّدِ الأيَّام، طويلِها وقَصيـرِها، فَنالوا تلك المزيَّـةَ الثابتة لهم بحديث: « **لَو أنْـفَـقَ أَحدكم مثل أُحُدٍ ذَهَـبًا ما بلغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَـهِ** »[٢]، فالـمُطَّلع على الحديث والسيرة الصحيحة يشاركهم في سماع أخبار تلك المشاهدات تَفصيلًا في مواقع مُتَـعَدِّدَة؛ إذ في كل حالٍ من أحوال الرسول ﷺ دلائلُ صادقةٌ على نُـبُـوَّته، واصطفائِه وتَـأييده من عند اللّـه تعالى.

ولأنَّ في استمطار الشيم النبويَّة الزكيَّة مِن خلال بُروقها الباهرة التي ظهرت في مَجامع الوُفودِ دَليلًا بَـيِّـنًا عَلى أنَّ العَـرَبَ قد عَلموا تلك المنزلةَ الساميةَ النبوية، وشمائِلها الطاهرة، بتواترِالأخبارِ الـمُفيدِ للقطع، فَحَصَلَ التَّماثل بَيـنَ بلوغ دعوة الرسول وبَيـنَ شُيوعِ فَضائلهِ؛ لأنَّ الوفود تشتمل غالبًا على عددٍ يَستحيل تواطؤهم على الكذبِ، فإخبارهم عن

---

(١) وردَ المقال في مجلة الهداية، العدد (٤) السنة (٥) مارس (١٩٧٨م).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلًا (٣٤٧٠) بترقيم ديب البغا، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة ﵃، رقم (٢٥٤٠).

مشاهداتهم وسَماعِهم يُـفيدُ اليقينَ.

ولأنَّهم لـمَّـا كانوا مُوَجَّهينَ من أقوامهم، ومَـجعولينَ عَيبَـةَ أسرارهم، ومُستَودَعَ ثِقَتهم، يَكون ما يُبَـلِّغونَه إليهم من الأخبار هم أشَدُّ به ثِقَةً ويَقينًا مـمـا يبلغه أيُّ مُـبَـلِّغٍ آخرَ، كما قالَ الفقهاء في العَدل الذي يُوَجِّهُه القاضي نائبًا عَنه: إنَّه لا مَطعنَ فيه، وأصْلُه من الحديث قوله ﷺ: « واغْدُ يا أُنَـيسُ على زَوجَةِ هذا، فَإن اعتَـرَفَت فَارجُـمْها »[1].

ولذلكَ لَم تَـتَـرَيَّثْ قبائلُ العَرب عن الدخول في الإسلام بعد عَودَة وُفودِها إليها.

فَبذلكَ يَتَـبَـيَّـن أنَّ شمائل الرسول وخصالَه قَد اخترقت في سائر الآذان بوجهٍ لا يَقبَل شكًّا. ومن شَواهد ذلكَ ما وَرَدَ في الصَّحيح: أنَّ عُبَيد اللَّـه بن عديٍّ بن الخِيار قال لعثمان ابن عفان ﷺ في كلام جَرى بَينَهما: « وقَد صحبتُ رَسولَ اللَّـهِ، ورَأيتُ هَدْيَـهُ ».

فَقال له عثمان: « أأدركتَ رَسولَ اللَّـه؟ ».

قال عبيد اللَّـه: « لا، ولكن خَلُصَ إليَّ من عِلمِهِ ما يخلص إلى العَذراء في خِدْرِهَا ».

علَى أنَّ يُمنَ هذه الوفود قد بَدا جَليًّـا فيما نَشأ عَنها من دخول قبائلَ في الإسلام، بِواسطة ما أبْـلَغَهم وفودُهم من تِعدادِ فَضائلهِ. ولَقد أفصح عن ذلك عباسُ بن مرادس ﷺ، يَشكر وَفدَ بَني سليم، ويُـخَـلِّـدُ أسماءهم، بِقَوله:

لا وَفـدَ كالـوَفد الأُلـى عـقـدوا لَنا — سبَـبًـا بِـحَبـل مُـحَـمَّـدٍ لا يُـقطَـع

وَفْــدٌ أَبـو قــطـنٍ حُـزابَــةُ مـنـهـمُ — وأبـو الغيـوثِ وواسِـعٌ والـمُـقـنـع

ما يَـتَجَلَّى في لقاء الوفودِ من عظيم الصفات النبوية:

من أكبَر مَظاهر أصالة الرأي، وأبْهَر دلائل عظَمَة النفس، وعلوِّ الهمَّة، وكَمال الـخَلق والخُـلق، اقتحام المَجامع، ومُجاوبَـة الـخُطباء، ومحاورَة هناتِ السائلين، وإقناع شُبَهِ الـمُنتَقدين، وإسكان غَيظِ النَّاقمين، ومُقابلة كلٍّ بما يَستَحقُّه ويَستأهله.

وقَد كان لقاءُ الوُفود عند العرب من أشد مآزِق أهل الرأي، وأدقِّ مَعايير الإصابة والبداهة، فَلذلكَ قال لَبيد مُفتخرًا:

إنَّـا إذا الـتَـقَــتِ المجامع لَـم يــزل — مـنـا لِــزازُ عظيمة جَــشَّـامُــهـا

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب الاعتراف بالزنى (٦٤٤٠)، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩٧، ١٦٩٨).

ثم قال:

وكَثيرةٍ غُرباؤُها مَجهولةٍ تُرجَى نَوافِلُها ويُخْشَى ذامُها
أنكرتُ باطلَها وَبُؤتُ بحقِّها عندي ولَم يَفْخر عَليَّ كِرَامُهَا

ذلكَ أنَّ اجتماع طائفةٍ من قبيلةٍ تَجمعها جوامع كثيرةٌ، في الأخلاق والعَقائد والعادات، يُكسِبُ جميعَ أفراد تلكَ الطائفة قوةً في جميع الخلال النفسية التي تَنطوي عليها ضمائر أولئك الأفراد، بِحَيث تَتَألَّف من تشاركهم في ذلك الاجتماع قوًى نفسيَّة، مِثلما تَتَألَّف من اتِّصالِ بَعضهم ببعضٍ قوَّةٌ ذاتيَّة، وهي في الأمرين قوة الكثرة والمضاعفة، فإذا كان اجتماع أولئك لأجل غَرضٍ مُعَيَّنٍ زادت قواهم النفسية اتحادًا، للتسلط على نوال الغرض الذي لأجله اجتمعوا، وهذا مَغزى مَجيء الوفود في شتَّى الأغراض.

ومنَ المَعروف أن قَد كان في نفوس سائر العرب تُجاهَ دعوة الإسلام تجافٍ ونُفورٌ وبُغضَة وخلافٌ وحَسَدٌ، على تفاوتٍ بَينَهم في ذلك. فإذا كان ذلك مستقرًّا في نفس كل واحد منهم، وكانَ دعاةُ الإسلام واحدًا منهم أشدَّ شيءٍ على داعيةٍ، فما ظنك بموقف الداعي إذا كان يدعو عددًا ملتئمًا من خيرة قبائلهم، من سادتهم وكُبَرائِهم وأولي الذبِّ عَن حَوزَتِهم، وأهل الفطنة منهم، الذين أكبرُ مُناهُم أن يُقضَى على أيديهم نَصرُ قَومهم ودِينهم، وأن يَرجِعوا إلى أوْطانِهم مَملوئي الحقائب، بنوال الرغائب. وإنَّكَ لَتجد الواحدَ من أهل الرأي قد يَتَهَيَّأُ للنَّظر الصحيح وتَتَأهَّب نفسه لقبول الحجة، فإذا اقتحم بين جماعة من قومه ووجدهم يَأبون الخضوع للحق، أخذته العزة القومية، وثَقُلت عَلَيه مُخالفة بَقيَّة رفقائه من جهةٍ، وخَفَّ عَلَيه، من جهةٍ أخرى، نَبْذُ الحق والحُجَّة، لحلول امتناع العزة والحنين إلى الإلْف القَديم مَحَلَّ الاعتراف بالحق والاقتراب من خَلْع المَألوف من أجل ذلك التأثير الحاصل من توجيه جماعة لإقناع ممتنع، أو إرضاء مُغضَبٍ، أو استصفاح حَنِقٍ، أشَدّ وقعًا من تأثير تَوَجه الواحد في ذلك الغرض ما كان هذا الواحد واضح المقدرة، أصيل الرأي، دَمِثَ الأخلاق، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ [يس: ١٤].

وحُضور الوفود لدى الرسول ﷺ يكون لِغَرضَيْن، وفي حالتَين:

فَتارَةً يكون لأجل المناظرة والمُحاجَّة والمشاكسة، مما يَؤُول إلى مناقشة في حق مزعومٍ، أو تقاضٍ لطلبٍ.

وتارَةً يكون لأجل تلقِّي الدين، أو تَـعَـرُّف أحكامه.

وفي كلتا الحالتَـيْـن يُوجَد من بين الوافدين أفهامٌ ذكيَّة، ونفوس أبيَّـة، تَحاجُّ للذبِّ عن بلدٍ أو دينٍ أو مالٍ، أو تساءل لمعرفة كُـنْه ما دُعيت إليه من التزام الإسلام وأحكامه، أو تقترح وتدلي بمطالب وتَرخيصاتٍ.

وتوجد أيضًا جفاةٌ تَنفرُ من صَفير الصافر، ولا تَعرف مغفرة غافرٍ، فَـيَجد الرَّسول نفوسًا مختلفة المدارك، مُشتَبِكَةَ المسالك، تَـتَجَشَّم تَركَ ما ألِفَتْ وتَتَقَحَّم اعتيادَ ما لم تكن عَرَفَت، وتَـتَـفَهَّم ما لم يَسبق لها تفهم مثله؛ لِـيُنذرَ قومًا ما أتاهم من نذير قبلِهِ.

إذن فملاقاة الرسول للوفود على اختلاف قيم رجالها وغاياتها، يَـجمع كلَّ مصاعب ما يَعرِض للحكماء والعظـماء والفُصَحاء في ملاقاة الرجال، ومُناضَلَة الأبطال، ومُـجاوبَة الحوار والـمَقال، في حالةٍ هي أجدَرُ بأن تَـكونَ مِصداق قول أبي الطيِّب:

وكـأنَّـه مـا لا تَـشـاء عُـداتُـه ... مُـتَـمَـثِّـلًا لـوفُـودِه مـا شـاؤوا

فَلا جَرمَ أن يكون علم ذلكَ مِن أنفذ الكُوى التي يَطَّلِع منها الـمُؤْمن عَلى فَضائلِ هذا الرسول الكريم، ويُشاهِدُ منها دلائلَ نبويَّة، وإحاطَـةَ العناية الربانيَّـة به فَيلتحقُ بعضَ الالتحاق بالذين شاهدوا تلك المقامات عن عِيانٍ.

الوفود:

الوَفد: اسمُ جَمعٍ لوافدٍ، مثل رَكب لراكب، وصَحْب لصاحبٍ.

والوافِد هو رَسول القَوم، يَبعثونَه في أمرِهِمْ ليأتيهم بجليَّةٍ فيه. وسُمِّيَ وافدًا لأنه يتقدَّم القوم ثم يلحقون به. كان هذا في غالب الأحوال في سفارات الحروب والمصالحات والشَّفاعات، ثم أطلق على رسول القوم في مهمٍّ بدون انتظار لحاقهم به، بعلاقة الإطلاق عن التقييد.

وقَد قالت سَفَّانَـةُ بنت حاتم الطائي حين أُتي بها في السبي: « يا رسولَ اللَّـه، هَلَكَ الوالِدُ، وغاب الوافدُ »، تُريدُ غَيْـبَـةَ أخيها عَديٍّ ببلاد الشام، فَلا تَـجد مَن يَـفِدُ لِفدائِها، والشَّفاعة للمَنِّ عليها.

وفي المثل: « إن الشقيَّ وافدُ البَراجم ».

وقَد يُطلق اسم الوَفدِ على الرَّجل الواحد إذا اكتَفوا به عن الجماعةِ.

وقَد كانَ العَربُ يُوفِدونَ للملوك، مثل كِسرى ومُلوك لـخمٍ وملوك غَسَّانَ، كلَّ سَنَـةٍ لِـيُظهروا طاعتهم للملك، ودَوام الاتصال به.

ويوفدون لقضاء حاجاتهم، والوَساطَة في الصلح، أو تَعيين وَقت الحرب.

وقَد أوفَدَ بَنو أسدٍ عَشرَةً من شيوخهم إلى امرئ القيس، للتكلُّم مَعَه في دِيَـة أبيه حُجْرٍ، الذي قتله بنو أسدٍ.

ووَفدُ العرب إلى الحضرة النبويَّة جَرى على سَنَنِهم الـمَعروف، فكانوا يوفدون في أغراض شتَّى، وأهمُّها: الوِفادَة للدخول في الإسلام أو لتعرف أحكامه.

وكان المسلمون منهم يُوفِدونَ كلَّ سَنَـةٍ مَن يُبَـلِّغهم ما حدث في الإسلام من الأحكام. يَدلُّ لذلك قول وفد عبد القيس لرسول اللَّـه ﷺ: « إنَّ بَينَـنَا وبَينَكَ كُفَّار مُضر، وإنَّا لا نَصل إليك إلا في شهر حرامٍ، فَمُرنا بِجُمَلٍ من الأمر نَأخذُ بها، ونَدعو إليها مَن وَراءنَا ».

ويَدلُّ لذلك أيضًا: ما في الصحيح عن أبي موسى الأشعريِّ أنَّه كان بالمدينة مع وَفد الأشعريين حين وَفَدَت بنو تميمٍ، مَع أنَّ الأشعريين وفدوا سَنة (٧)، وبَنو تَـميم وَفدت سنَـةَ (٩)، فدلَّنا ذلك على أنهم كانوا يَـفدونَ كلَّ سنةٍ.

ويدلُّ لذلك أيضًا وَصيَّـة رسول اللَّـه ﷺ عند وفاته: « **وأجيزوا الوَفدَ كما كنتُ أجيزُهُمْ** »[1]، فَدَلَّ على أنَّـهم سيأتون لخليفتِه.

وبالتنبيه لهذا تَنجلي عدة إشكالاتٍ وَقَعت لشُرَّاح الحديث، واضطراباتٍ وَقَعت لِبَعض أهل السِّيَر في ترتيب الوفودِ.

وُرودُ الوفود:

مُعظم الوفود وفدوا بعدَ الهجرة، وقَد وَفَد بعضٌ منهم قبل الهجرة. وأكثرُ وُرودِ الوفود كانت في سنة تسعٍ، ولذلكَ سُمِّـيَت سَنَـةَ الوفودِ.

وذلكَ أنَّ العربَ كانوا يَـتَـرَبَّصونَ بإسلامهم ما يظهر من أمر قريش مع المسلمين؛ إذ كانت قريشٌ قدوةَ العرب وإمامَهم، وسَدَنَـةَ كَعبَـتهم، لا يُنكِرُ فَضْلَهم عَلى القبائل أحَدٌ من العَـرَبِ. وحَسبكَ من ذلك قول الشاعر في فَخره على بقيَّـة العَرب:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب جوائز الوفد (٢٨٨٨) بترقيم ديب البغا، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي (١٦٣٧) كلاهما بلفظ: « بنحو ما كنت أجيزهم ».

فـأمـا الناس مـا حـاشـا قـريشًـا فـإنَّـا نَـحـن أفْـضـلـهـم فِـعـالا

فَلما فُتِحت مكة، ودانَت قريش بالإسلام، عَرفت العرب أنَّ أمرَ الدين قد ظهر، وأنَّهم لا طاقَةَ لهم بعداوته ولا بِحَربه، فَدَخلوا في الدين أفواجًا. وذلكَ ما وَعدَ اللَّـه رسوله بقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣].

فَكان رسول اللَّـه بعد فتح مكة ودخول العرب في الإسلام أفواجًا يقول في سجوده أو ركوعه: « **سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدكَ، اللهمَّ اغفرْ لي** »، يَـتَأوَّلُ القرآنَ[١] كما ورد في الصحيح.

إجازة الوَفد:

إجازَةُ الوَفد عَطيَّـةٌ يعطيها الموفود إليه لرجال الوفد، وتُسَمَّى أيضًا: الجائزة، وتُسمَّى: الحِباءَ.

ويُـقالُ: أجازَه وجَوَّزَهُ.

وهي من توابع سنَّـة إكرام الضيف.

فَفي حديث الموطأ أنَّ رَسولَ اللَّـه ﷺ قال: « **مَن كانَ يُؤمن باللَّـه واليَوم الآخر فَليُكرمْ ضَيفَه جائِزتَه؛ يومٌ وليلَة. والضِّيافة ثَلاثَة أيامٍ** »[٢].

قال علماؤنا: يَدخل في إجازة الوَفد ضيافة الرسل وإقطاعَات الأعراب ورُسومهم.

وقَد كان من عادة ملوكِ العَرب إجازَةُ الوفود، وكانت لهم عطايا معتادةٌ، بَعضها لعامة الوفد، وبَعضها لسادته وتُسَمَّى: الحِباء.

وقَد كان النعمان بن المنذر يَحْبُو الوُفودَ، وكان مِـمَّن يَـفد عليه في وَفد عبس رجل اسمه شقيق، فَمرض عنده ومات، فَلـمَّا حَبَا النعمان الوفدَ أمَـرَ أن يوضع حباء شقيقٍ على قَـبْره، ثم يرسلَ بعد ذلك إلى أهله، فَمَدَحه النابغة بقوله:

وأبْـقَيـت للـعبسـيِّ فَـضـلًا ونـعمـة ومَـحـمـدة مـن بـاقـيات المحـامـد

---

(١) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود (٧٨٤) بترقيم ديب البغا، وأخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب من كان يؤمن باللَّـه واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١٥٤٣) بترقيم ديب البغا.

حِبَاءُ شَقيقٍ فَوقَ أحجار قَبره وما كان يُحبى قَبلَه قَبرُ وافد
أتى أهله منه حباءٌ ونعمةٌ ورُبَّ امرئٍ يَسعى لآخر قاعد

فالقصد من الجائزة إظهارُ كَرامَة الوَفد عندَ الـمَوفود عليه، والتَّلطف للوافد بقطع النظر عن ابتهاج الوفد، وانتفاعِه بذلكَ: فَذلك أمر تابع غير مقصودٍ، ولـذلكَ سَنَّ رسول اللَّـه ﷺ إجازَة الوفود.

وقد أجازهم بجوائز مختلفة، وغالبُ ما ذَكَره أهل السير كونها خمسَ أواق من فضة لكلّ واحد من رجال الوفد، واثنَتَي عَشرة أوقية ونشًّا[١] لرئيسهم، وربما أعطى كل واحد عشر أواقٍ. وأحسبُ أنَّ ذلكَ حينَ كَثُرَ المال. يَدُلُّ لذلكَ: أنَّ بِلالًا لَـمَّا دفع جائزة وَفدِ سَلامان خمس أواقٍ، لكلٍّ واحدٍ منهم، اعتَذرَ لَهم بأنْ لَيسَ عندنا مالٌ اليومَ.

وكان يُزَوِّدُهم مِن التَّمر ما يَكفيهم في طريقهم.

وكانَ مِن الجوائز إعطاء البُرود كسوَةً للوفْدِ.

وكانَ منها إعطاء بعض ما يُنتجُهُ الحِجاز، كالأرَاكِ للاستواك به. وكانَ من الجائزة إعطاء الرواحل لمن هَزَلَت راحلتُه أو ماتت. وكانَ الذي يُبَلِّغُ الجوائزَ بلال بن رباحٍ.

مَنازلُ الوُفود:

مِن حَقِّ الضِّيافَة إنزالُ الضيف. والعَربُ في البادية يُنزلونَ الضيوفَ في بيوتهم. ولكنَّ الوفودَ تَضيق عنهم البيوتُ، ولَهم شُؤونٌ تَستدعي سعَةَ المكان، فَكان رسول اللَّـه ﷺ يُنزلُ الوفودَ في ديار أصحابه غالبًا. أمَّا الوفود التي وَردَت من طرق الغزوات، مثل: وفدِ سليمٍ، ووَفد هوازنَ، كذلك بَعض الوفود، مثلَ: وَفد عامر فَضربوا رحالهم في بقيع الغرقد، ووَفد نَجران، فَإنهم أقاموا في رحالهم، أي: في خيامٍ جَعلوها لأنفسهم، إذ جاؤوا تامي العُدَّة، ووَفد ثقيف ضُربت لهم قبَّةٌ من أدَمٍ حولَ الـمَسجد النبويِّ، وغَير هؤلاء أنزلوا في ديار الصحابة بالمدينة.

وكانَ مَنزل الوفود في الغالب دارَ رَملةَ بنت الحرث[٢]، ويقال: ابنَـةُ الحِراث ، تصحيفًا أو نسبَـةً إلى جَدِّها. وهي من بني النجّار، زوج معاذ بن عفراء، وكانت دارها واسعة وفيها نخلٌ.

---

(١) النشُّ: نصف أوقيةٍ وهو بفتح النون وتشديد الشين المعجمة.

(٢) ورد في أسد الغابة، والبداية والنهاية، والمفصل في تاريخ العرب، وفتح الباري: (رملة بنت الحارث)، يقول الواقدي: (رملة بنت الحدث) بفتح الدالة المهملة بغير الألف قبلها، كذا في الإصابة والطبقات الكبرى لابن سعد.

ونَزلَ بعض الوفود بدار المغيرة بن شعبة، وبَعضهم عند رويفع بن ثابت البلوي، وبَعضهم في دار سَعدِ بن عبادة، وبَعضهم عند المقداد بن الأسود.

القِرَى:

هو إطعام الضيف وافتقاد شؤونه. وكانَ الوُفود يطعمونَ من عند رسول اللّـه ﷺ، إلَّا وفدَ صداء فقد رغب سعد بن عبادة أن ينزلهم عنده ويموِّنهم، وكذلكَ وفد بلي، نَزلوا عند رويفع بن ثابت البَلَويّ، برغبتِهِ. وكان بلال هو الذي يذهب بالطعام منه. وأرسل له رسول اللّـه ﷺ حملًا من تمر يستعين به على ضيافته للوفود غالبًا. وكان خالد بن سعيد بن العاص الواسطة بين الرسول و بين وفد ثقيف.

قبول الوفود و التهيؤ لذلك:

كان الوفود إذا أقبلوا يتلقاهم بعض أصحاب رسول اللّـه ﷺ ممن له مزيد صلة بالقوم. فقد تلقى المغيرة بن شعبة وفد ثقيف.

وتَلـقَّى عمر بن الخطاب وفدَ عبد القيس.

وتلقى رويفع بن ثابت وَفدَ بَلي.

وتَلـقَّى سعد بن عبادة وفدَ صداء.

وتَلـقَّى كعب بن مالك وفد بني كلابٍ.

وتَلـقَّى المقداد بن الأسود وفدَ بهراء.

وقَد يقدم الوفد دون مُتلقٍّ كَوفد عُذرَةَ.

وكانوا إذا دخلوا على رسول اللّـه ﷺ، سَلَّموا عليه بتحيَّة الإسلام، وكان رسول اللّـه يفاتحهم بقوله: « **مَرحبًا بكم وأهلًا وسهلًا** »، أو: « **مرحبًا بالوفد، غَير خَزايَا**[1] **ولا نَدامى** »، إذا لم يسبق تعريفه لهم من القوم مثل وفد عذرة.

وكان الوفود يحيون رسول اللّـه بتحية الإسلام، إلَّا وفدَ ثقيف ووفد عذرة، فإنهم حَيَّوهُ بتحية الجاهلية، وهي عِمْ صباحًا، وهي تحية الملوك، ورسول اللّـه يحييهم بما يجيب به الوفود.

---

(١) خزايا جمع خَزْيان، وندامى هنا جمع نادم على غير قياس نادمون؛ لأنَّ أصل ندامى أنه ندمان بمعنى المنادم، ولكن عدلَ عن القياس لأجل مشاكلة قوله: خزايا، ونظيره ما وقع في حديث سؤال القبر فيقال: لا دريت ولا تليت، أي تلوت.

ويَظهرُ من كلام البخاري أنَّ رسولَ اللّـه كان يَلبَس للوفود أحسن ثيابه. فَقد تَرجَمَ في صحيحه في كتاب الجهاد، وفي كتاب الأدب بباب التجمّل للوفود، وأخرجَ في ذلك حديث عمر بن الخطاب أنَّه رأى حلة من إستبرق لعطارد بن حاجب بن زرارة، وكانت حلة أهداها كسرى إلى حاجب بن زرارة، فقال عمر: يا رسول اللّـه، اشترِ هذه فالبسها للوفود، إذا قدموا عليك إلخ ...

وفي الحديث أنَّ رسول اللّـه كَره شراءها لأجل صفة الحلة، ولم ينكر على عمر قوله: فَالبَسها للوَفدِ.

ويُـحَـرَّرُ، إذ الظاهر أن كلام عمر لا يدل إلا على إشارة بذلك، وبأنه يدل على الجواز، أما كونه سُنَّـة فلم يَظهرْ.

وأخذ البخاري من ذلك أنَّ عُمر عَلِمَ أنَّ التجمُّل للوفد سُنّة، وأن رسول اللّـه ﷺ أقرَّه على كلامِهِ.

وكانَ خطيب رسول اللّـه عند حضور الوفود: ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري. وشاعره في ذلكَ: حَسَّان بن ثابتٍ.

رُجوع الوفود:

كانوا يأتون لوداع رسول اللّـه. وكانَ يُوصيهم أن يُـبَلِّغوا مَن وَراءَهم، كما جَزمَ بذلكَ البخاريُّ في صحيحه أن يُـبَلغوا مَن وَراءَهم.

فَتَرجم بقوله: باب وصاة النبي ﷺ وفود العرب أن يبلِّغوا مَن وَراءَهم.

* * *
* *
*

وفودُ العرَبِ في الحَضرة النبَويَّة (٢)[(١)]

قَبلَ دُخولِ الشَّيخِ في صَميم مَوضوعِهِ، قَدَّم لَه بِعَرض مَوضوعاتٍ مُفيدَةٍ، نَشرناها في العَدَدِ الماضي. وهَذهِ عَناوينُها بَعدَ المَدخل إلَيها: ما يَـتَجَلَّى في لِقاء الوُفودِ مِن عَظيم الصِّفات النَّـبَوِيَّة - الوُفودُ - وُرودُ الوُفودِ - إجازَةُ الوَفْد - مَنازِلُ الوُفود - القِرَى - قَبولُ الوُفود والتَّـهَيُّؤ لذلك - رُجوع الوُفودِ.

وهَذا أوَّلُ حَديثه عَن الوُفودِ ذاتِها:

تَعـدادُ الوفودِ:

الوُفودُ قَبلَ الهِجرة:

لَم يَصحَّ أنَّـهُ وَفَدَ عَلى رَسولِ اللَّـهِ ﷺ قَبلَ الهِجرة غَير وَفدَي الأنْـصار[(٢)]:

الوَفد الأوَّل: في سَنَـةِ اثنَـتَـيْن قَبلَ الهِجرَة، في عَقَبة مِنًى، في مَوسِم الـحَـجِّ. وَفَـدَ اثنا عَشَـرَ رَجُلًا مِن الأوْس والـخَزْرَج، فَبايَعوهُ عَلى الإسلام والشُّروطِ، مثلَ شُروط بَيعَـةِ الـمُؤمِنات، الـمَذكورَةِ في سورَةِ الـمُمتَحِنَـة. وتُسَمَّى هذه البَيعةُ بَيعَةَ العَقَبَـةِ الأولى، وأرسَلَ النبيُّ مَعهم مُصعَبَ بنَ عُمَيرٍ العَبدريَّ؛ لِيُـقرِئَهم القرآنَ، ويَؤُمَّ بهم، إذ كانَ الأوسُ والـخَزرَجُ يَومَـئذٍ يَكـرَهُ بَعضُهُم أن يَـؤُمَّـهُ البَعضُ الآخَرُ.

الثَّاني: وَفدُ الأنصارِ في سَنَـةِ إحدَى قَبلَ الهِجرَة، بالعَقَـبَـةِ أيْـضًا.

وكان الوافِدونَ اثنَـيْن وسَبعينَ رَجُلًا وامرأتَـيْنِ، وبايَعوا عَلى مِثْل بَيعَةِ العَقَـبَـة الأولى، وزِيادَةِ ستَّةِ شُروطٍ، وهيَ:

١ - عَلى أن يُحارِبُوا مَعَـهُ الأَسْـوَدَ والأحْمَـرَ.

٢ - وعلى السَّمع والطَّاعَـةِ في العُسْر واليُـسْرِ.

---

(١) صدر هذا المقال بعنوان: وُفودُ العَرب في الـحَضْرة النَّـبَويَّة، في مجلة الهِدايَـة، العدد الخامس، السنة الخامسة، مايو (١٩٧٨م) (ص ٥١ - ٥٤).

(٢) ذكر بعض أهل السير وفد الداريين قبل الهجرة بمكةَ وهم سبعة رجالٍ من بني الدار بطن من لخم وكانوا نصارى. وفيهم تميم الداري، ولم يسلموا، وأنهم طلبوا من الرسول أن يكتب لهم إقطاعًا من الأرض التي ستفتح له وأنه كتب لهم كتابًا... وذلك لم يثبت. وعلى تقدير ثبوته فليس قصدهم الوفادةَ ولكنهم مرُّوا بمكةَ فالتقوا بالنبي. وإذا سألوه الإقطاع فإنما هو تجربةٌ لانتظار ظهور أمره. وذكروا أيضًا أنه وفد عشرونَ رجلًا بمكةَ من نصارى نجرانَ، وأنهم الذين أُنزلَ فيهم قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ... ﴾ [المائدة: ٨٢]. والصحيح أنَّ ذلكَ نزل فيمن أسلمَ من الحبشة كما قال ابن شهابٍ.

٣ - وعَلى الأثَـرَةِ عَلى أنْـفُسِهم.

٤ - وعَلى أنْ لا يُنازِعوا الأمـرَ أهلَـهُ.

٥ - وعَلى أنْ يَقولوا بِالـحَـقِّ أيْـنَما كانوا.

٦ - وعَلى أنْ لا يَـخافوا في اللَّـهِ لَومَـةَ لائمٍ.

فأمَّا مَن وَردَ رَسول رَجُلٍ أو نَحو ذلكَ مِمَّنْ جاؤوا يَتَـعَرَّفونَ الإسلامَ، فَلا يُعَدُّونَ مِن الوُفود، مثلَ مَـجيءِ أُنَـيْس بن جنادَةَ، أخي أبي ذرٍّ، وافِدًا عَن أخيه لِـيَعْلَـمَ علمَ الـنَّبيِّ ﷺ عندَ مَبعَـثه، وكذلكَ مجَيء الـرَّجُلَـيْن الـمُوفَـدَيْن من أكثَـم بنِ جُـبَيـر، كَما ذُكِرَ ذلكَ في تفسير: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، مِن تَفسير ابن كَثيرٍ.

الوُفود بَعد الهجرة:

أوَّلُ الوفودِ بَعدَ الهِجرَة - على الصَّحيح - وَفدُ نَصارى نَجرانَ في السَّنَـة الثانية على التقريب؛ لأنَّ صدرَ سورة آل عِمرانَ نَزل فيهم إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وسورةُ آلِ عِمران هي ثاني سورةٍ نَزلت بَعدَ الـبَقرة، قبلَ سورة الأنفال التي نَزلَت في واقعة بَدْرٍ. هذا الوَفدُ جاءَ قاصدًا المدينةَ لملاقاة النبيّ، وكانوا ستِّينَ رَجلًا ورَئيسُهم عَبدُ المَسيح، الـمُـلَـقَّب بالعاقِب، وتَحته الأيهَم ويُلَـقَّب بالسيِّد وهو الذي يُدَبِّر أمرَ الوَفد، وفيهم الأسْقُف وهو أبو حارثَة بن عَلقمة البكري. فَـنَزلوا المَدينَـةَ ودَخلوا على رَسولِ اللَّـهِ ﷺ في المَسجد إثرَ صَلاةِ العَصر، وعليهم جُبَبٌ وأرديَـةٌ حِـبَـرَة، مُتَختِّمينَ بِخواتم الذَّهب، فَدَخلوا الـمَسجدَ ومَعهم هَدِيَّـة وهي بُسُطٌ، فيها تَـمـاثيلُ ومُسوحٌ. فَقال لهم رسولُ اللَّـه ﷺ: « **أمَّا البُسُطُ فَلا حاجةَ لي بها** ». وأمَّا الـمُسوحُ فَـأخَذَها، وحَضَرَ وَقتُ صَلاتِهم فَراموا أنْ يُصَلُّوا، ورَامَ المسلمون مَنعَهُم. فَقال لَهم رسول اللَّـه ﷺ: « **دَعوهُمْ** ». فَصَلَّوا إلَى المَشرقِ وقَـرَأ عَليهم القرآنَ، وعَرَضَ عَلَيهم أحكامَ الإسلام.

وتَـكَلَّمَ الحِبْران: العاقِبُ وأبو حارثَة، فَقالَا: نَحن قَد أسْلَمنَا قَبلكَ، فَقال: « **يَمنَعُكُما من الإسلام ادِّعاؤُكم للَّـه ولَدًا، وعِبادَتُـكم الصَّليبَ، وأكْلكم الخِنزيرَ** ».

قالَا: فَمَن أبو عِيسى؟

فَـقَرَأ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ... ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فقالوا: نَحن لا نَرضى باتِّباعِكَ إلَّا أنْ تَـقولَ أنَّ عيسى إلَهٌ.

فَنَزَل قولُه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ... ﴾ [المائدة: ٧٢] الآية.

ثمَّ لَمَّا رَأى رَسولُ اللَّه ﷺ مِنهُم مُكابَرَةً في الإسلام دَعاهم إلَى المُباهَلَةِ، أي: المُلاعَنَة، حَسبَ ما أشارَ إليهِ تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ... ﴾ [آل عمران: ٦١] الآية، فَتَرَدَّدوا في المُباهَلَة، ثمَّ امتَنَعوا منها خشيَةَ أن يُصيبَهُم عذابٌ من اللَّهِ، فَصالحَوا النبي على ألفَيْ حلَّةٍ، وألْفَيْ أوقيَّةٍ فِضَّةً (٨٠٠٠ درهم) في كلِّ سَنَةٍ، يَدفعونَ نِصفَها في صَفَرٍ ونِصفَها في رَجَبٍ. وطَلَبوا من الرَّسول أن يَبعثَ معهم أمينًا يحكم بينهم في أشياءٍ اختَلفوا فيها من أحوالهم، فَأرسلَ مَعَهم أبَا عُبَيدَةَ ابن الجَرَّاح، فَبَقيَ بَينَهم زَمَنًا[١].

* *

وَفدُ الأشعَريين، من أهل اليمن:

سنة سبعٍ، أيامَ غَزوة خَيبَرَ، وَفَدَ جماعَةٌ، نَحوَ الخمسة أو الستَّة، فيهم أبو موسى الأشعريُّ، وأخوهُ أبو رهم، فقالَ النبي ﷺ لأصحابه: « **أتاكُم أهلُ اليَمَن، همْ أرَقُّ أفئدَةً وألينُ قلوبًا بالإيمان، والحِكمَة يمانيَّةٌ** »[٢]. وأعطاهُم رَسول اللَّهِ خمسَ ذَودٍ غرّ الذُّرَى.

وَفد عَبد القَيس:

وهُم من عَرَبِ البَحرَيْنِ، وحاضِرة بلادهم مدينة جُؤاثَى، قرب عُمَان[٣]. وكانَ وُفودُهم سَنَةَ (٨) قَبلَ فَتح مَكَّة. وكانوا ستَّةَ عَشرَ رَجلًا، وقيلَ: عشرينَ، وقيل: أربَعين، ورَئيسُ الوَفد عبدُ اللَّه بن عَوفِ بن الأشَجِّ. وفيهم الجارود بن عَمْرو، وكانَ مِن قَبل نَصرانيًّا. وفيهم الأشَجُّ، وهو المُنذر بن عايذ، ويُلقَّب: الشيخ عَبدُ القيس.

وتَلَقَّاهم عُمرُ بنُ الخَطَّاب خَارجَ المدينَة، ودَخلوا مَعه المَدينَةَ، فَلمَّا بَلغوا المَسجدَ النَّبَويَّ، قال لَهم عُمَر: هَذا صاحبُكم الذي تُريدونَ. فَرَمى الناسُ بأنفسِهم عن رَكائِبِهم بباب المَسجِدِ وهم بثياب سَفَرهم، وتَبادَروا إلى النَّبيّ ﷺ يُقَبِّلونَ يَدَه. فَقال لهم: « **مَرحبًا بالوَفدِ، غَيرَ خَزايَا ولا نَدامَى** » (أي: ولا نادمين).

ثمَّ إنَّهم لمَّا أزمَعوا الرَّحيلَ قالوا: يا رسولَ اللَّه، إنَّ بَيننا وبَينكَ المُشركينَ من كفَّارِ مُضَرَ،

---

(١) سيرة ابن هشام (١ / ٥٧٣) طبعة دار الجيل.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه (٥٢).

(٣) لهذه المدينة مَزيَّةٌ، هي أنها أول مدينةٍ أقيمت بها صلاةُ الجمعة بعد مدينة الرسول ﷺ.

وإنَّا لا نَصلُ إلَيكَ إلَّا في شَهرٍ حَرامٍ، فَمُرنَا بِجُمَلٍ مِن الأمْر نَأخذُ بها ونَدعو إلَيهَا مَن وَراءَنَا.

فَقال: « **آمُـرُكم بِأربَع: وأنْهاكُم عَن أربَعٍ: آمُـرُكم بالإيمان باللَّـه شهادة أنْ لَا إلهَ إلَّا اللَّـه، وأنَّ مُحَـمَّدًا رَسولُ اللَّـه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزَّكاة، وأن تُؤَدُّوا من الـمَغنَم الخُمس** (لَم يَـكنِ الـحَـجُّ مَفروضًا وَقتئذٍ)، **وأنهاكم عن الدُّبَّاء والـحَـنْـتَم والنَّقير والـمُـزَفَّتِ**[1]، **وأخْبِروا بهن مَن وَراءَكُم** ».

وقالَ للأشَجِّ: « **إنَّ فيكَ لَـخَصلَتَـيْن يُحِبُّـهما اللَّـهُ وَرَسولُه: الحِلمُ والأنَـاةُ** »[2].

وَفْد بَني سَعد بن بَكرٍ:

وَفد ضِمام بن ثعلبَـةَ السعديّ عَن بني سَعد بن بَـكر من هوازنَ، وبَنو سَعدٍ هم أَضْآرُ رَسولِ اللَّـه ﷺ؛ إذ مِنهم حَليمَة السعديَّـة رَضيَ اللَّـه عنها. والظَّاهر أنَّ وُفودَه كان قبلَ فَتح مَكَّـةَ الذي أسلَم بَعده جَميع هوازنَ. وحَديث هذا الوافِد جَميلٌ.

في الصحيح، عَن أنَـسٍ قال: بَينَما نَحنُ جلوسٌ مَع النَّبي ﷺ في الـمَسجد، إذ دَخَلَ رَجلٌ عَلى جَـمَلٍ، فأناخَهُ، ثمَّ عَقَـلَه، ثم قالَ لَهم: أيُّـكُم مُـحَمدٌ؟ والنَّبي مُتَّكئ بَيـنَ ظَهرانيهم.

فَقالوا: هَذا الرَّجلُ الأبْـيَضُ الـمُـتَّـكئُ.

فَقال الرَّجلُ: ابن عَبد الـمُطَّلب؟

فَقال النبي: « **قد أجبتكَ** ».

قال: إنِّي سائلكَ فَمُشَدِّدٌ عَليكَ في المسألَـة، فلا تَـجِدْ عَلَـيَّ في نَـفسك.

فَقال: « **سَل عَـمَّـا بَدا لَك** ».

فَقال: أسالكُ بِرَبِّكَ ورَبِّ مَن قَبلك، آللَّـهُ أرسلَكَ إلَى النَّاسِ كلِّهم؟

قال: « **اللَّهم نَعَم** ».

قال: أنشدك باللَّـه، آللَّـه أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟

قال: « **اللَّهم نعم** ».

قالَ: أنشدك باللَّـه، آللَّـهُ أمَـرَكَ أن نَصومَ هذا الشَّهرَ من السنَـة؟

قَال: « **اللَّهـمَّ نَـعَم** ».

---

(١) أي أنهاكم عن جعل النبيذ في هذه الأربع؛ لأنه يسرع إليه الاختمار، أي الإسكار. والدباء : القرع، والحنتم: جمع حنتمة، وهي جرَّة مطلية بطلاء أخضر، والنقير: ما يُنقَر في أصل النخلة فيوعى فيه، والمزفت: الإناء المطلي بالزفت.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (٥٣) بترقيم ديب البغا.

قال: أنشدكَ باللَّـه، آللَّـهُ أمَركَ بأن تأخذَ هذه الصَّدَقة من أغنيائنا فـتَرُدَّها على فقرائنا؟

فقال النبي ﷺ: « اللَّهم نعم ».

فقال الرجلُ: آمَنتُ بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَن وَرائي مِن قَومي، وأنا ضِمام بن ثَعلبَـةَ أخو بَني سعد بن بكرٍ[١].

قَال عمر بن الخطاب: ما رأيت أحَدًا أحسَن مَسألَـةً ولَا أوْجَـزَ من ضِمام بن ثَعلبَـة.

وَفد بَني سليم:

وَفَدوا قبلَ فَتح مَكة، فأسلموا، وبايَعوا رسولَ اللَّـه بالأخْشَبَـين[٢]، في طريقِه إلى فتح مكةَ، والتَحقوا بجيش الفتح في ألف فارسٍ، وفيهم عباس بنُ مرداس. وهَذا الوَفد لَم يَذكره أهلُ السِّيَر في عِداد الوُفود، وخَبَرُه في ذِكر الفَتح، وفي شِعر ابن مِرداسٍ الذي يقول:

لا وَفْـدَ كَالـوَفْـد الأُلـى عَقَـدوا لَنـا سَـبَـبًـا بِـحَـبـلِ مُـحَمَّـد لا يُـقْـطَـعُ

وفد هوازن:

وَفَدوا بعدَ غَزوة حُنَيْـن سَنَـةَ (٨)، مُسلمين ومُستَشفعينَ فيما أصابَه المسلمون من سَبْيِهم وأمْوالِهم يَومَ حُنَيْن، وَفدوا على رَسول اللَّـهِ بالجعرانَـة وسَألوه أن يردَّ عَليهم سَبْيَهم وأمْوالَهم، فَقال لَهم: « **أحَبُّ الحَديث إليَّ أصْدَقُه، فَاختاروا إحدى الطَّائِفَـتَـيْن: إمَّا السَّبيَ وإمَّا المالَ، وقد كنت استأنَـيْتُ بكم** »[٣].

فقالوا: نَختار سَبْـيَـنَا.

فَقامَ رَسول اللَّـه فَخَطَبَ في الناس وقال: « **إنَّ إخوانَـكم هؤلاء قَد جَاؤونا تائبين**[٤]**. وإنِّـي قَد رأيت أن أرُدَّ إلَيهم سَبْيَهم. فَمن أحبَّ أن يُطيبَ بذلكَ فَليَـفعل، ومَن أحبَّ أن يَـكون على حَظِّهِ حتى نعطيه إياه مِن أوَّل ما يَفيء اللَّـه علينا فَليَـفعلْ** ».

فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ طَـيَّـبْنَـا ذَلِكَ، فَـقَالَ رَسُولُ اللَّـهِ ﷺ: « **إِنَّا لَا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِـمَّنْ لَمْ يَـأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَـيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ** »، فَرَجَعَ النَّاسُ فَـكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُـمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّـهُـمْ قَدْ طَـيَّـبُوا وَأَذِنُـوا[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب ما جاء في العلم وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٦٣) بترقيم ديب البغا.

(٢) الأخشبان: جبلان تحت عقبة منًى.

(٣) أي: انتظرتكم بضعَ عشرةَ ليلةً.

(٤) أي : مُسلمين.

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب قول اللَّـه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧] (٤٠٦٤) بترقيم ديب البغا.

وفودُ العرَبِ في الحَضرة النبَويَّة (٣)[١]

وَفد بَني ثَعلبة:

وَفَـدَ منهم أربعةٌ مقرِّينَ بالإسلام، سنة (٨)، بعد مَرجعِ رسول اللَّه من الجعرانَة، بَعد وفد هوازنَ.

وبعد أن سَلَّموا على رسول اللَّه قالوا: قد قيلَ لنا إنَّكَ تقول لا إسلامَ لِمَن لا هجرةَ له. فقال رَسول اللَّه ﷺ: « **حيثما كنتم واتَّـقَـيْـتُم اللَّـهَ فلا يَضُرُّكُم** ».

ولمَّا وَدَّعوهُ قال لبلال: « **أجِزْهم، أعطِ كلَّ واحدٍ خَمسَ أواقٍ فضَّةً** »[٢].

وفد ثقيف:

هم عَـرَبُ الطَّائف، وهم بَقيَّـة من العرب البائدة من ثمود. وَفدوا على المدينة في رمضانَ سنة (٩)، وكانوا أعداءً لرسول اللَّه عقبَ فتح مكة، وحاصَرَهم واستعصموا بِحصونهم، وقاتَلوا رسولَ اللَّه. أحدُ سادَتهم عَروَة بن مَسعود الثقفي.

ثم جاؤوا راغبين في الإسلام، وتلقَّاهُم المُغيرة بنُ شعبَـةَ خارجَ المدينة. ولمَّا دَخلوا أعلمَ بهم أبا بكرٍ الصدِّيق، فَسأله أبو بكر أن يسمح له أن يبشِّرَ بهم رسولَ اللَّه، فَـبَشَّرَ بهم أبو بكر، وعَلَّمهم المغيرة تحية الإسلام لِـيُحَـيُّوا بها النبي ﷺ، فأبَوْا إلَّا أن يُحَيُّوهُ بتحية ملوك الجاهلية، وهي « عِمْ صباحًا »، ولَم يُنكرها عليهم رسول اللَّه.

ونَـزَلَ بعضهم في دار المغيرة بن شعبة، وبعضهم في قُـبَّـةٍ ضَرَبَها لَهم رَسولُ اللَّه في ناحية المسجد. وجَعلَ الواسطة بينَـهُ وبَينهم خالد بن سعيد بن أبي العاص. وكانوا فَوجَيْنِ خيفَةً من المسلمين، فكانوا لا يأكلون من الطعام الذي يَرِدُ عَليهم من رسولِ اللَّه حتَّى يأكلَ منه خالد بن سعيد. ثمَّ عرضوا على الرسول أن يسلموا على شروطٍ أربعةٍ: أن لا يُكَلِّفهم بالصلاة. وأن يَـتركَ لهم صَنَـمَهم اللاتَ ثلاث سنينَ من وقت تقدمهم. وأن يُـرَخِّصَ لهم في الزنى، وفي شرب الخمر. فأبى الرسول أن يجيبهم إلى شيءٍ من ذلك. فَسألوه أن لا يُـكَـلِّـفَهم كسرَ أصنامهم بأيديهم، فأسعفهم بهذا خاصةً. ثم سألوه ورجعوا

---

(١) صدر هذا المقال في مجلة الهِدايَـة، سبتمبر (١٩٧٨م) (ص ١٧ - ٢١).

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى (٢ / ٦٣) طبعة دار صادر تحقيق إحسان عباس ، والبداية والنهاية لابن كثير (٥/ ١٠٤).

إلى قومهم، فأسلَمَ قومهم، وأرسل رسولُ اللّهِ المغيرةَ بنَ شعبةَ وأبا سفيان بن حربٍ لهدم اللّاتِ.

وفد بني تميم:

بنو تميم من أكبر قبائل العرب. وقد أسلَمَ منهم حيٌّ: هُم بَنو كعبِ بن العنبر. ولَعَلَّ إسلامَهم كان في سنة تسع، ولَعَلَّهم وَفَدوا إلى رسول اللّه ولذلك بَعثَ إليهم بشير ابن سفيان يقبض صدقاتهم، فَمَنَعهم بنو العنبر من أن يُخرجوا شيئًا من الإبل، فبعثَ رَسولُ اللّه عُـيَيَنَـة بن حصنٍ الفزاري لقتال بني العنبر، فقاتلهم، وأسر منهم رجالًا ونساءً وصبيانًا، وكان ذلكَ سببُ وفودِ بني تَميمٍ على النبي ﷺ، وبقيَ بَـقيَّـتُهم، فَوفدوا على رسول اللّه ﷺ في سَنَـةِ الوفود.

وكان وَفدُهم أعظم وفود العربِ، فَقد نَسقوه على ما كانوا يَفدونَ على كِسرى. فأتوا فيه بساداتهم وخطبائهم وشعرائِهم.

فَمن سادتهم عُطارِدُ بن حاجب بن زرارة، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وعَمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم المنقري (المَضروب المثل بحلمه) وكانوا حين وَفدوا مشركين، فلم يكن منهم مُسلمًا إلَّا الأقرع بن حابس.

والظَّاهر أنهم نزلوا في رِحالِهم، ودَخلوا المَسجدَ النبوي، فَنادوا في باب الحُجْرَة النبوية: أنِ اخرُجْ إلَينا يا محمد.

وفيهم نَـزَلَ قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤]، فَخرَجَ إليهم، وجَلسَ في صحن المَسجد. فقالوا: نحن ناسٌ من تَميم، جئنَا بشاعرنا وخطيبنَـا، لنشاعركَ ونفاخِركَ. فإنَّ مَدحَنَـا زَيْنٌ وذَمّـنَا شَيْنٌ، نَحن أكرَمُ العَرب.

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: **« كَـذَبتم، بل مَدحُ اللّـهِ الزَّيْنُ، وشَتمه الشين. وأكْـرَمُ منكم يُوسُف بن يعقوبَ ».**

قالوا: فأذَنْ لِشاعرِنا وخطيبِنَا.

فقال: **« لَمْ أُبعَث بالشعر، ولـم أُومر بالفَخْر، ولكن هاتوا »**[1].

---

(١) ذكره برهان الدين الحلبي في السيرة الحلبية (٣/ ٢١٧)، وجاء بنحوه في المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (١/ ٥٥٩)، وجمع الوسائل في شرح الشمائل (٢/ ٤٦).

وأحضرَ لَهم رسول اللَّه ثابتَ بن شماس، وحسانَ بن ثابت. فَخَطب عُطارد بن حاجب في مفاخر قومه، وأجابه ثابت بن شماس في مفاخر الإسلام والمهاجرين والأنصار.

وأنْشَدَ الزبرقان بن بدر قصيدة في الفخر، فأجابه حسان في فَخر الإسلام. ثم أنشَدَ الأقرع بن حابس شعرًا كذلك فأجابه حسان كذلك بأبيات منها:

لَـنـا خَـوَلٌ مِـن بـيـن ظِـئْـرٍ وخـادِمِ هَـبِـلْـتـم عـلينـا تفـخـرون وأنْـتُـمـو

فَقال رسول اللَّه للأقرع: « **لقد كنتَ في غنًى يا أخا بني دارم أن تذكر ما كنتَ تَرى أنَّ الناسَ قَد نَسوه** »[١].

فكانت هاته الجملة البليغة أشَدَّ عَليه من شعر حسانٍ.

وفي هذا الوفد، قَال رسول اللَّه ﷺ كَلِمَـتَه الجامعة: « **إنَّ مِن الـبَيان سِحرًا** »[٢].

وفد بني عامر: سنة (٩)، (مرتين):

ورَئيسُهم عامر بن الطفيل، ومِن سادَتِـهم: أربَد بن قَيموس، وجَبَّـار بن سَلمى، وكان عامرٌ هذا سيِّدًا عَظيمًا من سادة العرب، وهو الذي نَافَـرَ علقمة بن علاثةَ لَدى هَرَمِ بن سنانٍ. فَعَـرَضَ عامرٌ على الرَّسول أن يَجعلَ له الأمرَ مِن بَعده، فَقال رسول اللَّه: « **لَيسَ ذلكَ لكَ ولا لِقَومكَ** »، فقال: فَيكون لي الوَبَـرُ ولَكَ المَدرُ[٣]. فقال رسول اللَّهِ ﷺ: « **لا** ».

قال عامر، فما لي إذن إن أسلَمتُ؟ قَال: « **لَكَ ما للمسلمين وعليك ما عَلَـيْهم** ».

فَقال عامر: أما واللَّه يا محمد لأمَلأنَّـهَا عليكَ خَيلًا جُردًا ورِجالًا مُردًا (يُريدُ شبانًا) أقوياءَ.

فَقال: « **يَمنَعكَ اللَّه، اللَّهم اكْفِني عامرًا واهْدِ بني عَامرٍ** »[٤].

وكانَ عامرٌ قد دَبَّـرَ مع أرْبَد أن يَغتَالَا رَسولَ اللَّه ﷺ، فَمَنَـعَهُ اللَّـهُ منهما، بِروعَةٍ أصابت أرْبَدَ، كما هو مَذكور في السيرة.

ورَجَعَ الوُفدُ على غير طائل، فَـأصيبَ عامرٌ في طريقه بالطاعون ومات. وبَلَغَ أربَدُ إلى قومِهِ، فَصَدَّهم عن الإسلام، ثم أصيب بصاعقةٍ. ولَم يُؤثر عن جبَّارٍ شيء، ولكنه أسلم

(١) تاريخ دمشق (٩ / ١٩٠) طبعة دار الفكر، بيروت.

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب إن من البيان لسحرًا (٥٤٣٤) ومسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٩).

(٣) أي لعامر أهل الخيام، وللرسول أهل المدن والقرى.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠ / ٣١٢) (١٠٧٦٠).

بعد ذلك. ولَعَلَّه هو الذي حَرَّضَ قومه على الإسلام. فَوَفَدوا بعد ذلكَ على رسول اللَّه، بَعدَ غزوَةِ بِئر مَعونَةَ.

أخرَجَ أبو دَاودَ عن عبد اللَّه بن الشخير العامريِّ، قالَ: انطلَقْت في وَفد بني عامر إلى رَسول اللَّه، فقلنا : أنتَ سَيِّدنا. فقال: « **السيد اللَّه** »، فَقلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا، فَقال: « **قولوا بِقولكم أو بَعضِ قَولكم، لا يَستَجرينَّكم الشيطانُ** »[١].

وفد طيِّئ وعَديّ بن حاتم:

وَفد طيئ سَنَةَ (٩) وعليهم زيدُ الخَيل بن مُهَلْهِل، وقبيصة بن الأسود، ووزر ابن سدوس النبهاني. فقال رسول اللَّه ﷺ لزيد الخيل: « **ما ذُكِر لي رَجلٌ بِفَضلٍ إلَّا رأيتُهُ دونَ ما قيل فيه غَيركَ** ». وأسلَم الوَفدُ كلُّهم إلا وزر بن سدوس، فإنَّهُ عانَدَ الإسلامَ، وفارَقَ قَومَهُ.

وكان عديٌّ نَصرانيًّا، فَدخلَ على رسول اللَّه، وعَرَّفَه بنفسه، فَذهَبَ به رسولُ اللَّه إلى بَيتِه، فأدْخَلَه وقدَّم إليه وسادة من أدَمٍ لِيَجلسَ عليها، ثم قال له الرسولُ: « **أنَا أعلمُ بِدينكَ. ألستَ رُكوسِيًّا**[٢]؟ » فَقالَ: بَلَى.

فَقال: « **أَلَم تكنْ تَسيرُ في قَومكَ بالمِرباعِ**[٣] **وذلك لا يَحِلُّ لَكَ في دينكَ؟** »[٤].

ثم أسلَم عديٌّ، وصارَ في عداد أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

وفدُ كندةَ، من أهل اليَمَن:

وَفَدوا في ثمانينَ راكبًا، وعَلَيهم الأشعثُ بن قَيس، فَدَخلوا المسجدَ، وقد جَاؤوا مسلمينَ، وكانوا في أحسن هيئةٍ. قالَ الأشعثُ: يا رسولَ اللَّه، نَحن بَنو آكِلِ المُرار[٥]، وأنتَ ابن آكِلِ المُرار. فَتَبَسَّمَ وقال: « **ناسبوا بهذا النَّسب العباسَ بنَ عَبد المطلب وربيعةَ**

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (٤٨٠٦) طبعة دار الفكر، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، (ولا يستجرينكم الشيطان) أي: لا يتخذنكم جريًّا - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد التحتية - أي: كثير الجري في طريقه ومتابعة خطواته. عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٣ / ١١١).

(٢) الركوسي نسبة إلى الركوسية وهي دينٌ بين النصرانية والصابئة.

(٣) المرباع: أن يأخذ سيد القوم ربع الغنيمة في الحروب والغارات وهو حرامٌ في النصرانية؛ لأنَّ الغنائمَ لا تحلّ إلا للمسلمينَ كما في حديث: « **أعطيت خمسًا لم يعطهنَّ أحدٌ غيري** »... إلخ.

(٤) ذكره ابن حبان في الصحيح (٢٢٨٠).

(٥) آكل المرار هو حجر بن عمرو وهو جد امرئ القيس. وقيل: هو جدّ جده.
والـمُرار (بضم الميم) نبت تأكله الإبل فتتقلص شفاهها؛ لقب به حجر لأنه كان في شفتيه تَقَلُّصٌ.

ابن الحارث[١]. **لا، نَحن بنو النضر بن كنانة، لا نَقفو أُمَّنا، ولا نَـنْـتَـفِي من أبينا**[٢] »[٣]. ومَكثَ الوَفد بالمدينة أيامًا، ينحرون الجُزر، ويُطعمونَ النَّاس.

وفد تُجيب: (قَبيلَة من كندة)[٤]:

وَفَدَ ثلاثـةَ عَشَرَ رَجلًا من تُجيب قَبلَ حجَّة الوَداع، وساقوا مَعهم صدقاتِ أمْوالِهِمْ، فَسُرَّ بهم رَسولُ اللَّه، وأكْرَمَ مَـثواهم، وأمَـرَهـم أن يَرجعوا بصدقاتِـهِمْ فَـيَـرُدُّوها على فُقَرائِهِمْ. فَقالوا: مَا قَدِمنَا عَليكَ إلَّا بما فَضُلَ. وقالَ أبو بَكرٍ الصِّدِّيق: يا رسول اللَّه، ما قَدِمَ عَلينا وَفدٌ من العرب مثل هذا الوفد. فَقال رَسولُ اللَّه: « **الهُدَى بِيَدِ اللَّهِ، فَـمَن أرادَ به خَيرًا شَرَحَ صَدْرَهُ للإِسْلَامِ** »[٥].

وَجَعلوا يسألونَ عن القرآن، وأمورِ الإسلام، فازدَادَ رسول اللَّه فيهم رَغبَـةً، وأجازهم بمثل ما كان يُجيز به الوفودَ بواسطة بلالٍ.

وفود مُلوك حمير:

وَفَـدَ مالك بن مُـرَّةَ الرَّهاوي سَنةَ (٩) رسولًا عن ملوك حِميرَ، وهم: الحارثُ ابن عَبدِ كلال، ونُعَيْم بن عبد كلال، والنعمان، قَيْلُ ذي رعين، ومعافر وهَمَدان، ومَعه كتابٌ من أولئكَ الملوك بأنَّـهم أسلَموا وأسلَمَ قَومُهُمْ. وأجابهم رسول اللَّه بكتابٍ حَمَدَ اللَّـهَ فيه لَهم على أن هَداهم، ثم أمرهم بأوامرَ، وأوصاهم بأقوامهم.

وفد فَزارةَ:

جاءَ بِضعَـة عَشرَةَ رجلًا فيهم من سادتهم: خارجة بن حِصْن، وابن أخيه الحُـرُّ ابن قَيسٍ، مُـقِـرِّينَ بالإسلام.

وكانوا في سَنَـةِ قَحطٍ، فَسألوا رسولَ اللَّهِ أن يَسْتَـقي لهم وهو على المنبر في خطبة الجُمعَة، فَدَعَا اللَّه، فَـتَـكَوَّنَ سَحابٌ مثل الجبال، فنزل المطر أسبوعًا كاملًا إلى أن جاءه

---

(١) لأن العبَّاس وربيعةَ كانا تاجِرَيْن في أنحاء العرب، فكانا إذا أوغلا في البلاد فسئلا ممن هما، قالا: نحن بنو آكل المرار؛ ليهابهما العربُ.

(٢) يعني أن كون بعض أمهاته ﷺ من كندة، وهي هند بنت سرير - وجاء في الروض الأنف: دعد بنت سرير، وفي سبل الهدى والرشاد: دعد بنت شريد - أم كلاب بن مرة، لا يجعله من بني آكل المرار، إذ النسب يتبعُ الأبَ.

(٣) السيرة الحلبية (٣/ ٢٦١) طبعة دار المعرفة، بيروت.

(٤) بفتح التاء وكسر الجيم. ويجوز ضم التاء وفتح الجيم.

(٥) السيرة الحلبية (٣/ ٢٦٥) طبعة دار المعرفة، بيروت.

في الجمعة القابلة أعرابيٌّ، فَقال : يا رسول اللَّه، تَـهَدَّمَ البناء، وغَـرِقَ المَال، فادعُ اللَّهَ لنا، فَرفَعَ يَديْه، وقال: « **اللهمَّ حَوالَينَا ولا عَلينَا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشَّجَرِ** »[١]، فانجابَت السحابة انجيابَ الثوب. وهَذه معجزة من معجزاته.

وَفد مُحارِبٍ:

وَفَدَ عشرة منهم، فيهم خزيمة بن سوادة. وكان من أَشَدِّ النَّاس على رسول اللَّه، حَينَ عرض نفسه على قبائل العرب في عُكاظٍ لِـيَنصرُوه، فَلَمَّا دَخلَ عَلَى رَسولِ اللَّه، أدامَ النظر فيه فقال له: « **قَد رأيتُكَ** ». فَقال: إيْ واللَّهِ، لقد رأيْـتَني، وكَلَّمتكَ بأقبح الكلام ورددتك بأقبح الردِّ بِعكاظٍ، وأنتَ تَطوفُ على النَّاس. وما كان في أصحابي أشَدَّ عليكَ يَومئذٍ ولا أبعدَ عن الإسلام مني، فأحمد اللَّه على أن حَييتُ حتَّى صدقت بكَ، ولقد مات أولئك النفرُ الذين كانوا معي على دينهم. فقال رسول اللَّه: « **إنَّ هذه القلوبَ بيد اللَّه** »، فقالَ المحاربي: استغفرْ لي من مُراجعتي إيَّـاكَ. فَقالَ : « **إنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله من الكفر** »[٢]. ثمَّ أجازَ الوَفدَ، ورَجعوا.

وفد بَلِي:

وَفَـدَ جَمعٌ منهم برئاسة أبي ضبيب، وتلقاهم رويفع بن ثابت البلوي، فَدَخَلَ بهم على رسول اللَّه، وهو جالس في أصحابه، فَقال: هؤلاء قومي. فَقالَ لَه: « **مَرحَبًا بكَ وبقومكَ** »[٣].

وأسلموا، ونزلوا عند رويفع برغبة منه. فَـأرسلَ لَه رسولُ اللَّه حمْلًا من تَمرٍ ليستعينَ به على ضيافتهم ثلاثة أيامٍ، ثمَّ أجازهم وانصرفوا.

وفد نَهد (من عرب اليَمن):

وَفَدوا سنة (٩) مُـقِـرِّينَ بالإسلام، وفيهم: طهفَة أو طَهية بنُ أبي أزْهرَ. فَخطَبَ بَيـنَ يَدَي النبي ﷺ بِلُغَـة قَومِه. وأجابَـه رسول اللَّـه ودعا لَهم بِلُغَتِهم. ولولَا خشية الإطالة، لاحتياج ذلك إلى تَفسير المفردات، لأثبتُّ هنا الخِطابَ والجوابَ.

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد (٩٦٧) بترقيم ديب البغا، ومسلم في صلاة الاستسقاء ، باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧).

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول اللَّـه ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٢٨٥).

(٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول اللَّـه ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٢٧٩).

وفودُ العرَبِ في الحَضرة النبَويَّة (٤) [(١)]

الأناة:

الأناةُ: التَّدبُّر في عاقبة الفعلِ عندما تدعو النفس إليه، بحيث لا يُقدَمُ عليه إلَّا بعد التأمُّل. وكان أهل الجاهلية يَعُدُّون الإقدامَ مُطلقًا فَضيلةً لتغاليهم في حبِّ الشَّجاعة والتَّبرُّؤ من رائحة الجُبْن. قال الحَماسيُّ:

إذا هَمَّ ألقى بينَ عَينَيْه عَزمَهُ ... ونَكَّبَ عن ذكر العواقب جانبا

ومن شواهد ذلك في الوفود قولُه للأشج وهو المنذر بن عائذ في وَفد عَبد القيس: « **إنَّ فيكَ خَصلتَيْن يُحبُّهما اللَّه ورَسولُهُ: الحِلمُ والأناة** ». وفي حديث وَفد هَوازنَ: « **وقد كنتُ استَأنَيتُ بكم** ».

البشاشة:

هي إظهارُ السُّرور بالوافد ودَوامُ اللطف مع العَشيرة. وفي حديث عليٍّ في صفة رَسول اللَّه ﷺ: « وأكثرهم عِشرَةً، قَد وَسعَ الناسَ بِشرُهُ وخُلُقُه، يُعطي كلَّ جلسائِه نَصيبَهُ حتَّى لا يَحسب جليسه أنَّ أحدًا أكرم عليه منه، دائمُ البِشر، لَيِّنُ الجَانبِ، يَتغافَل عمَّا لا يَشتهي، ويَبتَسِم في وُجوه أصحابه ويُداعِبُ صِبيَانَهم ».

وفي الصحيح أنَّه كان أكثرَ الناسِ تَبَسُّمًا، إلَّا إذا نزل عليه القرآنُ، أو وَعظَ أو خَطبَ. ومن شواهد ذلك، حسنُ لقائِه الوفودَ وتَرحيبه بهم.

ولَمَّا استأذن عليه عُيَيْنَة بنُ حِصنٍ الفزاري - وكان من الجُفاة - قال: « **ائذَنوا لَه، بئسَ أخو العشيرة** ». فَلمَّا دخلَ عليهِ، انبَسطَ إلَيه، فَلمَّا خَرج قالت عائشة: رأيتكَ حينَ رأيتَ الرجلَ قلتَ ما قلتَ، ثمَّ تَلطَّفتَ في وجهه، فقال: « **مَتى عَهدتِني فَحَّاشًا؟ إنَّ شرَّ النَّاس مَن اتَّقاه الناسُ لِشَرِّه** »[(٢)].

التواضع:

التَّواضعُ: هو تَفاعلٌ مِن الوَضع والضَّعَة، وهي إنزالُ الشَّيء عن ارتفاعٍ إلَى انخفاضٍ.

---

(١) وردَ المقال في مجلة الهداية، تحت عنوان: وفود العرب في الحضرة النبوية، العدد (٣) السنة (٩) (يناير - فبراير ١٩٨٢م).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع (٣٣٥٣) طبعة مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان. تحقيق محمد مصطفى الأعظمي.

فالتَّواضع تَـكلُّف الضَّعَة فهو صفةٌ بِمعنى نزول الرفيع عن رفعته وتَظاهُرهِ بِدونها، فَلا يُعَدُّ التَّواضع تَواضعًا إلَّا مِن رَفيعِ المَنزلة، وإلَّا كانَ مِن وَضع النَّفس في مَوضعها، فالرَّفيع إذا تواضَعَ كان الناس مُوقنينَ بِرفعتهِ، والوضيع إذا تواضَعَ لَم يَشعر الناس بأنَّـهُ مُتواضع، وقد أبدعَ المَعَريُّ في قَوله:

عَـلَـوتـــمُ فَـتـواضـعـتُـمْ عـلـى ثـقـةٍ لَـمَّـا تَــواضَـعَ أقـوامٌ عـلـى غَــرَرِ

وقد كان التواضعُ خُلقَ رَسول اللَّهِ ﷺ. أخرَجَ أبو داودَ عن أبي أمامَـةَ الباهلي، قال: خَرَجَ عَلينا رسول اللَّهِ ﷺ، فَقُمنا له، فقالَ: « **لَا تَقوموا كما تقومُ الأعاجِمُ، يُعَظِّم بَعضُهم بعضًا** »[1]. وقَد وَقَعَ في وَفد بني عامر الثاني لَمَّا قالوا له: أنتَ أفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا. فقال: « **قولوا بِقَوْلِكم أو بَعضِ قَولكم** »[2]، فَجمَعَ بَينَ التواضع وتَعليم حَقِّ الرسول لأمَّتِهِ.

الأدب مع اللَّه تعالى:

إذا ذُكرَ الأدبُ مَع اللَّه في شمائِل رَسولِهِ فالمَعني به ملازمتُـهُ لإعلان ذلكَ في كلِّ مناسبةٍ؛ لأنَّ الأدبَ مع اللَّه عند تعيينه، أمر لا يخلو عنه مؤمن به، ولكن للقلوب غفلات وللمناسبات قُرب وبُعد مداخل الضلالة عنها.

هُدِيَ رَسول اللَّه إلى الدأب على إظهار عَظمة اللَّه تعالى واضمحلال كل رِفعة تُجاهَ عَظَمته سبحانه. فَـكان المسلمون بسبب ذلك أبعدَ الأمم عن الإشراك وعن الضلال في صفات اللَّه تعالى. وهذا شيءٌ خَصَّ اللَّه به هذا الرسول الكريم. وكان يقصد أن يُظهرَ هذا الأدبَ فيما يرجع إلى شَخصهِ الكَريم لِـيُعلِّمَ سائرَ الأمة أنَّ أعظم المخلوقات وأشرفَها قد ساوى بقيةَ المخلوقات في العبوديَّـةِ، فَلا يَـكون للشيطان مَدخلٌ إلى نفوسهم بوساوس الحلول والنبوة أو تعدد الآلهة أو الاستغناء برسول مُقَـرَّب عن معرفة اللَّه تعالى.

وقد قالَ لِخطيب بَعض الوفود لمَّا قال: مَن يُطع اللَّهَ ورَسولَه فَقد رَشدَ، ومَن يَعصهما فقد غوى: « **بئسَ خَطيبُ القَوم أنتَ** »[3]، أنْـكـرَ عَليه الجمعَ في معصية اللَّه ورسولِهِ بِضمير يَستوي في ظاهر لفظِهِ المُعادَان، فَيفتح في قُلوبِ قريبٍ عهدُها بشركٍ، منافذَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في قيام الرجل للرجل (٥٢٣٠) طبعة دار الفكر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كراهية التمادح (٤٨٠٦) طبعة دار الفكر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء (١ / ٢١).

لاعتقاد **مُداناة** بَعضِ المَخلوقات للخالق سبحانه. وحَسبكَ في أدبِ رَسول اللَّهِ مع رَبِّـهِ أنه اختارَ أن يَكون شعارُهُ وصفَ العبودية له، فإنَّه خُيِّـرَ بينَ أن يَكونَ نَبِـيًّا ملـكًا، أو نَبيًّا عَبدًا، فاختارَ أن يكون نبيًّا عَبدًا.

وفي خَبَر وَفدِ بني عامر الثاني أنهم قالوا: يَا رَسولَ اللَّه، أنتَ سَيِّدنا، فقال: « **السيد هو اللَّـهُ** ». وفي خَبَـرِ وَفد فَزارَةَ، لَمَّا سألوه الاستسقاء، ثم سألوه الدُّعاءَ برفع المطر قال: « **اللهمَّ حَوالَيْنا ولا عَلينا** » إلخ. فَلَم يَسأل اللَّهَ رفعَ شَيءٍ، كانَ أصلُه نعمةً أنعمَها عليه، أجاب بها دعاءَهُ، بَل سأَلَ صَرفَ تلكَ النعمة إلى جهاتٍ أخرى.

التَّسَامُح:

لَقَبٌ اصطُلِحَ عليه، يُعَبِّر عن حُسن المعاملة الإسلامية مع أهل الأديان الأخرى، فيما لا يضرُّ بِالإسلام. وقَد اكتسب المسلمون هذا الخُلُـقَ من أخلاق رَسولِهم حتى صار ذلكَ شعارًا لَهم، شَهد لَهم به المنصفون من حكماء ومُؤرِّخي الأمم. ومن شواهدِ ذلكَ في أخبار الوُفود تَرخيصه لنصارى وَفد نجران أن يُصَلُّوا صلاتَهم حين وَجبَ وَقتُها في مسجده. وإعفاؤه وفدَ ثَقيف من تكسير أصنامهم بأيديهم، واستَمَعَ مفاخرَ وفد تَميم بجاهليتهم؛ إذ كان قد أعَدَّ لَهم من الردِّ عَليهم ما يَدفع تطاولَهم على الإسلام.

الجَلالة والمَهابَة:

كلُّ تلك الأخلاق اللينة اللطيفة قد كان محفوفًا بجلالة قدسيَّـةٍ وعَظمَةٍ نفسيَّـةٍ، جَلَّلَ اللَّه بها رسولَه ﷺ، فَكان يَحصل لرائيه عندَ رُؤيَـةِ ذاتِـهِ الشَّريفة رَوعَةٌ ومَهابَـةٌ لَه، فَقد وَرَدَ في الحديث أنَّـه دَخلَ عليه رجلٌ فَـأصابَتهُ رِعدَةٌ فقال له: « **هَوِّن عليكَ، فإنِّي لَستُ بمَلِكٍ** »(١). وأنَّـه دخلت عليه قَيلة العَنزيَّة فلمَّا رَأته أرعدت من الفَرَق فقال لها: « **يا مِسكينَـة، عَليك السكينَـةُ** »(٢)؛ أي: الأمْن. وقَد جاء في حديثِ وَفد عَبد القيس أنهم لما رَأَوْا رَسولَ اللَّهِ، رَمَوْا بأنفسهم عن ركائبهم بباب المسجد وتَسابقوا إليه. وفي حديث وفدِ بني عَامرٍ أنَّ عامرَ بنَ الطفيل وأربَدَ بنَ قَيسٍ كانا تَمالآ من قبل الدخول على النبي على أن يكلمه أحدُهما، ويَقتُـلَه الآخرُ. فَلمَّا لَقياه ألقيت عليهما رَوعَةٌ صَرَفَتْهما عن مَرامِهما. ولَقد صَدقَ كعب بن زهير إذ حكى في قصيدته كيف تَهَـيَّبَ لقاءَ الرسول بقوله:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة، باب القديد (٣٣١٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥ / ٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١ / ٣١٩) طبعة دار صادر، تحقيق إحسان عباس.

لَقد أقومُ مقامًا لَو يَقومُ بِهِ ... أرى وأسْمَعُ ما لو يَسمعُ الفيلُ
لَظلَّ يرعُد إلا أن يكونَ لهُ ... مِنَ الرَّسولِ بإذنِ اللَّهِ تَنويلُ

الشجاعة:

والشجاعة الثَّبات أمام ما يُخشى منه تَلَفُ النَّفس أو الجسم. وهي صفة النفس من أباةِ الضَّيم والثقة بالغَناء، واستخفاف المَتالفِ، ومَحَبَّة المحمدة. فهي من أجلِّ الصِّفات لما تُنبئُ عَنه من الأخلاق السامية. ولذلك كانت نادرةً في البشر. وأشهر الأمم بالاتصاف بها الأمة العربيَّة لرسوخ تلك الأخلاق الأربعة في نفوسهم، فلما أضيف إلى تلك الأخلاق الإيمان المثبِت للحياة الخالدة زادَت تلكَ الصِّفَة تمكُّنًا في نفوس مَن أسلَمَ من العرب، ولا شكَّ أنَّ سَيِّدَ المسلمين يكون أعظمهم حظًّا من الاتصاف بهذه الصفة الجليلة. وكيفَ لا وقد عَرَفَ الحقيقةَ بكنهها وعلم معنى القضاء والقدر حقَّ العلم. وقد ثَبَتَ في الصحيح عن البَراء بن عازبٍ وسَلَمَة بنِ الأكوع والعباس وأنس بن مالك وعَبد اللَّه بن عمر وعليٍّ وعمران بن حُصين: كان رسولُ اللَّه أشجعَ الناس، وأوَّلَهم في التقدُّم إلى العدوِّ، وقد فَرَّ المسلمون يومَ حُنَينٍ ولم يثبت للمشركين إلَّا رَسولُ اللَّه وهو هاجمٌ عليهم يقول:

«أنا النبيُّ لا كذبْ ... أنا ابنُ عَبْد المُطَّلب»[1]

وقد تَعَوَّذَ رسولُ اللَّه في دعائه من الجُبْن كما في الصحيح، فَدَلَّ هذا التعوُّذُ على أنَّه قد بَرَّأه اللَّه من شائبة هذه الصفة براءَةً تامَّةً. وحَسبكَ من شجاعته ﷺ لقاؤُهُ للوفود ذوي العَدَد مع كونهم في أقرب عَهدٍ من الكفر به وعَداوته أو مستمرين على ذلك، فَلم يَلقَهم بسلاحٍ ولا بحذر ولا خشيَ غَيْلَتَهم. وقد وَقفَ للناس في مُنصرَفِهِ من حُنَينٍ وقد أحاطوا به يسألونه فلم يَحذَرهم.

نَعم، قد كان يحترس في أوقات الغفلات تأدُّبًا مع اللَّه تعالى، وتَلبُّسًا بمظهر من مظاهر الخدمة في تبليغ الرسالة قبل أن يتلقَّى من ربِّهِ الإذن بالتوكل عليه في ذلك أيضًا.

فَفي سنن الترمذيِّ عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه يُحرَسُ (أي: يَحرسُه أصحابه في أوقات نومه وغَفلَتِهِ، يَتناوبون ذلكَ) حتَّى نَزل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرَجَ رَسولُ اللَّه رأسَهُ من القبة (أي: قبة كان نائمًا بها قبلَ نزول الآية

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من قال: خذها وأنا ابن فلان (٢٨٧٧) بترقيم ديب البغا. ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة حنين (١٧٧٦). ذكر ابن حجر في فتح الباري: « أنه خرج موزونًا ولم يُقصد به الشعر ».

ويَحرسُه بعض أصحابه) فقال: « **يا أيُّـها الناس، انْصَرفوا عنِّي، فَقد عَصَمني ربي** »[١]. وكان ممن حَرسَهُ بها فيما أحصيتُ سَعدُ بن أبي وقَّاصٍ، كما في حديثِ مُسلمٍ، وسَعدُ بن معاذٍ، وأبو أيُّـوب الأنصاريّ، وعُمر بن الخطاب، والأدرع السلمي، وحَشرم[٢] بن الحُبَاب، ومحمد بن مسلمة، والزبير، وعباد بن بشر، والضحاك بن سفيان الكلابي الذي كان يقوم عند رأس رسول اللَّه مُتَـوَشِّحًا سَيفَهُ، فَـلَـقَّبوهُ سَيَّافَ رَسولِ اللَّه.

الشدَّة في الديـن:

أي الشدة في إقامته وحفظ قواعدِهِ، فَقد وَرَدَ في أحاديث كثيرةٍ: كانَ رسول اللَّه إذا انْتُهِكت حُرْمَةَ الدِّين، لا يَقوم لِغـضَبِـهِ أحدٌ. وقَد قال لِمُسيلَمة في وَفد بني حَنيفَة: « **لَو سَألتَني هذا السَّوطَ ما أعطَيتُـكَه** »[٣]؛ أي: إذا كان على شرطِ جَعْلِ الأمر لِمُسيلَمَةَ. وقَد غَضبَ من شفاعة أسامة في إقامة حدِّ السَّرقة على المَخزوميَّة.

الصدق:

الصِّدقُ من الخصال الجليلة؛ لأنَّـه يُؤذنُ بشجاعة النفس وغِناها عن الضَّعف وبشَرف الضمير وطهارته بحيث لا يَـرَى حاجَةً إلى كتم شيء أو تغيير شيءٍ مما يريد الإخبار عنه أو الوَعدَ به. وقَد وَصفه اللَّه تعالى في كتابه فقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾ [الزمر: ٣٣] يعني: النَّبي ﷺ. ولا يَخفى على المُتَضَلِّع من العربية ما في الباء من مَعنى مُلابَسَة الصِّدق لَه حتى لا يُفارقه كَقَولِـه في الزيتونة: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وفي حَديث علي: (كانَ رسول اللَّه ﷺ أصدَقَ النَّاس لَهجَةً). وقد قال لِوَفد هوازنَ: « **أحَبُّ الحَديث إليَّ أَصْدَقُـهُ** »[٤]. وقال: « **مَا كان لنبيٍّ أن تكون له خائنَـةُ الأعْيُن** »[٥]؛ أي: الإشارة بالعَيْن لِتحصيل مُرادِهِ بدون كلامٍ؛ لأنَّـه ضَربٌ من المواربة وإبطانُ خلاف الظَّاهر.

الجودُ:

الجود حبُّ إعْطاء المال اختيارًا دونَ مسألَـةٍ وعن غير تفضُّلٍ. قال سقراط: « الجَواد هو

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب سورة المائدة (٣٠٤٦).

(٢) ورد في أسد الغابة والاستيعاب « خشرم بن الحباب » .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب قصة الأسود العنسي (٤١١٨) بترقيم ديب البغا. وفيه: « لو سألتني هذا القضيب ».

(٤) أخرجه البخاري في الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين (٢٩٦٣) بترقيم ديب البغا.

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام (٢٦٨٣) طبعة دار الفكر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

الذي يُعطي بلا مَسألَـةٍ لِيصونَ المُعطَى عن ذلِّ السؤال ». فَإذا كانَ كذلك لزمَ منه أن يكون أتمُّ الجود ما كانَ مَع عَدم تَفَضُّل المُعطي عمَّا أعطاه، قال اللَّه تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، وقال الشاعر:

لَيْسَ العَطاءُ مِنَ الفُضول سَمَاحَةً حتَّى تَجودَ ومَا لَديكَ قَليلُ

وكذلك كان جُودُه ﷺ، فَفي الحديث الصحيح عن جابر وأنس وسهل بن سعدٍ: ما سئلَ رسول اللَّه شيئًا فَقال: لا[١]. وقالَ ابنُ عباس: كان رَسولُ اللَّه أجودَ بالخَير من الريح المُرسلة[٢]. وقَد فَطَرَ اللَّهُ رسولَهُ على هذا الخلق العَظيم مِن قَبل بعثتِـهِ، فَفي الحَديث الصحيح في البخاريِّ وغَيره أنَّ خديجَةَ - رَضيَ اللَّهُ عنها - حين أخبَرها رسولُ اللَّه بما رأى أوَّلَ وَحيٍ، وخشيَ أن يكون من الشيطان، عَلِمت أنَّـه رؤية المَلَكِ بقولها: إنَّكَ لَتَحملُ الكَلَّ، وتُـكسب المعدومَ، وتُعين عَلى نَوائبِ الحَقِّ[٣]. وقَد رَدَّ رسولُ اللَّه على هوازنَ سَبْيَهم وكان ستَّـةَ آلاف نَفس بينَ نساء وذرِّيَّـةٍ، وتَحَمَّـلَ ذلكَ للمسلمين الذين وقع السبي في مَقاسمهم بأن يُعَوِّضهم إياه من أول ما يفيءُ اللَّه عَليه. ومَعلومٌ أنَّ الفيءَ من حَقِّه. وفي صحيح الترمذيِّ أنَّ رجلًا سألَ النَّبيَّ فَقال: « **ما عندي شَيءٌ، ولكن ابتع عَلَيَّ** - (أي اشتر بالنسيئة ما تحتاجه وأحل البائعَ عَلَيَّ) - **فإذا جاءنا شيءٌ قَضيناه** ». فَقال له عمر: ما كَلَّفكَ اللَّه ما لا تقدر عليهِ!. فَـكرهَ رَسول اللَّهُ ذلكَ، فَقال لَه رَجلٌ من الأنصار: يا رَسولَ اللَّهِ، أنفقْ ولا تَخشَ من ذي العرش إقلالًا. فَـتَبَسَّمَ رسول اللَّه وعُرفَ البِشرُ في وجهه، وقالَ: « **بهذا أُمِرتُ** »[٤]. وفي صحيح البخاريِّ: عَن سَهلِ بن سَعدٍ قال: جَاءت امرَأةٌ إلى رَسول اللَّه بِبُردَةٍ، فقالت: يا رسولَ اللَّهِ، أكسوك هذه؛ فأخذها رَسول اللَّه محتاجًا إليها، فَلبسها فَرآهَا عليه رجلٌ من أصحابه (قيل: هو عَبد الرحمن بن عوفٍ، وقيل: سعد بن أبي وَقَّاص) فقال: يَا رسولَ اللَّه، ما أحسَنَ هذه البردَةَ، فاكسنيها. فقال: « **نَعم** ». فَـأعطاه إيَّاها، فَلمَّا قام رسول اللَّه، لامهُ النَّاس فقالوا: ما أحسنت حينَ رأيتَ النَّبيَّ، أخَذها مُحتاجًا إلَيها ثم سألته إيَّاها، وقد علمتَ أنَّـه لا يَرُدُّ سائلًا، فقال: رَجوتُ بَـرَكَـتَها، لَعلِّي أكفن فيها فكانت كَفَـنَهُ[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول اللَّـه ﷺ شيئًا قط فقال: لا، وكثرة عطائه (٢٣١١).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (٤٧١١) بترقيم ديب البغا.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة العلق (٤٦٧٠) بترقيم ديب البغا، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول اللَّـه ﷺ (١٦٠).

(٤) شمائل الترمذي (٣٥٦).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٥٦٨٩) بترقيم ديب البغا.

الثقة باللَّه:

أي الثقة بأنَّ ما وَعده اللَّه من التأييد والنَّصر واقعٌ لا مَحالَةَ، فَقد ثَبَّتَ اللَّهُ نفسَه بقوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، من أجل ذلكَ لَم يَكن يَتَألَّف الناسَ بشيءٍ من التنازل في حقوق اللَّه تعالى، وذلكَ شأنُه مع عامر بنِ الطفيل في وَفد بني عامر، ومَع مُسيلمَةَ في وَفد بَني حَنيفَةَ، ومع ثَقيفٍ، وكان وهو في حال ضَعف الإسلام يومَ بَيعَة وَفد الأنصار بالعقَبَة الثانية، أَخذَ عَليهم العَهدَ بالإسلام، مَع شروطٍ خَمسَةٍ شَرَطها عليهم، ولم يُراقب خشية نفورهم. ومِن ثِقَته باللَّه أنْ كَتبَ للدَّاريينَ الذين وَفدوا بمكَّةَ قبلَ الهجرة كتابًا أقطعهم به أرضًا من بلادهم مما فَتَحَ عليه بعد مدة طويلةٍ.

وفي الصحيح أنَّ خبَّابَ بن الأرَتِّ قال: أتيتُ رَسولَ اللَّه ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُردَةً في ظلِّ الكَعبة، وقد لقينا من المشركين شدةً، فقلت: ألا تَدعو اللَّه؟ فَقَعَدَ وهو مُحْمَرٌّ وَجهُهُ، فَقَال: « **لَقد كان مَن قبلكم يوضع المنشار على مفرق رأسه فَيُشَقُّ باثنين ما يَصرفُه ذلك عن دينه، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حَضرمَوتَ ما يَخافُ إلا اللَّه** »[1].

صدقُ الفراسَة:

فِراستُه ﷺ نورٌ إلهيٌّ مِن إلهام روحيٍّ في غَير باب التشريع ولا التعليم، جَعلها اللَّهُ تعالى مشكاةً لرسوله، يَطَّلع بها على ما في نفوس الوُفود وغيرهم، كَقولهِ في وَفدِ الأشْعَرِيِّينَ: « **أتاكم أهلُ اليَمَن هم أرَقُّ أفئدةً** »، وقَوله في بعض وَفد عَبد القيس: « **إنَّ فيك خَصلَتَيْن يُحبُّهما اللَّهُ ورَسوله: الحِلمُ والأناة** ».

سياسة الأمَّة:

لا حاجَةَ بي إلى الإطالة في بيان ما أسْداه هذا الرسول الكريمُ - عَليه أفضلُ الصَّلاة والتسليم - لهذه الأمة من تدبيرِ مَصالحها، وتَأسيس هَيكَل مُستَقبلها على أساس متين الدعائم، فقد أغناني عن ذلكَ أنَّ صفةَ الرِّسالة تَجمع كل معاني السَّعي لِخَير الأمة في العاجل والآجِلِ.

ولكنِّي أحببت أن أنبِّه إلى حرص رسول اللَّه على بثِّ المَصالح ودأبُهُ على ذلكَ في كلِّ مُناسَبَةٍ، فقد رأيتَ ما كان في وفد البَيعة الأولى بالعقبة، وهم طائفةٌ استجابَت له من غير قومه، فَقد كان له في استثمار هذه الفرصة لنفع الدين مسلكان: أَحدُهما أنْ يَتَّخذَ

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٦) بترقيم ديب البغا.

من ذلكَ إعلانًا لتأييد دعوته وتظاهرًا على أعدائه من أهل مكةَ، وذلك بأن يَستصحبَ رجالَ ذلكَ الوَفد، فَيدخلَ بهم مَكَّةَ، فَيغيظ بهم المشركينَ ويُريهم أنَّـه إنْ عَدمَ نُصرَةَ جَمهَرَتِهم، فإنَّ اللَّهَ عَوَّضَهُ أنصارًا من غَيرِهِمْ. والمَسلكُ الثاني أنْ يَعمَدَ إلى هذا التوفيق الذي وُفِّـقَه الأنصار، فَيجعله لمصلحتهم أنفسهم، وهو ما سلكه إذ أمرهم بالرجوع إلى مدينتهم وأصحَبَهُم مصعبَ بنَ عُميرٍ، ليعلمهم ويَؤُمَّهم جَمعًا لكلمتهم. وقَد قال للمسلمين يومَ وَفْد هوازن: « **إنَّا لا نَدري مَن أذن منكم ممن لم يأذن، فَارجعوا حتى يَرفَعَ إلَينَا عُرَفاؤُكم أمْرَكم** ». فَعَلَّمهم نظامًا جليلًا ما كانوا يعرفونه هو نظام النيابة في نوائب الأمة ومَصالحها.

الرأفة بالأمّة:

الرأفةُ وِجدانٌ نَفسانيٌّ مَخلوط من محبة وخوفٍ فهي مَحبة للمرؤوف به مع خوفِ عَنَتِه أو ألمه. فَهي تستلزم الفكرَ في إيجاد الخَير بطرق سالمة من المشقة أو الإعناتِ واختيار أضْمَنِ الوَسائل لحصول هذا الغَرض، فهي أخصُّ من الرَّحمة من وجهٍ؛ لأنَّ الرَّحمَةَ إيصالُ الغَوث إلى المَرحوم في وقت الحاجة بقطع النظر عن التدبير في دفع ما يَعتريهِ من الحَرَج، ولذلك فالرحمةُ تَـتَـوَجَّه إلى المَرحوم في وقتِ الاحتياجِ، والرَّأفة تَتَـوَجَّه إليه قبلَ الاحتياج، وفي وَقت الاحتياج. وأثَـرُ الرَّحمَة هو دَفعُ حاجَة المُضْطَـرِّ. وأثرُ الرَّأفة صَدُّ الضَّرَر عنه، ولذلك وقَعَ الجَمع بَينَهُما في وَصفِهِ ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

وفي حديث مالك بن الحُوَيرث الليثي: أتَـيتُ النبيَّ في وَفدٍ من قَومي، ونَحن شَبَبَـة مُتقاربونَ، فَـأقمنا عنده عشرينَ لَيلَـةً، وكانَ رحيمًا رَفيقًا، فلَمَّا رأى أنَّا اشتهينا أهلنا قال: « **ارْجِعوا إلَى أهْليكُمْ** »[1]... الحديث.

وقَد كان رسولُ اللَّه يَفرَحُ لإسلام مَن يُسلمُ، ولِتَوبَـة مَن يتوب، حتى إنَّ أبا بَكرٍ بَشَّرَه بِوَفد ثَقيفٍ حين جاؤوا مسلمين؛ إذ علمَ أنَّ رسول اللَّه مُـتَـكَدِّرٌ من تأخُّر إسلامهم عن إسلام أهل مَكَّةَ، فاستَمنَحَ المغيرة بن شعبة أن يؤثره بالسبق بهاته البشارة كما تقدَّم. وقَد كتبَ لملوك حميرَ مع وفدهم يوصيهم بأقوامهم رأفة بقومهم من أن يَلقَوا من ملوكهم بعد الإسلام ما كانوا يَلقونَه فيهم من الشدَّةِ والجبروت. وقد كان يوصي الوفودَ بأن يُبَلِّغوا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٥٧٦) بترقيم ديب البغا.

الإسلام والشريعةَ لِمَن وَراءَهم.

وفي الحديث الصحيح: « **لكلِّ نَبي دَعوَةٌ مُستَجابَـة، وقد اختبأتُ دعوتي شفاعَةً لأمَّتي يومَ القيامة** »[1].

صلى اللَّه عليه وسلم، وجَازاه أحسن ما جازى به رسولًا عن أمته وبما هو أهله. وهذا قُـلٌّ من كُثْرٍ، وقَطْرَةٌ من بَحْرٍ، صَدَرَت على قدر قريحة الناظر، واقتضبت من بين أعذاق رَدَاحٍ في رَوضِ النُّبوة النَّاضر، وكيفَ يَطمَع عَقلٌ لَه حدود مَحصورة في نظام العقول أنْ يَبلغ معرفَةَ غاية فيوضات إلهيَّـة على أفْضَلِ رَسولٍ؟! ورَحمَ اللَّه الحَسَنَ الحكميَّ إذ يَقول :

أيَـروم مَـخلـوقٌ مَـديـحـكَ بعـدمـا أثْــنَـى عَــلى أخْـلاقِـكَ الـخَـلَّاقُ

* * *
* *
*

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٥٩٤٥) بترقيم ديب البغا، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٨، ١٩٩).

الشمائل المحمدية[1]

لا أحسبُ مُسلمًا يُخَيَّرُ في أيّ الأماني أحبُّ إليه أن يُحَصِّلَ - بعد تَعدادها - ثمَّ لا يَكون مُختارًا منها أن يَـرَى ذَاتَ نَبيّـهِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وإذا كان رَسولُ اللّهِ قد تَمَنّى أن يَرى مَن يَجيء بَعدَه من المسلمين لِمَحبَّته أمته، كما في المُوَطَّأ، عَن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: « وَدِدتُ أنِّـي قد رأيتُ إخوانَنا ». فَقالَ لَه أصحابُه: يا رسولَ اللّهِ، ألَسنَا بِإخوانِكَ؟ قال: « بَل أنتم أصحابي، وإخْوانُنا الذين لَم يَأتوا بَعدُ... وأنَا فَرَطُهُمْ عَلى الحَوْضِ »[2]، فَكيفَ لا تكونُ شدَّةَ حُبِّ الأمة نَبِيَّها مَبعَثَ تَمنّيهم أن يَـرَوْهُ؟.

فَلئن فاتَهم إمكانُ رُؤيَة ذاتِهِ الشَّريفَة، فَلَهم في التَّعلق بِصفاته سَلْوَى كما قال البُوصيري:

فَتَنَـزَّه فـي ذاتِـهِ ومَـعـانيـ ـهِ استماعًا إن عَزَّ منها اجتلاءُ

ولأجْل هَذا، تَنافس السَّلف الصَّالحُ الذين لم يُشاهِدوا ذاتَ النَّبي ﷺ أوْ لَم تَعْلَق تفاصيل صفاتِـهِ المُبارَكَة بمُخَيَّلاتِهم؛ لِصِغر سنِّهم حينَ رأوهُ، دائِبينَ على طَلَب تَعَـرُّف صفاتِه، عَساهُم أن يَتَحَمَّلوا مِن تلكَ الصِّفات مَلامحَ ذاتِـهِ المُبَارَكَة، فَقد سألَ الحَسنُ والحُسَين - رَضيَ اللّه عنهما - خَالَهما هند بنَ أبي هَالَةَ[3] - وكانَ وَصَّافًا - عَن صفَةِ رَسولِ اللّهِ. وسألَ الحُسين أباه عليًّا - رَضيَ اللّه عَنهما - ثمَّ حَدَّثَ بها أخاهُ الحَسنَ، وقَد استشعرَ مَن بَقيَ من الصحابة أهميَّـةَ جَمع صفاتِ رَسولِ اللّه، لِمن يأتي مِن أمَّته، فَظَهَـرَ منهم حرصٌ على تَحديث النَّاس بذلك، فَكان أبو هريرةَ ﷺ إذا رَأى أحدًا من الأعراب، أو أحَدًا لَم يَر النَّبيَّ ﷺ، يَقول لَه: ألا أصفُ لَكَ النَّبي؟ ثمَّ يُفيضُ في وَصف شَمائلهِ.

وجاءَ رَجلٌ من بَني عامرٍ إلَى أبي أمامَةَ الباهليِّ، فَقالَ لَه: يا أبا أمامَـةَ، إنَّكَ رَجلٌ عَربيٌّ، إذا وَصفتَ شيئًا شَفَيْتَ مِنهُ. فَصِفْ لي رَسولَ اللّه كأنّي أراهُ. فَأفاضَ أبو أمامَةَ

---

(١) صدرَ هذا المقال بعنوان « الشمائل المحمديّة »، بالمَجَلَّة الزيتونيّـة، عدد (٩) سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م) (ص ٤٥٢ - ٤٥٦).

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (٢٤٩).

(٣) هندُ بن أبي هَالَةَ، أمُّه خَديجة بنت خويلدٍ - رَضي اللّـه تعالى عنها - فَهو رَبيبُ رَسول اللّـه ﷺ، وأخو فاطمة لأمها، فلذلكَ دَعاه الحسن والـحُسين خالَهما، تُوفِّي يومَ الجمل سنة (٣٦) مع جند عليٍّ ﷺ.

في ذِكرِ شَمائلهِ ﷺ، فَصارَ مَثَلُ المُسلمينَ في ذلكَ كَمَثَلِ قولِ بَشَّارٍ:

قَالوا بِمن لا تَرى تُعْنَى فَقلتُ: لَهم … الأُذْنُ كَالعَيْنِ تؤتي القلبَ مَا كانَا

وإنَّ مَحَبَّةَ الذَّات تَقْتَضي مَحَبَّةَ ذكرِ صفاتِـهِ، كما أنَّ مَحَبَّةَ ذِكْرِ الصِّفاتِ تَقتَضي المَحبَّةَ من صاحبِ الصِّفات، بما دَلَّ عَلَيـهِ حَديثُ عائشةَ - رَضيَ اللَّـه عنها - في الصحيحيْن، أنَّ رَجُلًا كان يَقرأُ لأصحابِهِ في صَلاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص: ١]، فَذَكروا ذلكَ للنَّبي ﷺ، فَقالَ: « **سَلوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصنَعُ ذلكَ؟** » فَسألوهُ فَقال: لأنَّها صِفَـةُ الرَّحمن، وأنا أحبُّ أنْ أقْرَأَ بها. فَقالَ النَّبي ﷺ: « **أخْبِروه أنَّ اللَّـهَ يُحِبُّهُ** »[1].

ولَقد يَسَّرَ اللَّـهُ للمؤمنينَ أنْ ألهَمَهُم البَحثَ عن شَمائِلِ رَسول اللَّـهِ، قَبلَ انقراض عَصر الصحابة؛ لِيَبْقى منها أثَرٌ قائمٌ لِمَن يأتي مِن المُسلمينَ في سائِر العُصور والأجْيال، يَرُدُّ عَلى قُلوبِهم رَوْحًا يَهُبُّ عَلى لَهيب أشواقِهِمْ إلَى ذَاتِ نَبيّهم. فَانْبَرى المسلمون في آخِرِ عَصر الصحابة إلَى تَقييد هَذه الصفاتِ المُبارَكَة، كما يُنبئُ بذلكَ وِجدانُنا مُعْظَمَ أحاديثِ شَمائلهِ ﷺ مَرويًّا عَن المُعَمَّرينَ من الصَّحابَةِ مثلَ ما يُـرْوَى عَن أنسِ بنِ مالكٍ، وسَهلِ ابنِ سَعدٍ، وأبي الطُّفَيل عامرِ بن واثلة، آخِر أصحابِ رَسول اللَّـهِ وفاةً، أو عَمَّنْ ثَبَتَتْ لَهم الصُّحبةُ بالمَولد، الذين كان لَهم بخاصَّة أصحاب رسول اللَّه اتِّصالٌ مِثل الحسن والحُسَيْن، فيما رَوَيَاهُ عَن أبيهمَا - كَرَّم اللَّـهُ وَجْهَـهُ - أو عَن خَالِهما هندِ بن أبي هَالَةَ ﷺ.

وقد كانَ أصحابُ رَسول اللَّـهِ إذا رَأوا رَجُلًا يُشبِهُ رَسولَ اللَّـهِ، اهتَزَّت أنفُسُهم إلَيـهِ، شَوقًا إلَى شَبيهِهِ، فَقد كان أبو بَكرٍ إذا رأى الحَسنَ بنَ عليٍّ - رَضيَ اللَّهُ عَنهما - بَعدَ وَفاةِ رَسولِ اللَّهِ، يَقول: « بِأَبـي شَبيهٌ بالنَّبي، لَيسَ شَبيهًا بِعَليٍّ »[2].

وكان كابِسُ[3] بنُ رَبيعَـةَ يُشبِهُ النَّبيَّ ﷺ، فكان أنسُ بن مالكٍ إذا رآهُ بَكى.

وبَلغَ خَبَـرُه إلى الخَليفة مُعاويَـة ﷺ (وهو مِنْ أعْرَفِ النَّاس بِصفَة رَسول اللَّه؛ إذْ كانَ صاحبَـهُ وصِهرَهُ وكاتِبَ وَحْيِـهِ)، فأرسَلَ مُعاويَـةُ في أن يُـوَجَّهَ إليه كابسٌ، مِن البَصْرَة

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد اللَّـه تبارك وتعالى (٦٩٤٠) بترقيم ديب البغا، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين - رضي اللَّـه عنهما - (٣٥٤٠) بترقيم ديب البغا.

(٣) كابِسٌ - بكافٍ في أوَّلِه - ابن ربيعةَ، من بني سامة بن لُؤَيٍّ، من أهْل البَصرة، تابعيٌّ.

إلى دِمشقَ، فلمَّا دَخلَ عَليه، قَبَّل مُعاوية بَينَ عَيْـنَـيْ كابسٍ وأقطعَه.

وكانوا يُحصونَ الصَّحابَـة الذينَ يُشبهونَ رَسولَ اللّـهِ في كَثيرٍ مِن شَمائلِهِ، ويُحصونَ مَن كانَ يُشبِهُه منَ التَّابعينَ، فَمَثَـلُهم كَمَـثَلِ قول الشَّيخِ ابنِ الفارِض:

وأبيـتُ سَهـرانًا أمثِّـلُ طَيفَـهُ ... لـلعَيـن كَـي ألـقـى خَـيالَ خَـيالِهِ

ثمَّ انقرضَ عصر الصَّحابة فَغفلَ الناس عن معرفة مَنْ يُشبهُ الذين يُشبهونَ رَسولَ اللَّهِ؛ لأنَّ المُشابَهَـةَ في مَلامح الذَّاتِ لا يَتَـوَسَّمها إلَّا الذي عَرف الذَّاتَ، فَتحصل له عند رؤية مُشابِهِ الذات لَمحةٌ من طلعة الذَّاتِ المُشَبَّـهِ بها، فَهناكَ يَتَـوَسَّم الذاتَ اللائحةَ حتَّى يعرفَ من أين جاء الشبهُ فَـيَصفهُ.

وسَنَذكرُ أسماءَ مَن أحْصَيناهم مِن هَؤلاء السَّادَة في آخر هذا المَقال.

الآثارُ المرويَّة في الشَّمائِل:

إنَّ أحاديثَ الشَّمائل المُحَمَّديَّـة الرَّاجعة الى صفةِ ذاتِـهِ كَثيرةٌ، تَنتَهي أسانيدُها إلى ثَلاثةٍ وعشرينَ من الصَّحابَـة وهُمْ: عَليُّ بن أبي طالبٍ، سَعد بن أبي وقَّاصٍ، عائشة، عبد اللَّه بن عمرَ، أنسُ بن مالكٍ، أبو هُريرَةَ، جابرُ بنُ عَبد اللَّه، البَـرَاءُ بن عازبٍ، جابر بن سَمُـرَة، أبو أمامَة الباهليُّ، جُبَير بن مُطْعم، أبو الطُّفَيل، هندُ بن أبي هالَة، عَمرو بن أخطَب، سَلمانُ الفارسيُّ، أبو سَعيد الخُدريُّ، عَبد اللَّه بن سَرجس، أم هانِـئٍ بنتُ أبي طالبٍ، أبو رِمْثَـةَ[١]، أمُّ هِلال أو أمُّ بلال[٢]، عَبد اللَّه بن عبَّاس، السائب بن يَزيد، أمُّ سعيدٍ الخُزاعِيَّة.

وقَد رأيتُ أن أحذفَ أسانيدَها وأختصرَ ما وَردَ فيها ممَّا به الحاجةُ، ويَسهل معه التوصيفُ، وأرتِّـبَه على مواضع الجَسَدِ، ولا أذكرَ إلَّا ما فيه صفة ذاتٍ من شأنِها أن تُشاهَدَ، وأتركَ المُكَـرَّرَ إلا ما في بَعضْهِ بَيانٌ أو خِلافٌ بالنسبَـة لِبَعض آخَرَ، مَع المُحافَظة على الألفاظ الواردة في الآثار، وإذا كان بَعضُ ما وَصَفَه به الواصفون يُفَسِّر البَعضَ الآخرَ ذَكرتُهُ بكلمة « أيْ » التفسيريَّة، بدون وَضع بَينَ هِلالَيْن، وإذا كانَ التَّفسيرُ من كَلامي ذَكَرْتُه بَينَ هِلالَيْن.

---

(١) هو بِكَسر الرَّاء وسكون الميم، اشْتَهَـرَ بكُنيته، وقيل: اسمُه رِفاعةَ، كما قَاله الترمذي، وقيل: حَيَّان، رَوى عن النَّبي ﷺ، وهو من تَيم الرَّباب، كما جَزَمَ به الترمذيُّ، و قيل: تَميميّ، من بني تميم.

(٢) أمّ هلال بنت بلال، وقيل: العكس، قيلَ: هي من الصحابة، وقيل غير ذلكَ.

تَفصيل الشمائل:

عُمومُ الجسم والقَامة:

لَيسَ رَسول اللّهِ بالطَّويل البَائن، ولَا بالقَصير المُتَـرَدِّدِ. وهو رَبْعَـةٌ (مُـتَـوَسِّطُ الطّول)، إلى الطّول أقربُ، رَجُلٌ بَينَ الرَّجلَيْنِ، بَعيد ما بَينَ المَنكِبَـيْن، جَليل الكَـتَدِ (مَجْمَع الكَتِفَـيْن وهو الكاهل)، جَليلُ المُشاش (رُؤوسُ المَناكِبِ)، ضَخْم العِظام، ضَخْمُ الكراديس (رُؤوس المَفاصِل)، فَخْمٌ مُفَخَّمٌ، (لَيس بنحيفٍ ولا دَقيقِ العِظام)، ليس بالمُطَـهَّم (الكثير اللَّحم)، ولَمَّا كَبِـرَ بَدُنَ. بادِنٌ مُتَماسكٌ (غَير مُسْتَرخي اللَّحم)، أجْرَد، سائلُ الأطراف (غَير قَصير اليَدَيْن ولا الأصابع)، إذا مَشى يَتَـكَفَّأ، يَتَقَلَّع كَأَنَّما يَنْحَطُّ مِن صَبَبٍ (مَكان مُنحَدرٍ) أو يَنقَلعُ مِن صَخرٍ، كأنَّـما يَمشي في صَعَدٍ، أَسْرع الناس مشيَـةً، لَونُه لَيسَ بالأَبْـيَض الأمْهَق (الشَّديد البَياض) ولا بالآدَم (الأسمر)، أَسْمَر اللَّون إلى البَياض؛ أيْ أبْيَـضُ مُشرَبٌ بِحُمرَةٍ، أزْهَر اللَّون، أبْـيَض، كأنَّما صيغَ من فِضَّةٍ، أنْوَرُ المُتَجَرَّد (ما تُغَطّيـهِ الثِّياب).

الرَّأس:

عَظيم الهامَة، رَجِلُ الشَّعَرِ؛ أيْ لَيسَ بالجَعْدِ القَطَطِ (الجَعْد المَوصوف بالجُعودَة وهي عُسرُ ارتخاءِ الشَّعَر، والقَطَطُ الشَّديد الجُعُودة)، ولا بِالسَّبْطِ (السُّبوطَة ارتخاءُ الشَّعَر بدون التواءٍ). وقيل: سَبْطُ الشَّعَرِ (فَالمعنى أنَّه إلى السُّبوطَةِ أقربُ)، عَظيمُ الجُمَّةِ، كانَ شَعَـرُه فَوقَ الوَفْـرَةِ ودونَ الجُمَّةِ، (الوَفرة: الشَّعَر الواصل إلى شَحمة أذنيه)، وقيلَ: كان ذا لِمَّةٍ (ولَعلَّها أحوالٌ)، إنْ فُرِقَت عَقيقَتُه (شَعَر الرأس) فَرَقَهُ، وإلَّا تَركه. وكانَ يُسدل شَعَـرَهُ، وكانَ أهلُ الكتاب يُسدلونَ، وكانَ المشركونَ يَـفْـرُقونَ، وكانَ يُحبَّ موافَقَةَ أهل الكتاب، ثمَّ فَـرَقَ رأسَه، وربَّما ضفرَه، فَقد دَخل الفَتحَ ولَه أربَعُ ضفائِرَ. وكانَ شَعَـرُه أسودَ، وفي صُدْغَيـهِ شَيبٌ قَليلٌ شعرات .

الوَجْهُ:

فِي وَجْهه تَدويرٌ مع استطالة قليلة، لَم يَـكن بالمُكَلْـثَم (أي المُدَوَّرِ الوَجه)، واسعَ الجَبين، صَلْتَ الجَبين، سَهْل الخَدَّيْن، أسيل الخَدَّيْن (لا نُتوءَ فيهما)، ولِـوَجهِهِ بَريقٌ، كأنَّ الشَّمسَ تَجري في وَجْهِـهِ.

الأنْف:

أقْنى العِرنين (أقْنى: طويلٌ بِدِقَّةٍ، والعِرْنين: الأنْف)، يَحْسَبه مَن لَمْ يَـتَأَمَّله أشمَّ (الشَّمَمُ

استواءُ أعلى قَصَبَـةِ الأنف مَع ارتفاعٍ يَسير في الأرْنَـبَةِ)، يُـرَى في أنفه بَعضُ احديدابٍ.

العَيْنان:

أكْحَل العَيْنَين، أدْعَجُهما (شَديد سَوادِهما). وقال جابر بن سَمرة: إذا نَظرت إلَيـهِ قلتَ: أكْحَل العَينَيْن، ولَيس بأكحلَ، أشْكَلُ (الشّكلُ حُمرَةٌ في بَياضِ العَيْن)، مُشْرَبُ العَيْنَـيْن حُمْرَةً، وقيلَ: أحْور (شَديد بَياض أبيض العَينَين)، أفْخَذُ (طويل شَقِّ العَينَيْن)، أهدَبُ الأشفار (طَويلها)، في أشْفارِهِ وَطَفٌ، (كَثرة شَعَرٍ)، نَظَـرُهُ إلَى الأرْضِ أطول مِن نَظره إلى السَّماء (إلى فَوق)، جُلُّ نَظَرِهِ المُلاحَظة (حافظًا نَظره).

الحاجِبَان:

أزَجُّ الحَواجِب (دَقيقُهما مَع تقوّسٍ)، سَوابِـغُ في غَير قَرَنٍ، وقيل: مَقرونُ الحاجِبَـيْنِ أي: يَـقربان من القَرن، بَينَ حاجِبَـيْهِ عِرقٌ يَدُرُّه الغَضَبُ.

الفَم:

ضَليع الفَم (واسِعُهُ)، حَسَنُهُ، مُفَلَّجُ الأسنان، إذا تَـكَلَّمَ رئي كالنُّور يَخرج من بَين ثَناياه، ضَحِكُهُ تَبَسُّمٌ، وربَّما ضَحكَ حتَّى بَدت نَواجِذُهُ.

الأذنَانِ:

تامُّ الأذُنَـيْنِ.

اللّحية والشّاربُ :

كَثُّ اللِّحيَـة (كثيرَة الشَّعَرِ)، قَد مَلأتْ نَحَرَهُ، سَوداءُ اللَّون، فيها شَيبٌ شَعَرات في مقدمهَا مِن تَحت الشَّفَة السفلى، وكانَ يَـقُصُّ شارِبَه (من جِهة الشفة).

العُنُق:

في عُنُقِه سَطَعٌ (بالتَّحريك، ارتِفاعٌ)، كأنَّ عُنقَه إبريقُ فِضَّةٍ، إذا التَفَتَ التَـفت جَميعًا.

الصَّدر والبَطن :

سَواءُ البَطن والصَّدرِ، مَوصولُ ما بَين اللَّبـةِ والسرَّةِ بِشَعَر يَجري كالخطِّ، أشعر أعالي الصَّدر، لَيسَ في بطنه وصَدره شَعَرٌ غَيرُ ذلكَ، دَقيقُ المَسْرُبَة (بضَم الرَّاء: الشَّعَر الذي يكون من النَّحر إلَى السُرَّةِ)، عاري الثَّدْيَيْن والبَطن (من الشَّعر)، أجْرَد، بَطنُـهُ أبْـيَض كالقَراطيس المَثنيـة بَعضُها على بَعضٍ.

اليَدانِ:

أشْعَـرُ الذِّراعَين والمَنكِبَـيْن، طَويلُ الزِّندَيْن، عَبْل العَضُدَين (ضَخمهما)، شَثْن الكَتِفَيْن (غَليظٌ فَخْمٌ)، رَحْبُ الرَّاحَة، ضَخْم الكَراديس (رَؤوسُ العِظام)، سائلُ الأطْراف، لَـيِّنُ الكَـفَّيْن كالحَرير، ورُوِيَ أنَّ سبَّابَتَيْـهِ أطول من الوُسْطَـيَيْنِ وهو غَلَطٌ، وإنَّما ذُكِرَ ذلكَ في سَبَّابَـتَيْ رِجلَيْهِ كما سَيأتي.

الظهر:

بَينَ كَتِفَـيْـهِ في ظهره خاتَم النبوَّة، وهو غُـدَّةٌ أي: بِضعَةٌ ناشِزةٌ، حَمراءُ، مثلُ زرِّ الحَجَلَة (الزِّرّ بزاي مَكسورة ثمَّ راء: قطعة من ثوب تُحشى بصوفٍ أو نحوه وتخاط فتكون كشكل البَيضة، يُشَدُّ بها شقَّة أثواب. الحَجَلَة بفَتحتين وهي البيت كالقبَّة بأن يدخل الزر في عروة تقابله، فـتَقَع الشقَّة على الشقَّة).

الرِّجْلَانِ:

شَثْن القَدمَيْن، خُمصان الأخمَصَيْن، (ضامرُ وَسَطِ القَدَمَيْن)، مَسيحُ القَدمَيْن (أملسهما، لا نُتوءَ فيهما ولَا شقوق)، قَليل لَحم العَقِبِ، رَحْبُ القدمَين؛ أيْ: ضَخمهما، وكان في ساقَيْه خُموشة (أي: دقَّةٌ)، ولساقَيْه بَريقٌ.

ورَوى أحمد بن حَنبل والبيهقيُّ حديثَ أن سبَّابَتَيْ ساقَيْهِ أطولُ من الوُسْطَيينِ، لَكن في سَنَده سَلَمَة بنُ حَفصٍ السعديُّ، كانَ يَضع الحديثَ.

والصَّحيحُ أنَّ ذلكَ لا أصلَ لَهُ، وأنَّ خَلقَ أعضاء رَسول اللَّه على أحْسَنِ خِلقَةٍ ﷺ.

من يشبه رَسولَ اللَّه ﷺ:

كان بعضُ الصَّحابَـة وبَعضُ التَّابعينَ يُشبهُ رسولَ اللَّه ﷺ، ولَم يُعَدَّ مِن بَعد التابعين أحَدٌ يُشبِههُ. وسَبب ذلكَ أنَّ أصحابَ رَسول اللَّه الذين كانوا يَـرَونَ شَبهَهُ في بَعض الذَّوات قد انقرضوا في عَصر التَّابعينَ، فَلَم يَبقَ مَن تَلوح له مَلامحُ ذاتِ رَسول اللَّهِ في بَعض الذين يُشبِهونَهُ؛ لأنَّ الشَّبَـهَ يَحصلُ مِن مَجموع صفاتٍ لا يَتَفَطَّن لَها إلَّا مَن يَعرف المُشبَّهَ بِهِ، المَوصوف بها.

وقَد صَحَّ عَن رَسول اللَّه ﷺ أنَّـه قال: إنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام هو شَبيهُهُ من الأنبياء المُتَـقدِّمينَ[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول اللّـه تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه: ٩] (٣٢١٤) بترقيم ديب البغا.

وأمَّا الذينَ يُشبهونَ رَسولَ اللَّـهِ من أمَّـته فَتسعةَ عَشَرَ أو عشرونَ وهُم: ابنتُه فاطِمَـة، وابنُه إبراهيمُ، وجَعفَر بنُ أبي طَالبٍ. قال له رسول اللَّه: « **أشْبَهتَ خَلْقِي وخُلُقي** »[1]، وأبو سفيانَ بنُ الحَارث بن عَبد المطلب، أخو رَسول اللَّه مَنَ الرَّضاعة، وعثمانُ بنُ عَفَّانَ، وقُثَمُ بن العَبَّاس، والحَسَن بنُ عَليٍّ يُشبه رَسولَ اللَّه في نِصفه الأعلى، وكان أبو بَـكرٍ يُلاطفه وهو صغير يَقول لَه: « بأبي شَبيهٌ بالنَّبيِّ، لَيس شبيهًا بِعَليٍّ »، والحُسَين يُشبِهُهُ في نِصفهِ الأسفل، وعَبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالبٍ، وعَون بن جعفر بن أبي طالبٍ، ومُحمد بن عقيل بن أبي طالبٍ، ومُسلمُ بن عقيل بن أبي طالبٍ، وعَبد اللَّه بن الحَارث ابن نوفل، الملقَّب بَبَّة، ومُسلم بن مُعتب بن أبي لَهَبٍ، وعُجَيز بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وكابِس بن رَبيعةَ، والسائب بن عُبَيد، وعَبد اللَّهِ بن عامر بن كريز العَبْشمي، وعَبد اللَّه بن أبي طَلحَةَ الخولاني.

وكان كَفُّ عَليّ بن أبي طالبٍ يُشبَّـهُ بِكَفِّ رَسول اللَّـهِ.

فَهؤلاء الذين بَلغ بهم استقرائي لِمَن ذُكرَ أنَّـه يُشبه رَسولَ اللَّـهِ ﷺ، وأنَّ مُشابَهتهم إياه مُتفاوتَةٌ وكلّها لا تَبلغ تَمامَ شَبَهِهِ. وهذا مَعنى قَول عَليٍّ ﷺ في حديث صِفَتِه: « يَقول ناعِتُهُ لَم أرَ قَبْلَهُ ولَا بَعدَهُ مِثلَهُ »، وعَليه يُحمَل قَول البُوصيري - رَحمه اللَّه -:

مُـنَـزَّهٌ عَـن شَــريـكٍ فـي مَـحاسِنِـهِ ... فَجَـوهَر الـحُسن فـيـه غَـيـر منـقسمِ

* * *

* *

*

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب جعفر بن أبي طالب الهاشمي ﷺ.

الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية.
٢ - فهرس الأحاديث والآثار.
٣ - فهرس الأعلام.
٤ - فهرس الوقائع.
٥ - فهرس المصطلحات.
٦ - فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الآيات القرآنية

* * *
* *
*

فهرس الأحاديث والآثار

* * *
* *
*

فهرس الأعلام(*)

(*) يَتَضمَّن هذا الملحق ثبتًا كاملًا لِكلِّ أسماء الأعلام والبلدان والقبائل، الوارِدَة في « قصة المولد ».

حَرْفُ ٱلبَاء

حَرْفُ ٱلتَّاء

حَرْفُ ٱلثَّاء

حَرْفُ ٱلجِيم

حَرْفُ ٱلحَاء

حَرْفُ ٱلخَاء

حَرْفُ ٱلدَّال

حَرْفُ ٱلرَّاء

حَرْفُ ٱلزَّاي

حَرْفُ ٱلسِّين

حَرْفُ ٱلشِّين

حَرْفُ ٱلصَّاد

حَرْفُ ٱلطَّاء

حَرْفُ ٱلعَيْن

حَرْفُ ٱلغَيْن

حَرْفُ ٱلفَاء

حَرْفُ ٱلقَاف

حَرْفُ ٱلكَاف

حَرْفُ ٱللَّام

حَرْفُ ٱلمِيم

حَرْفُ ٱلنُّون

حَرْفُ ٱلهَاء

* * *
* *
*

فهرس الوقائع(*)

الحَدَث	التاريخ الهجري	التقويم الميلادي	الصفحة
– دخول جَيش الحَبَشَة مَكّةَ.	عام الفيل، سنة ٥٣ قَبلَ الهجرة.	أواخر ٥٧٠	٥٥
– مَرض عبد اللّـه في رِحْلَتِهِ إلى يَثرِب.	سنة ٥٣ قبل الهجرة.	أواخر ٥٧٠	٥١
– وفاة عَبد اللّـه، في يثرب عند أخْوالِه.	سنة ٥٣ قبل الهجرة وآمنة حامل بالنبي منذ شهرين.	أواخر ٥٧٠	٥١
– مولد النبيّ ﷺ.	١٢ ربيع الأول، سنة ٥٣ قبل الهجرة.	٢٠ أبريل ٥٧١	٥٥
– خِتانُ النّبي ﷺ.	١٩ ربيع الأول، سنة ٥٣ قبل الهجرة.	٢٧ أبريل ٥٧١	٥٨
– إولام عَبْد المُطَّلِب، ونَحرُ جَزورٍ، ودَعوة رِجالٍ من قُرَيشٍ فَطَعِمُوا.	١٩ ربيع الأول، سنة ٥٣ قبل الهجرة.	٢٧ أبريل ٥٧١	٥٨
– إرْضَاع النبي ﷺ من قِبَل أمه آمنة.	ربيع الأول، سنة ٥٣ قبل الهجرة (٧ أو ١٠ أيام).	أبريل ٥٧١	٥٨
– إرْضَاعه من قِبل ثُوَيْبَةَ الأسْلَمِيَّة، جارِيةِ عَمِّهِ أبي لَهَبٍ.	نفس الفترة.	نفس الفترة	٥٨
– التِمَاس المراضع للنبيّ.	جمادى الأولى والثانية، سنة ٥٣ قبل الهجرة.	يونيو ٥٧١	٥٨
– إرضاعهُ من قِبَل حليمة السعدية.	رجب، سنة ٥٣ قبل الهجرة.	يوليو ٥٧١	٥٩
– حليمة السعدية تُرجعه إلى أمِّهِ وهو ابنُ خَمسٍ سنينَ وشَهرٍ.	سنة ٤٨ قبل الهجرة.	٥٧٦	٥٩
– وفاة عبد المطلب.	سنة ٤٥ قبل الهجرة، لـمّا بلغ النبي ﷺ ثماني سنينَ وَكَسْرًا.	٥٧٩	٥٩

(تابع الجدول)

(*) يشتمل هذا الفهرس على أهم الأحداث المذكورة في الكتاب حَسَبَ التسلسل الزمني.

الحَدَث	التاريخ الهجري	التقويم الميلادي	الصفحة
- كَفالة عَمِّهِ أبي طالِبٍ له.	سنة ٤٥ قبل الهجرة.	٥٧٩	٥٩
- حادثة السَّمَر في مكة.	سنة ٤٠ قبل الهجرة.	٥٨٤	٥٩
- حرب الفِجار.	سنة ٤١ قبل الهجرة.	٥٨٥	٦٠
- رحلة الصيف إلى الشام مع ميسرة.	له خمس وعشرون سنة، سنة ٢٨ قبل الهجرة.	٥٩٦	٦١
- الزواج من خديجة.	نفس السنة.	نفس السنة	٦١
- المساهمة في بناء الكعبة والتحكيم لوضع الحجر الأسود.	لَـمَّا بَلغَ خَمسًا وثلاثينَ سَنَةً، سنة ١٨ قبل الهجرة.	٦٠٦	٦١
- المجاورة كلّ سَنَةٍ شَهْرًا، في جَبَلِ حِراء، في مَكَّةَ.	سنة ١٦ قبل الهجرة.	٦٠٧ - ٦١٠	٦٢
- إطعام المساكين.	في نفس تِلْكَ المُدَّةِ.	٦٠٧ - ٦١٠	٦٢
- ولادة ابنه القَاسم.	قبلَ بعثته بقليلٍ، سنة ١٤ قبل الهجرة.	٦٠٩	٨٥
- ابْتِدَاء الرؤى الصَّادِقَةِ.	شَهْر رَبيعِ الثَّاني، سنة ١٣ قبل الهجرة.	٦٠٩	٦٤
- نزول الآيات الأولى من سورة العلق.	السَّابِعَ عَشَرَ من رَمَضانَ، مِن سنةِ ١٣ قبل الهجرة.	أغسطس ٦١٠	٦٤
- الذهاب إلى وَرَقَة بن نَوفَل ابن أسَدٍ.	نفس الفترة.	نفس الفترة	٦٤
- نزول سورة المُدثر، ودعوة النَّاسِ للإسْلامِ.	نفس الفترة.	نفس الفترة	٦٥
- دعوة النَّاس سرًّا، وإسلام زُهاء أربعينَ رَجلًا.	سنة ١٢ قبل الهجرة.	٦١٠ - ٦١٣	٦٥
- الإيواء إلى دَارِ الأرْقم بن أبي الأرْقَمِ.	١٢ - ١٠ سنوات قبل الهجرة مدةَ ثلاث سنوات.	٦١٠ - ٦١٣	٦٥
- نزول آية الصدع بالأمر وإظهار الرَّسولِ والمُسلِمينَ الإسلام.	سَنَة ١٠ قَبْلَ الهِجْرَةِ.	٦١٣	٦٦

(تابع الجدول)

الـحَدَث	التاريخ الهجري	التقويم الميلادي	الصفحة
- غـضـب الـمُشْرِكيـنَ وأذاهم رَسولَ اللّـهِ ﷺ وأصحابَه.	نفس الفترة.	نفس الفترة	٦٦
- كتابة صحيفَة القَطيعَةِ.	٥ سنوات قبل الهجرة.	٦١٧	٦٧
- انْحياز بني هاشمٍ وبَني المُطَّلِب إلى شِعْب أبي طالبٍ.	مُسْتَهَلّ المُحَرَّم، سنةَ ٦ قبل الهجرة.	٦١٧	٦٧
- القطيعة.	٣ سنوات.	٦١٧ - ٦٢٠	٦٧
- نقض الصَّحيفَة.	٣ سنوات قبل الهجرة.	٦٢٠	٦٨
- وفاة أبي طالبٍ.	بعـدَ خُـروجِ بَني هاشـمٍ منَ الشِّعْبِ بِثمانِيَةٍ وعِشرينَ يومًا.	٦٢٠	٦٩
- وفاة خديجة.	بَعـدَ مَـوتِـهِ بثـلاثة أيـامٍ، رَمـضان سَـنَـةَ تـسـعٍ مـن البعْثَةِ أو سَنَةَ عَشرٍ.	بداية مارس ٦٢٠	٦٩
- خروج النبي ﷺ إلى الطَّائِفِ.	شَوَّال من تلكَ السَّنَةِ.	أواخر مارس ٦٢١	٦٩
- عرض الدعوة على قبائل العَرَبِ في مَوسِمِ الحَجِّ.	مَوسمُ سَنَةِ عَشْرٍ من البعْثَةِ.	٦٢١	٦٩
- بَيعة العقبة، لَقيَ رَسولُ اللّـه عندَ العَقَبَة سِتَّةَ نفرٍ من الـخَزْرَج، فَعَرَضَ عَلَيهم الإسلامَ، فَقَبلوا وأسْلَموا.	مَوسمُ سَنَةِ عَشْرٍ من البعْثَةِ.	٦٢٠	٦٩
- الإسْراء منَ المَسجد الـحَرام إلى المَسجِدِ الأقصى ثمَّ إلَى السَّمواتِ.	سنَة اثنَتَيْنِ قبلَ الهِجرَةِ أو ثلاثٍ في شَهر رَجَب.	أواخر ٦٢١	٦٧
- قدوم اثني عشرَ رَجُلًا من الأوْس والـخَزْرَجِ للحج وإسلامهم.	موسم سنة إحدى عَشرة.	٦٢١	٦٩
- إيمـان ثلاثـةٍ وسَبعـينَ رجـلًا وامرأتينِ من الأوْسِ والـخَزْرَج ومبايعة النبي ﷺ عندَ العَقَبَة.	مَوسِم سنة اثنَتَيْ عَشْرَةَ من البعْثَةِ.	يونيو ٦٢٢	٧٠

(تابع الجدول)

الحَدَث	التاريخ الهجري	التقويم الميلادي	الصفحة
- الهِجْرَة مِن مَكّـةَ إلى الـمَدينَةِ.	شهرُ ربيعِ الأوَّل مِن سَنَةِ ثلاثَ عَشْرَةَ مِن البعثةِ.	نصف يوليو ٦٢٢	٧١
- الخـروج في فَحْمَـة العِشـاءِ والوصول إلى غار ثَورٍ عندَ الفَجْرِ.	لَيلَة الجُمُعَة ٢٧ من شَهر صَفَر، سنة ١٤ من البعثة.	١٢/١٣ سبتمبر ٦٢٢	٧١
- قضاء ثلاثِ ليالٍ والخروج إلى المدينَة.	الاثنين غُرّة ربيعِ الأوَّلِ.	١٦ سبتمبر ٦٢٢	٧١
- خروج سُراقَة في إثرهم وقصة فرسه الذي ساخت منه القدمان.	نفس الفترة.	نفس الفترة	٧٢
- نـزول قُبَـاء في بَـني عَـمـرِو ابن عَوفٍ.	الاثْنَين الثاني عَشَرَ، وقيلَ: الثامن من ربيع الأوّل.	٢٣ سبتمبر ٦٢٢	٧٣
- دُخول المَدينة، والنَّاسُ سائرونَ مَعَه ما بَينَ ماشٍ وراكِبٍ.	يوم الجُمعة، ١٢ ربيع الأول.	٢٧ سبتمبر ٦٢٢	٧٣
- النزول بدارِ كُلثوم بنِ الـهدْم.	نفس اليوم.	نفس اليوم	٧٣
- المكث في دارِ أبي أيُّوبَ سَبعَةَ أشهرٍ.	ربيع الأول - شوال، سنة ١ للهجرة.	سبتمبر ٦٢٢ - أبريل ٦٢٣	٧٤
- الانتِقال إلى سُكنَى بُيوتِهِ قَبلَ أن يَكمُلَ بناءُ المَسجِدِ.	قبل صَفَرٍ، سنة ٢ للهجرة.	قبل أغسطس ٦٢٣	٧٤
- إتمام بناء المسجد النبوي.	صَفَر من العام الـمُقْبِل.	أغسطس ٦٢٣	٧٤
- المؤاخاة بين المسلمين.	نفس الفترة.	نفس الفترة	٧٥
- تدبير أحْوال المسلمين ونظامِهِمْ.	من ١ للهجرة إلى ١٠.	٦٢٢ حتى ٦٣٢	٧٦
- غزوة الأحزاب.	سنة ٥ للهجرة.	٦٢٦	٧٧
- فتح مكَّة.	رمضان، سنة ٨ للهجرة.	ديسمبر ٦٢٩	٧٨
- تَسارَع العَرب إلى الدُّخول في دين الإسلامِ أفواجًا.	سنة ٨ - ١٠ للهجرة.	٦٢٩ - ٦٣٠	٧٨
- قدوم الوفود إلى النبي مِن جَميع مَنْ أسلَمَ مِن قَبائلِ العَرَبِ وأحْيائِها.	سنة ٨ للهجرة.	٦٢٩ - ٦٣٠	٧٨

(تابع الجدول)

الحدَث	التاريخ الهجري	التقويم الميلادي	الصفحة
- حَجَّة الوداع والخطبة.	السَّنَة العاشِرة.	٦٣٢	٧٨
- نُزول الآية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].	يوم عَرَفَةَ من تلكَ الحَجَّة.	٦٣٢	٧٨

* * *
* *
*

فهرس المصطلحات(*)

(*) نَذكرُ في هذا المُلحق، أهمَّ المصطلحات والمفاهيم التي تشكِّل النسيج المعرفي الأساسي للسيرة النبويَّة. ومن المفيد أن نقاربَ هذا الجنسَ الأدبي من خلال مفاهيمه المركزيَّة التي تنظم إنتاجَ السيرة بما هي جنسٌ أدبيّ، تاريخيّ، رمزيّ.

فهرس المصادر والمراجع

١ - **إتحافُ أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، أحمد بن أبي الضياف، طبعة وزارة الثقافة، تونس (١٩٩٩م).

٢ - **الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير**، عليّ أحمد العطار، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، القاهرة، رسالة دكتوراه (١٩٩٠م).

٣ - **أسْدُ الغابَة في مَعرفَةِ الصحابة**، عزّ الدِّين ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر.

٤ - **أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة دار المدني بجدة ومطبعة المدني، القاهرة (١٩٩١م).

٥ - **أعلام تونسيون**، صادق الزمرلي، تَقديم وتَعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي (١٩٨٦م).

٦ - **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول اللّه ﷺ والثلاثة الخلفاء**، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د . محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت (ط ١) (١٤١٧هـ).

٧ - **أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى بن جابر البَلاذُري، تَحقيق: عبد العزيز الدوري، بَيروت، جمعية المستشرقين الألمانية (١٣٩٨م / ١٩٧٨هـ).

٨ - **البِدايَة والنهاية**، ابن كثير، مَكتبة المعارف، بَيروت، (ط ٢) (١٩٧٧م).

٩ - **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن (١٣) إلى نهاية القرن (١٥)**، روبار برنشفيك، تعريب: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٩٨٨م).

١٠ - **تاريخ الرسل والملوك**، محمد بن جرير الطبريّ، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة (١٩٦٠م).

١١ - **التاريخ الكبير**، مُحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، محمد عبد المعيد خان، الهند (١٣٨٤هـ).

١٢ - **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي.

١٣ - **تاريخ دمشق**، ابن عساكر، دار الفكر، بيروت - لبنان (ط ١) (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).

١٤ - **تاريخ مدينة دمشق - حماها اللّه - وذكر فضلها، وتسمية من حلّها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، ابن عساكر، دار إحياء التراث، دمشق (١٩٩٧م).

١٥ - **التآليف المولدية**، محمد عبد الحيّ الكتاني، المَجلة الزيتونية، مجلد (١) عدد (٩) سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٢٩م).

١٦ - **تَراجم المؤلفين التونسيين**، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت (ط١) (١٩٨٢هـ).

١٧ - **ترجمة الشفاء قابلته ﷺ**، المَجَلّة الزيتونيّة، محمد البشير النيفر، عدد (٩) سنة (١٣٥٦هـ) (ص ٤٥٠، ٤٥١).

١٨ - **تعطير النواحي بترجمة العلّامَة إبراهيم الرياحي**، إبراهيم الرياحي، طبعة المكتبة العتيقة، تونس (١٨٤١م).

١٩ - **التمهيد لِما في المُوَطّأ من المعاني والأسانيد**، أبو عُمر يوسف بن عبد البر النمري الأندلسي، وزارة الأوقاف الإسلامية المغربية، المغرب (١٩٦٧م).

٢٠ - **تونس وجامع الزيتونة**، محمد الخضر حُسين، دار النوادر، دمشق، بيروت، الكويت، تحقيق: علي الرضا الحسيني (٢٠١٠م).

٢١ - **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢ - **الجامع الصحيح المختصر**، محمد بن إسماعيل أبو عبد اللَّه البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت (ط ٣) (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٢٣- **جمع الوسائل في شرح الشمائل**، نور الدين الملا الهروي القاري، المطبعة الشرفية، طبع على نفقة مصطفى البابي الحلبي وإخوته.

٢٤ - **جمهرة أنساب العرب**، ابن حزم، تَحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر (١٩٦٢م).

٢٥ - **خَلقُ أفعال العباد والردُّ على الجَهْميَّة وأصحاب التعطيل**، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: فهد ابن سليمان الفهيد، دار الأطلس الخضراء (٢٠٠٥م).

٢٦ - **دلائل النبوة**، البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٥هـ).

٢٧ - **ذِكْرى المَولد النَّبويّ**، رشيد رضا، دار النشر للجامعات (٢٠٠٩م).

٢٨ - **الرحيق المختوم**، صفي الرحمن المباركفوريّ، دار الحديث (٢٠٠٩م).

٢٩ - **رَسائلُ الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في تحقيق نَجاة أبَوي المصطفى ﷺ**، جلال الدين السُّيوطي، تَحقيق: حَسنين مَخلوف، القاهرة، مطبعة المدني (ط ٢) (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

٣٠ - **رَقْمُ الحُلَل في نَظْمِ الدُّوَل**، ابن الخطيب، المطبعة العمومية، تونس (١٣١٦هـ).

٣١ - **الروض الأنُـف**، السهيلي، تحقيق: عبد اللَّه المنشاوي، القاهرة (٢٠٠٨م).

٣٢ - **السُّبُل الجَليَّة في الآباء العَليَّة**، جلال الدين السُّيوطي، تَحقيق: محمد زينهم محمد عزب، دار الأمين (١٩٩٢م).

٣٣ - **السنة الشعرية في العصر الأموي**، عمر الإمام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، المطبعة الرسمية، تونس (٢٠٠٨م).

٣٤ - **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد أبو عبد اللَّه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٣٥ - **سنن أبي داود**، السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت (٢٠١٤م).

٣٦ - **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

٣٧ - **سنن الدارقطني**، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد عبد اللَّه هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

٣٨ - **السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد (ط ١) (١٣٤٤هـ).

٣٩ - **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، مؤسسة الرسالة (١٩٩٣م).

٤٠ - **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت (١٤٠٠هـ).

٤١ - **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، عليّ بن برهان الدين الحلبي، دار النوادر، الكويت (٢٠١٣م).

٤٢ - **السيرة النبوية والآثار المحمدية**، أحمد زيني دحلان، طبعة مطابع الهيئة المصرية (١٢٨٥هـ).

٤٣ - **السيرة النبوية**، أبو محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، طبعة مصطفى البابي الحلبي (ط٢) (١٣٧٥هـ).

٤٤ – **السيرة النبوية**، لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل (١٤١١هـ).

٤٥ – **شَذَرات الذَّهب في أخبار مَن ذَهَبَ**، ابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٦ – **شرح السنة**، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق – بيروت (ط ٢) (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٤٧ – **شَرح صحيح مسلم**، أبو زكريا محيي الدين بن شرف النَّووي، تحقيق: موفق مرعي، دار الفيحاء للطباعة والنشر (٢٠١٠م).

٤٨ – **شُعَبُ الإيمان**، أحمد بن الحسين بن موسى البيهقي، تحقيق: مختار أحمد الندوي، عبد العليّ عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد (٢٠٠٣م).

٤٩ – **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، المكتبة التوفيقية.

٥٠ – **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي أبو عيسى، تحقيق: سيد عباس الجليمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت (ط ١) (١٤١٢هـ).

٥١ – **شيخ الإسلام محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية**، محمد الحبيب ابن الخوجة، (٣) أجزاء، طبعة وزارة الأوقاف (٢٠٠٤م).

٥٢ – **الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور**، مُحَمَّد العزيز بن عاشور، دائرة المعارف التونسيَّة (١٩٩٠م).

٥٣ – **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٤ – **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البُخاري، تحقيق: محمد محمد تامر، مؤسسة المختار، القاهرة (٢٠٠٣م).

٥٥ – **صفحات من تاريخ تونس**، تقديم: حمادي الساحلي، والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي (١٩٨٦م).

٥٦ – **الطبقات الكبرى**، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد اللّه البصري الزهري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (ط ١) (١٩٦٨م).

٥٧ – **الطبقات الكبرى**، ابن سعد، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت (١٩٩٧م).

٥٨ – **عبقرية محمد**، عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، دار الكتاب المصري (١٩٩٤م).

٥٩ – **على هامش السيرة**، طه حسين، دار المعارف.

٦٠ – **فتاوى الإمام الشاطبي**، الشاطبي، جمعها وحَقَّقَها وقدَّم لها: محمد أبو الأجفان (١٩٨٥م).

٦١ – **فَتَاوَى البُرْزُلي**، البُرزُلي، دراسة وتحقيق وفهرسة: محمد الحبيب هيلة، (٧) أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت (٢٠٠٢م).

٦٢ – **فَتح الباري بشرح صحيح البخاري**، للحافظ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، المطبعة السلفية، الروضة، مصر (ط١، ٢).

٦٣ – **فضائل الصحابة**، أحمد بن حنبل أبو عبد اللّه الشيباني، تحقيق: د. وصي اللّه محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط ١) (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٦٤ – **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة (٢٠٠٤م).

٦٥ – **كتاب الأعلام**، الزركلي، طبعة بيروت (١٩٨٠م).

٦٦ – **كَشف الدَّعرات بِوَصْف الشَّمرات**، الفاضل بن الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ملحق بكتاب قصة المولد (١٩٧٢م).

٦٧ – **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٨٩م).

٦٨ – **كَيف نَشَأَ احتفالُ المَولد في بلاد الإسلام؟** الفاضل ابن عاشور، المجلة الزيتونية، مجلد (١)، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م).

٦٩ – **لسان العرب**، ابن منظور، دار الجيل، بيروت (١٩٨٨م).

٧٠ – **مَجَلَّة جوهر الإسلام**، محمد الحبيب ابن الخوجة، عدد (٣ / ٤ / ١٩٦٧م).

٧١ – **محمد النبي الإنسان**، جعفر ماجد، منشورات رحاب المعرفة، تونس (١٩٩٤م).

٧٢ – **محمد**، توفيق الحكيم، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، مصر (١٩٨٤م).

٧٣ – **المُخَصَّص في اللغة**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سِيدَه، تحقيق: إبراهيم خليل جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٩٩٦م).

٧٤ – **مَسالك الحُنَفا فِي أَبَوَيِ المُصطفى**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ضمن كتاب الحاوي للفتاوى.

٧٥ – **مُسامَرات الظريف**: محمد بن عثمان السنوسي، تحقيق: الشَّاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي (١٩٩٤م).

٧٦ – **المُستدرك على الصَّحيحَيْن**، أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن حمدويه، المعروف بالحاكم، دار المعرفة، بيروت (١٩١٥م).

٧٧ – **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة (ط ٢) (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

٧٨ – **مُسند الإمام أحمد**، للإمام أحمد بن محمد الحنبليّ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر (ط٣).

٧٩ – **المعجم الأوسط**، الحافظ أبو القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض (ط١) (١٩٨٥م)

٨٠ – **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل (ط ٢) (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م).

٨١ – **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**، شمس الدين السَّخاوي، دار الكتاب العربي.

٨٢ – **المقدمة**، أو العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: عبد السلام الشدادي، الدار البيضاء (٢٠٠٥م).

٨٣ – **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، أبو العباس القسطلاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٨٤ – **مُوطأ الإمام مالك**، مالك بن أنس الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة مصطفى البابي الحلبي (١٩٨٥م).

٨٥ – **الموطأ**، مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان (ط ١) (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

٨٦ – **نَشر العَلَمَيْن المُنيفَيْن في إحياء الأبَوَيْنِ الشَّريفَيْن**، ضمن رسائل الإمام جلال الدين السيوطي، في نجاة والدي النبي.

٨٧ - **نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب**، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مصر (ط١) (١٩٥٩م).

٨٨ - **الوزير الأكبر الشيخ يوسف جعيط**: محمد الفاضل ابن عاشور، المجلة الزيتونيَّة (ج٢) مجلد (١٠)، تونس (١٩٥٥م).

٨٩ - **وَفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٩٧٢م).

مؤلفات الطاهر ابن عاشور المعتمدة في التحقيق:

١ - **أليسَ الصُّبحُ بِقريبٍ**؟ دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة (٢٠٠٧م).

٢ - **التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس (١٩٩٧م).

٣ - **تحقيقات وأنظارٌ في القرآن والسنة**، دار سحنون للنشر (٢٠٠٧م).

٤ - **الشمائل المحمدية**، المَجَلَّة الزيتونيّة، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م) .

٥ - **فَتاوى الشيخ العلاَّمَة محمد الطاهر ابن عاشور**، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بوزغيبة، الدار المتوسطية للنشر (٢٠١١م).

٦ - **قصة المولد**، طبعة الدار التونسية للنشر (١٩٧٢م).

٧ - **كَشفُ المُغَطَّى من المعاني والألفاظ الواقعة في المُوَطَّأ**، تحقيق: طه بن علي بوسريح، دار سحنون للنشر والتوزيع (٢٠٠٧م).

٨ - **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق: الميساوي، دار النفائس، الأردن (٢٠٠١م)، وتحقيق: الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، طبعة وزارة الأوقاف القطرية (٢٠٠٤م).

٩ - **المَقْصَد العَظيم مِن الهِجْرَة**، المجلة الزيتونية، العَدَد (٣) من المُجَلَّد (٣)، بتاريخ (محرَّم ١٣٥٨هـ / مارس ١٩٣١م).

١٠ - **نَسَبُ الرَّسولِ ﷺ**، المَجَلَّة الزيتونيّة، عدد (٩)، سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٢٩م).

١١ - **وُفودُ العَرَب في الحَضْرَة النَّبَويَّة**، الهِدايَة في (٥) أعداد: (مارس ١٩٧٨م) (مايو ١٩٧٨م) (سبتمبر ١٩٧٨م) (نوفمبر ١٩٨٢م) (يناير ١٩٨٣م) .

١٢ - **الرسول والإرشاد**، مجلة الهداية، في ثلاثة أعداد: (أكتوبر ١٩٧٣م) (أبريل ١٩٧٥م) (مارس ١٩٧٧م).

١٣ - **الإسْراء**، مَجلَّة الهداية (يوليو ١٩٧٥م) .

بعض المراجع الأجنبية:

1 - D. Combe, Les genres littéraires, Hachette, Paris, (1992).

2 - J. Majed, La presse littéraire en Tunisie, Publications de l'Université de Tunis, (1979).

3 - La vie de Muḥammad, La Prédication prophétique à La Mecque, Ed. Fayard, (2008).

4 - M. Zink, La subjectivité littéraire, éd. PUF, (1985).

5 - Y. Stalloni, Les genres littéraires, Dunod, Paris, (1997).

* * *

نبذة عن المحقق

أ. د. نَجم الدِّين خَلَف اللّه..

- أستاذٌ مُحاضِرٌ، بِجامعة لُورَان الفَرنسيَّة، وبِمَعهد العلوم السياسيَّة بباريس.

- مُتَحَصِّل على شهادة الدكتوراه في اللُّغَة والآداب والحَضارَة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من مَعهَد اللُّغات الشرقيَّة بباريس.

- تتعلقُ أبْحاثهُ بنظريَّات المَعنى في التراث العربي الإسلاميّ (من بلاغة ونحوٍ وأصولِ فقهٍ)، ومناهجِ تَفسير القرآن، وتاريخ الفقه الإسلاميّ، وتَطوُّرات اللغة العربيَّة في مَجال الاصطلاح القانونيّ. نَشَرَ العَديدَ من الكتب والمَقالات بالفرنسية والإنجليزيّة حولَ نظريَّة المعنى في التراث البلاغيِّ والتأويليِّ العربيِّ، إلى جانب إصداره عدَّة كُتبٍ تعليمية في تدريس العربية لغير الناطقين بها.

- ويعود اهتمام الباحث نَجم الدين خلف اللّه بالعلَّامَة الطاهر ابن عاشور إلى مَرحلة إعداد أطروحَة الدكتوراه التي تتناولُ نَظريَّة المعنى عند الشيخ عَبدِ القاهر الجرجاني، مؤسس علم البلاغة، ومُصنَّفاتُه - ولا سيما الدلائل والأسرار - لَهِيَ من المصادر الأساسية في تَفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، وعَليها مُعتَمَدُهُ في بَيان نَظم الآيات وتَناسق مَعانيها ونكتِ البلاغة فيها، كما خَصَّصَ الشيخُ ابنُ عاشور سلسلةً من الأمالي على دلائل الإعجاز، (وهي ما تزال مخطوطة ونَعتزم بِحول اللّه نَشرَها).

- ومنذ ذلك الحين والباحث عاكفٌ على كلِّ آثار ابن عاشور لبيان خصائص مَدرستِهِ التفسيريَّة والبلاغيَّة والكلامية، وما هي - في نَظره - إلَّا امتدادٌ وتَهذيبٌ وإعادة ابتكار لتحقيقات الزمخشري والرازي والقرطبي وابن عطية، وكلهم من أساطين التفسير.

- و« قصة المولد » التي نَعتَـزُّ بتقديمها اليوم هي باكورة هذه الأعمال والتحقيقات التي نعتزم إنجازها بِحَوْل اللّه.

* * *
* *
*

جمهورية مصر العربية

رقم الإيداع ٢٠١٥/١٤٩٦٩

الترقيم الدولي I. S. B. N

978 - 977 - 717 - 252 - 3

الجمهورية التونسية

الترقيم الدولي I. S. B. N

978 - 9938 - 834 - 67 - 3